

الوَحْدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

تأليف الأستاذ
محمد أبو زهرة

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان

ص.ب ٦٥٨٥

جميع الحقوق محفوظة
لدارالرائد العربي

الْحَمْدُ لِلَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي رسول
الوحدانية ، وجامع الإنسانية وعلى آله وصحبه أجمعين .

١ - أما بعد فقد روي في الصحاح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،
قد قال : « بدأ الإسلام غريبا وعاد غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وأي غربة
للإسلام أكثر من أن تتوزع أقاليم الأرض أهله ولا جامع يجمعهم ، وأن تمزقهم
الجنسية والعنصرية ، ويقول خاتم النبيين « كلكم لأدم وآدم من تراب » ، لا فضل
لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وأي غربة أشد من أن تحارب جماعة إسلامية
أخرى من غير أي جريئة دينية ، بل أي غربة للإسلام أقوى من أن يستنصر
أمير مسلم بأعداء الله وأعداء الإسلام وينسى قوله تعالى ﴿ لا تعبد قوما يؤمنون
بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم
أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ .

إن الفرقة بين المسلمين هوئت أمرهم ، وجعلتهم حجة على الإسلام ، ومبادئه ،

حقى لقد قال الأعداء ، لو كان الإسلام خيراً ، ما كان أهله على هذه الحال من الخلل والاضطراب والبعден أسباب القوة، وقد تحكوا فينا ، فإن حاولنا أن نجتمع خذّلونا، أو خذلنا الرؤساء الذين يوالونهم ، ويستمدون القوة منهم ويسيرون في مسارهم ويدورون حول قطبهم، وأي غربة للإسلام أشد من أن من يدعو إلى الوحدة الإسلامية تكون دعوته غريبة وصوته منكراً، كأنه يهاجم الإسلام ، وفي كل الأحوال تكون دعوته صرخة في واد .

٢ - لقد نادى الإمام جمال الدين الأفغاني بضرورة إنشاء جامعة دولية إسلامية ، وما كانت لدعوته استجابة ، إلا حث الشعب الإسلامي عليها ، وإنهاض الأمة الإسلامية للتجاء نحوها . وطوّف في أرض الإسلام ما طوّف يحرض ويجمع، وما دخل إقليماً إسلامياً إلا أيقظ أهله ، وأزال الغمة، وحاول بَعَثَ الهمة ولكن لا يلبث حكام المسلمين أن يخرجوه من أرض الإسلام حتى ألجؤوه إلى دار الكفر ، فظن أنه يستطيع أن ينادي من أرض غير إسلامية ليجمع الأمة الإسلامية ، زاعماً أن أهل أوروبا أحرار ، كما يوهمون المسلمين، فاتخذ منبره هنالك في مجلة العروة الوثقى. ولكن ضاقت صدورهم حرجاً بها، فالفوها بعد بضعة أعداد، فأخذ يطوف، وقد أعطاه الله قوة روحية مؤثرة، فأراد أعداء الإسلام، أو أعداء الوحدة الإسلامية أن يمنعوه فلم يجدوا إلا أن يلجئوه الى ما كان يسمى دار الخلافة الإسلامية في ملك آل عثمان، فاستضافه من كان يسمى نفسه أمير المؤمنين، وهو سلطان آل عثمان ، فدخل القسطنطينية وكانت السجن لذلك الحكيم، فانقطع صوته الذي كان يدوي ويعلن صوت الحق في وسط جَلْجَلَةِ الباطل ، ومنع شخصه من التجوال في الأقاليم الإسلامية وبُثَّتْ حوله العيون .

٣ - ولعل الزمن لم يكن مواتياً لدعوة الإمام جمال الدين ، وإن حاول التنبيه والإيقاظ وحسبه ذلك شرفاً ، فالأمة كانت خاملة، وأعداء الإسلام هم المتحكّمون في مصائر المسلمين ، وهم يحولون بين كل داع للوحدة ودعوته ، ولا يريدون للمسلمين إلا أن يكونوا قوماً بوراً .

والآن قد حالت الحال ، وكَفَّ أعداء الإسلام أيديهم ، وإن كانوا لم يكفوها، إلا بعد أن كان لهم من المسلمين من لا يزالون يتبعونهم نفسياً وعقلياً . وليس للإسلام فيهم إلا الاسم الإسلامي ، وذكره في تعدادهم وكان للتحكم في الإسلام أثره في قلوبهم ، وقد كانوا يُدَنُّونَهُمْ ، ويقرّبونهم زلفى إليهم .

ومها يكن من هؤلاء الذين خلّفهم عدو الإسلام في أرضه ، وكانوا هم المخلفين الذين يتكلمون في اعلاء شأن من كانوا يتحكمون ، وتخضع الحقائق الإسلامية ، وتمجيد الشرائع غير الإسلامية .

ومها يكن أمر هؤلاء، فإن في المسلمين يقظة ابتدأ نورها خفيفاً، وسينبثق نوراً وهاجاً ، ولذلك لا نياس من أن تعود الوحدة الإسلامية، كما بدأت قوية، تجعل من المسلمين جماعة واحدة تقف أمام الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وغيرهما من الكتل التي تتجمع، وليس فيها للإسلام مكان، وإن الجماعة الإسلامية ستكون مصدر خير للإنسانية ، كما كانت في عصر النبي ﷺ وعصر الراشدين من بعده ، بل عصر الملوك الذين كانوا يحكمون المسلمين ، وهم مجتمعون ، سواء كان الحكم ، كما جاء في القرآن والسنة ، أم خالفوه في مناهج قلت أو كثرت.

٤ - ولا يصح لنا أن نسكت ، لأن السكوت تخاذل ورضا بغير المقرر الثابت في الإسلام ، وما دام القرآن قائماً ، والسنة النبوية تروى ، فإن الوحدة ممكنة لتوافر أسبابها ، وموانعها ليس من المستحيل إزالتها ، ولقد قال النبي ﷺ : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله تعالى وسنتي ، وفي رواية الترمذي وعترتي . »

وإن الطريق لواضح ، وإن كانت فيه عقبات فهي من المسلمين أنفسهم ، كما قال ﷺ « تركتكم على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ، فالطريق واضح لا يضل فيه الساري . »

وإننا إذا اتجهنا إلى الكتابة في الوحدة الإسلامية ، كما يجب على كل مكلف أن يتكلم فيها بالقلم واللسان والمواجهة ، والانتقال واللقاء ، إذا اتجهنا إلى ذلك يجب أن ندرس كيف تكونت بتوفيق الله للنبي ﷺ ، وتأليف الله لأهل الإيمان ابتداء ، كما قال تعالى : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإنَّ حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ، يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

هـ - وإن الرجوع إلى أصل تكون الجسم ، هو السبيل لجمعه إذا تفرقت أعضاؤه بحيث يوضع كل عضو في موضعه ، فيكون التلاؤم الأصلي ، والتناسق الوجودي ، فيجب أن نبين كيف كونت الوحدة ابتداء ، ولقد تتبعنا في بحث الوحدة أسباب الفرقة والانقسام ، ويظهر أنها قديمة من بعد عصر أبي بكر وعمر ، ففي عصر ذي النورين عثمان ظهرت الفتن الطاحنة الهادمة ، وفي عهد إمام الهدى علي ظهر البغي مع الفتن .

وبذلك وجدت نابتة الفرقة ، وتغلغلت في المجتمع الإسلامي ، وتحقق قول النبي ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري « ستكون فتن النائم فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم » ونمت بذور الفرقة في عهد ملوك بني أمية حتى أن الإمام زيدا يقول ، لو علقت في الثريا ، وقطعت إربا على أن تجتمع أمة محمد ﷺ أو كما قال ثالث الشهداء من عشرة محمد ﷺ .

ولقد وجدنا أن العصبية العربية ، ثم الشعوبية ، ثم الانحياز الاقليمي ثم إحياء اللغات القديمة والملوك الذين أقاموها حرباً بين المسلمين ، كانوا من أسباب لفرقة وقد حاولنا أن نعالج هذا .

دعونا إلى إحياء اللغة العربية ، وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الإسلامي ،

ودعونا إلى توحيد السياسة والحرب بإنشاء جامعة إسلامية ، ودعونا إلى محو
الغصورية بين المسلمين .

وإذا كان الناس يرون ذلك مستحيلا اليوم ، فإنه بالإيمان والعزيمة ، والرغبة
في حياة عزيزة كريمة يقرب البعيد ، ويتحقق المستحيل ، اللهم هيء لنا من
أمرنا رشدا .

محمد أبو زهرة

الوحدة الإسلامية تكوينها، قيامها، انقسامها، طريقة جمعها

(١) الوحدة الإسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات ، وقد كانت حقيقة ثابتة في الوجود ، كما هي مقررة في النصوص ، في عهد النبي ﷺ ، وعهد الراشدين ، وما والاه من العهود التي قاربت في عهد ملوك بني أمية ، وبني العباس ، وإن كانت العصبية الاقليمية أو العشوية كما سميت في التاريخ الإسلامي ، قد أخذت تتدخل إلى الجماعات الإسلامية ، وكانت في الوجود وراء العصبية العربية التي انبعثت من مراقدها في العهد الأموي ، فكانت العصبية الجنسية وراء العصبية العربية وكنائهما جاهلي في معناه ، ناف للحقائق الإسلامية ، والوصايا المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

والآن قد صار المسلمون إلى افتراق ، وفي بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديداً ، ووالى كثير منهم من لا يؤد للإسلام وأهله إلا خبالا .

فكان لا بد من جمع المتفرق ، ولم الشعث ، واتباع ما أمر به القرآن ، وقرره النبي ﷺ في وصاياه ، وإعادة أمر المسلمين ، كما ابتدأوا جماعة واحدة يتضافرون كالبنيان المرصوص ، ولا يتخذل بعضهم بعضاً ، وأن يبتدأ بأقرب الخطوات ، ثم التي تليها من غير موافاة ولا قصور .

تحيه

١ - ينظر الإسلام إلى الإنسانية على أنها وحدة ، لا فرقة فيها بالأجناس أو الألوان ، أو الأقاليم ، فإن توزعت الأرض بنى آدم ، فقد جمعتهم الإنسانية ، فكلهم لآدم وحواء خلقوا من نفس واحدة ، ومن طينة واحدة ، وقد خاطب الله تعالى الناس بهذه الحقيقة ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

فهذا النص القرآني الكريم يوجه التالين له ، والمستمعين إليه إلى أن هنا رحماً يجب وصلها بين بني الإنسان ، شرقيهم وغربيهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وأصفرهم ، ومتندينهم ، وحضرهم ، وجاهلهم وعالمهم ، والمتكامل منهم والناقص .

وان الاختلاف في الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى في الكون ، وقد أنشأها سبحانه من خلق السموات والأرض ، وخلق الأكوان ، والتباين فيها خلق من ظل ومن حرور ، وأرض خصبة هادئة ، وأرض قاسية غليظة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

وإذا كانت الأرض قد توزعت أبناء آدم ، وفرقت بينهم أجواؤها ، وأحوالها ، وتباينت الألسنة ، وأشكال المعاش ، فإن الأخوة ثابتة بحكم الإسلام وبما جاء به القرآن ، والتعارف واجب وإذا فرقت الأرض فالمعاني الإنسانية تقرب ، وتجمع ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ 》 .

وان التعارف هو تثبيت الوحدة الجامعة ، وتأليف القلوب المتفرقة هو أساس العلاقة ، هذا وان التعارف بلا ريب يقتضي المساواة والكرامة الإنسانية التي أعطاها الله تعالى للإنسان بمقتضى كونه إنساناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَلَلْنَا فِيهِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا 》 ..

وان التعارف الإنساني يوجب أن يفيض أهل كل إقليم بفائض خيرهم على أهل الإقليم الذي شحت أرضه بمثل ما عند الإقليم الذي يكون عنده فائض الخير .

فالإقليم الذي يكثر فيه القمح لا يرمي في البحار ، وينالي في الأسعار ، بل يفيض به على من ليس عنده قمح ، ومن عنده مواد الكساء يفيض بها على من ليس عندهم هذه المادة ، وإذا كانت الأرزاق في أرض الله تعالى متباينة ، فإنها بحكم الإنسانية الموحدة تتلاقى ثمراتها وتجتمع عند أهل كل إقليم ، وحينئذ يكون التباين خيراً ليتوافر للجميع الخير العميم ، ولذلك ورد في بعض الآثار المنسوبة للنبي ﷺ أنه قال : « الناس بخير ما تباينوا ، فإن اتفقوا هلكوا » .

وان التعارف يوجب التعاون في رفع الحق ، وخفض الباطل ، وسيادة الفضيلة والمساواة العادلة بين بني الانسان ، وأن يدفع الظلم عن كل بني الإنسان ، وأن يقف أهل كل إقليم أنفسهم لمساندة الضعيف في أي أرض من أرض الله ،

حتى لا يُفسدِ الظلم أهل الأرض ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ .

٢ - وان القرآن إذ ينص على الوحدة الانسانية مع تفرق الأقاليم والعناصر، ينص على الوحدة في الفطرة الانسانية، فليس لأهل اقليم منزع فطري غير منزع الآخر ، بل أصل النزوع النفسي واحد ، فيه أسباب الاستقامة والانحراف واحدة ، فليس الاختلاف ناشئاً من طبائع مختلفة ، بل هو من فطرة واحدة ، فلا يقال طبيعة الزنجي غير طبيعة الأبيض ، ولا طبيعة الأصفر غير طبيعة الأسود، بل الطبائع في أصلها واحدة، ولكن يكون الاختلاف من التوجيه ، والتوجه ، لا من أصل الفطرة ، فهي واحدة ولذلك قال الله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ .

وان هذا النص الكريم يدل على وحدة الانسانية في الغرائز والمنازع ، وأصل الفطرة ومنازعة الأهواء الجاحمة والشهوات الدافعة ، وإن الاتحاد في ذلك يؤدي لا محالة إلى الاختلاف، والتنازع ، إذ أنه لو كان الحاكم هو العقل وحده ما اختلفوا ، إنما تحكم الأهواء والشهوات ، وسيطرتها على بعض النفوس فكان لا بد فيها من التنازع بين الخير الذي يدعو إليه العقل ، والشر الذي يدفع اليه داعي الهوى والشهوة ، ولهذه المنازعات في داخل النفوس ، وبين الناس كان بعث النبيين ولقد صرحت آية أخرى بأن الوحدة النفسية في أصل تكوينها يترتب عليها الاختلاف لا محالة ، فقال تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة ، فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ .

ونرى من هذا أن النص يشير إلى أن الوحدة يترتب عليها الاختلاف ،

فانه إذا كانت كل النفوس متحدة في وجود المنازع وأنها مستعدة للخير وللشر ، فانه لا محالة يترتب الاختلاف والتنازع بل التناحر ، فمن الوحدة النفسية كان الاختلاف ، ولقد قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ . وهكذا يصرح القرآن بوحدة النفس الانسانية في منازعها واتجاهاتها ، وانما التربية ، والبيئات الاجتماعية ، والتوجيهات هي التي توجد الاختلاف بين المجتمعات ، فلا يقال هذه نفس حر ، وتلك نفس عبد ، ولا يقال هذه نفس زنجي ، وتلك نفس أبيض ، ولا يقال هذه نفس بدوي ، وتلك نفس حضري ، فالنفوس واحدة وإنما يكون الاختلاف بسبب البيئات والمجتمعات .

ويظلم الحقائق ، والانسانية من يجعل لفريق نفساً ، وللآخر نفساً .

٣ - وإن الإسلام لا يعد أهل جيل أمة واحدة ، بل يعد الأجيال كلها أمة واحدة ، تتحد في معارضة الأنبياء ، والاستجابة لهم ، لأن النفس البشرية واحدة في الماضي والحاضر والانسان ابن الانسان ، كما كان يقرر بعض أساتذتنا الأجلاء (ض) .

ولقد ذكر القرآن تلك الوحدة النفسية في الأجيال كلها ، فقال تعالى في سورة (المؤمنون) : ﴿ يا أيها الرسل ، كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، اني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ ، وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ .

فهذا النص الكريم كالنص الذي تلوثاه آفنا يدل على وحدة الأقوام في صدودها عن الحق أن قامت دلائله ، وإيمان كثيرين به ، وقد ظهرت أماراته كالضوء ، فمشوا فيه ، وهم يعلمون .

الرسالة المحمدية للكافة :

٤ - إن الانسانية أمة واحدة كما قرر القرآن الكريم معجزة الوجود الكبرى وإن وحدة الانسانية ثابتة لا في جيل واحد ، بل الأجيال كلها متحدة في نفوس المنحرفين ، ومتحدة في نفوس المهتدين ، فالناس أولاد الناس منهم من ضل وغوى ، ومنهم من آمن واهتدى ، والانبعاث إلى الهداية واحد في الأجيال كلها ، وإلى الفجوة في الأجيال أيضاً ، والله تعالى هو العليم بذات الصدور ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ومن سلك سبيل الضلالة وصل إلى غايتها . وإن الرسالة المحمدية كانت للناس كافة لا لأقليم ، ولا لجنس ، ولا لفريق من الناس ، بل كانت عامة في دعوتها ، وعامة في هدايتها .

خطب بها الناس جميعاً في إبان نزول الوحي ، وخطبت بها الأجيال كلها من بعد محمد إلى يوم الدين ، فدين محمد هو الدين الخالد إلى يوم القيامة ، ومحمد ﷺ آخر لنبوة في صرح النبوة ، وهو خاتم النبيين ، ولا وحي من السماء من بعده ، فيه ختمت الرسالة ولم يبق للناس إلا الكتاب الخالد ، الذي هو سجل الرسالات ، والسنة النبوية ، وهما المحجة الباقية إلى يوم زوال الأرض ، ومن عليها ، وليس للناس من بعد النبي ﷺ إلا فهم وتدبر في الكتاب والسنة والبناء عليها ، من غير أن يخرج من دائرتهما بل يدور حول محورهما ، ويهدايتهما . ولقد وردت النصوص بعموم الدعوة المحمدية ، وجاءت أعمال النبي ﷺ بذلك ، وإن طبيعة الهداية المحمدية أن تكون عامة لا خاصة ؛ لأن المبادئ الإسلامية هي الفطرة الإنسانية ، والفطرة عامة لا خاصة ، ويقول الله تبارك وتعالى في وصف الحقائق الإسلامية ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ فلا تبديل لخلق الله تعالى لاختلاف إقليم عن إقليم ، ولا جنس عن جنس ، ولا عنصر عن عنصر ، بل كلمات الله تعالى عامة في حكمها وفي موضوعها ، فلا تبديل فيها ولا تفسير بل فيها الشمول الكامل ، والعموم الذي لا يتخلف ، ولا يخرج عنه بخصوص إلا إذا استمد التخصيص من نص عام يبيح قاعدته ، ويؤكد معناه .

ولقد صرح القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية، فقال عزّ من قائل : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ . وقال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة الناس بشيراً ونذيراً﴾ .

وإن هذين النصين يدلان بصريح العبارة على عموم الرسالة المحمدية التي خوطب بها الناس وكلف أن يقوم محمد بها عامة لا يخص اقليماً ، ولا جنساً ، ولا لوناً ، ولا عنصراً .

ويقول تعالى أمراً نبيه : ﴿قل يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ وإن أوصاف الرسول الكريم في القرآن الكريم تدل على عموم رسالته ، فالله تعالى يقول في محكم آياته : ﴿يا أيها الناس ، قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً﴾ ، فالرسول جاء بالحق ، والحق هو الأمر الثابت الدائم الذي لا تختلف فيه العقول ، والأمر به لا يكون إلا عاماً .

ويقول سبحانه وتعالى في مخاطبة أهل الكتاب بالدعوة المحمدية ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير﴾ .

وإذا ذكر العرب على أن الدعوة فيهم ابتداء، ذكر أنها للناس كافة انتهاء، فالله تعالى يقول : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ ثم يقول من بعد ذلك ما يدل على عموم الدعوة والرسالة : ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ولتنذر أم القرى ، ومن حولها﴾ .

هـ - ولقد صرح القرآن الكريم بأن رسالة محمد ظاهرة على ما سبقها من الرسالات وأنها الخالدة دون ما سبقها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيئاتهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فأزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا 》 .

وان هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن دين محمد هو الدين الحق ، بعد أن بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا حق عند أهل العصور التي جاءت بعد الرسالة المحمدية ، وبعد أن يبلتغوها إلا دين محمد لأنه الحق ، وأن ديانة موسى وعيسى قد انتهت ، وما لأحد أن يستمسك بها إلا فيما قرّره رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال عليه السلام : « لو كان موسى حياً ، ما وسعه إلا أن يتبعني » .

ثانيها : أن الرسالة المحمدية هي الظاهرة بمقتضى الأمر الأول على الديانات كلها ، لأنها الحق الثابت الباقي وحدها بعد أن جاء بها الرسول الأمين محمد ﷺ ، وهي في زمانها هي وحدها الحق .

ثالثها : أن أصحاب النبي ﷺ هم الذين حملوا أمانة التبليغ للكافة من بعده ، فهم أشداء في دعوة الحق ، متراحون فيما بينهم ، وأن الدعاة بالدعوة الإسلامية بتوجيه الرسول ﷺ هم الذين يتولون نشرها للأقرب فالأقرب ، وأنها بين أيديهم كزرع أخرج شطأه ، والله يؤازره ، حتى يستغلظ ويقوى ويثبت في الوجود ، وقد استوى على سوقه .

٦ - والقرآن الكريم قد ذكر الله تعالى فيه بأن هدايته عامة ، لا تخفى فقد وصفه الله تعالى بأنه ﴿ هدى للعالمين ﴾ ، ووصفه سبحانه بأنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ . ويقول سبحانه في وصف الهداية الحمديدية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويلاحظ هنا أن الخطاب في شأن القرآن وبنصه كان للناس ، وهذا نص شامل لكل من يتصف بالإنسانية ، وبأنه ناس ، فلا يختص بعربي دون أعجمي ولا بأحر أو أبيض ، دون الأسود والأصفر ، إذ أن الجميع ناس من الناس . ويقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ، الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ .

وهكذا نجد التصريح من القرآن الكريم بعموم الرسالة الحمديدية ، وبيان القرآن في الهداية وهو حجة النبي ﷺ وسجل شريعته ، فهو ما كان إلا للناس كافة .

النبي عربي ونزلت الشريعة في العرب :

٧ - ومع عموم الرسالة الحمديدية ، فإن المبعوث رحمة للكافة كان عربياً ، تطبيقاً للقاعدة الكريمة التي قررها القرآن الكريم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، فقد كان المخاطبون الذين حملوا هذه الرسالة العامة العرب ولقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وأن النبي ﷺ بعث في العرب الأميين ، كما قال تعالى فيما تلونا : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

ولقد كان القرآن ، لأن النبي محمداً ﷺ عربي ، وبعث في العرب ، كان القرآن عربياً ، فقد قال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكرا ﴾

وقال تعالى فيه : ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ ، وقال تعالى في القرآن الكريم : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وإنه لفي زبر الأولين ، أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل مبين ، ولو أنزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

فهذا يدل على أن القرآن نزل بالعربية لكي يفهمه العرب ، وأنه لا يفهمه الأعجمون لأنه بلسان عربي مبين . ولقد قال تعالى في ذلك أيضاً : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ﴾ .

لقد ذكر سبحانه أنه أنزل القرآن عربياً لكي يفهمه العرب فوق أن النبي عربي ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عصى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

وهكذا نجد الرسالة الحمديدية أخذت الصفة العربية ، ولكنها ليست مقصورة على العرب بل هي للناس كافة ، وذلك لأن ابتداءها عربي ، وغايتها

عامة شاملة ، لأنها جاءت لإصلاح بني الإنسان أياً كانت لغتهم وأياً كان
لونهم أو جنسهم .

ولكنها في ابتداء الدعوة اتجهت إلى العرب ، ليكون منهم الرعيل
الأول الذي يحمل أعباء الرسالة المحمدية ، ولذلك عندما أمر الله تعالى نبيه
بأن يصدع بما يؤمر به وأن يعرض عن المشركين قال له عز من قائل :
﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

فالدعوة ابتدأت موضعية في دائرة ضيقة ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى
شملت العرب ، ابتدأت في أسرة النبي ﷺ ، وهم عشيرته الأقربون ، ثم
اتسعت دائرتها ، حتى شملت قريشاً ، وانبثق نورها إلى ما حول أم القرى
من الأرض العربية حتى إذا تجاوزت أصدائها في ربوعها ما بين جاحد
مخالف ، ومؤمن موافق ، اتجه النبي ﷺ إلى خارج الديار العربية ، فأرسل
الكتب إلى الملوك ليمكنوه من أن يدعو أقوامهم إلى الإسلام وبلغوهم الرسالة
التي حملها الله تعالى محمداً ﷺ ، فأرسل إلى كسرى في فارس ، وإلى هرقل
في بلاد الروم ، وإلى المقوقس في مصر ، وإلى غيرهم يدعون بدعاية الإسلام ، وأن
يخلوا له طريق الدعوة ، لتسير إلى أقوامهم ، فمن استجاب لها واهتدى فإنما
يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ولكن منهم من أجاب مترفقاً في الرفض ، ومنهم من خشن فيه ، ومنهم
من قتل من أسلم من رعيته ، فكان حتماً على النبي ﷺ أن يحمي التابعين
للمرسلة المحمدية من أن يقتلوا في دينهم ، ولقد جرد لذلك جيشاً لملاقاة الروم ،
لأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام .

وخلاصة القول في هذا المقام تستبين من قول النبي ﷺ عندما خاطب
عشيرته إذ قال ﷺ : « إني لرسول الله اليكم خاصة وإلى الناس كافة » .

العرب حملة الرسالة المحمدية إلى الناس كافة :

٨ - اختص الله تعالى العرب بأن يكونوا هم المبلّغين - التبليغ الأول بعد وفاة النبي ﷺ ، على أن يعلنوها للناس كافة ، وينشروها بينهم ، ويشقوا الطريق لرفع الظلم عن المظلومين ، المرهقين من حكامهم الطاغين ولكنهم لم يختصوا بموضوعها ، بل هي للناس كافة ، واختصاصهم اختصاص في عبء التبليغ الأول ، لأنهم تلقوا عن الرسول ﷺ ، وهم الذين شافوه ، وعانيوه ، فكان أول واجب للتبليغ يقع عليهم .

وذلك لأن الشريعة المحمدية كما ذكرنا إلى الناس كافة ، وليس من المعقول ، ولا من طبائع الأشياء أن يخاطب صاحب الرسالة محمد ﷺ وحده بها الناس ، بحيث يذهب إلى أهل كل إقليم ، وكل جنس ، يذهب اليهم في ربوع ديارهم وأن يخاطبهم بلغاتهم المختلفة وأن يبعثر جهوده في الناس قاطبة إقليماً إقليماً ، وجنساً جنساً ، وقد يتضافرون جميعاً ضده متآلبين على دعوته ، وبمكاثرتهم له يقضون على الدعوة في مهدها ، ولا تخرج إلى أي مسار في سيرها .

إنما المعقول أن تبتدىء دعوته بعدد من الناس يكونون حواريه وصفوته المختارة من بين من بعث اليهم ، حتى إذا أشربوا الدعوة حملوها لمن وراءهم ، كما قال تعالى ﴿ فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون ﴾ .

لذلك كانت الدعوة المحمدية التي بعث صاحبها محمد ﷺ في العرب ابتداء ، وسار بها الدعوة بأمر النبي ﷺ انتهاء ، وابتدأت في أضيق دائرة حتى كان المؤمنون الأشداء في دينهم ، وإن كانوا قليلاً ، لأنهم بقوة إيمانهم يصبرون على الدعوة والجهاد في سبيلها ، ويصابرون المعاندين ، ويتحملون الأذى في سبيلها ، غير وائين ولا مقصرين ، والدعوات لا تأخذ طريقها بكثرة أتباعها ، ولكن بقوة إيمان الدعاة ، وإخلاصهم وقوة أخلاقهم .

وما زالت الدعوة من بعد ذلك تسير في الطريق ، حتى حملتها الجموع المتكاثرة ، ولكن الصبر دائماً يكون في الصدمة الأولى ، كما قال محمد ﷺ .

ولقد تجاوزت الدعوة أرض العرب إلى الفرس وما وراءهم ، والشام ، ومصر وما وراءها حاملة النور والهداية ، والقوة التي تقف في وجوه الظالمين تأطّرهم إلى الحق أطّراً ، ثم عمّت الرسالة المحمدية ووصلت إلى الكافة في مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت بمبادئ الحق والعدل على العالم كالغيث ، فنهل منه من نهل ، وأصاب خصب النفوس وجديها .

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

٩ - لماذا اختص الله تعالى العرب بأن يكون في أرضهم مشرق النور الذي انبعث إلى كافة الخليقة؟ ونقول في الإجابة عن ذلك : ان هذا اختيار الله تعالى العليم الخبير ، وما كان لنا أن نعلل اختيار الله تعالى فهو لا يسأل عما يفعل ، ولكن نلتمس الحكمة ، ونتعرف المآلات التي ظهرت في الماضي وكانت تظهر آنأ بعد ان .

ونقول ابتداء ان أرض العرب كانت مهداً للنبوة الأولى ، فقد قال الثقات من المؤرخين ان إدريس عليه السلام ، وقد كان صديقاً نبياً ، وهو أقدم من نوح ظهر بدعوته في أرض العرب ، وعاش بها ، ونوح عليه السلام قالوا إن دعوته كانت بالبلاد العربية ، ويرجح ابن جرير أنه دفن في البلاد العربية .

وهود، وصالح، وشعيب ، كل أولئك كانوا عرباً، وبثوا دعوتهم في البلاد العربية، وموسى عليه السلام لم يبعث إلا في أرض عربية، فإذا كان قد ربّي في قصر فرعون ، وعاش في جنبات مصر وخصبها ، فإنه لم ينزل عليه الوحي إلا في أرض مدين، ولم يتلق كلماته إلا فيها ولما استنقذ الله تعالى به بني إسرائيل كان مأواهم في سيناء، حيث مشارف الأراضي العربية .

وإذا كانت رسالة الكافة التي حملها محمد ﷺ ، قد كان مهبطها في البلاد العربية ، وفي أوسط ديارهم وأكرمها عند الله تعالى ، فإن ذلك لم يكن بدعا بين الرسالات الإلهية ، وخصوصاً أن مهبط دعوته كان في مكة التي بها حرم الله الآمن في الجاهلية والإسلام ، وهي بناء أبي الأنبياء ، إبراهيم وأبي العرب من ولد عدنان .

لذلك نقول إن أرض العرب فيها آثار النبيين التي تدعو إلى الاعتبار وفيها العبر وفيها المثالات لأنها أرض الرسالات الإلهية التي بعث بها النبيون الذين دعوا إلى الله تعالى مبشرين ومنذرين .

١٠ - وإن العرب في طبيعة أرضهم ، وفي طبيعة نفوسهم ، ما يحلهم أصلح الناس لحمل عبء الرسالة المحمدية بمبادئها العامة الشاملة .

فأرضهم لا مطمع فيها لمتحكم أو مسيطر أو كما كانت إبان الدعوة المحمدية وهي لم يغلب عليها قوي ، وإذا كانت فيهم عيوب ، فإنها لا تتعلق بالنفس العربية ، وإنما تتعلق بالمعرفة التلقينية ، إذ كانت أمة أمية ، وعرفوا في التاريخ باسم الأميين ، وقد عبر القرآن الكريم عنهم بذلك التعبير .

ولم تجر على نفوسهم الذلة التي يفرضها حكم الطغاة من الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ﴾ .

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هي التي حملت رسالة العزة وهي أرض الحرية والشجاعة ، ولا يمكن أن ينقل إلى الناس وبين العزة والكرامة والإقدام إلا الذين أبوا ذل الملوك والذين تحملوا شوائد أرضهم وقسوة الحياة فيها .

وأنة لا ينقل دين الكرامة الإنسانية والعمل الصالح إلا الأحرار الذين يأبون الدنية ، ويرضون ببذل النفوس في دفعها وليس ذلك إلا في العرب وأرض العرب .

ولذلك ما ان انطلقوا بالإسلام وخرجوا من ديارهم دعاء بدعوته إلى الحق إلا شقوا طريق النور والحرية والعدالة فكانوا يهدون إلى الحق من غير مواناة، ولا فرار من شدة أو بئس، ولا يتركون الشدة إلى الدعة والرخاء، لأنهم تحملوا آلام الصحراء، وعاشوا في حرورها.

وترى لو تصورنا أن تكون النبوة العامة الشاملة في غير أرض العرب، أتكون في أرض القياصرة حيث يتطامن العامة لحكم القيصر، ويديثون نفوسهم بالصغار، حتى يحسبوه من طينة غير طينتهم، وحيث لا يحكم فيهم إلا الهوى وحيث العنصرية الجاثمة على النفوس لهوى الحكام، والخروج عن مبادئ المساواة الإنسانية.

وإذا لم تكن أرض الرومان صالحة للدعوة الكافة إلى دين تمحي فيه العصبية والعنصرية والتعصب للجنس واللون والقومية، أفتكون أرض فارس هي أرض النبوة، حيث فرض كسرى الذلة على الشعب، وتوزعتهم سيادة الاشراف إذا تزايدت أو وهنت سلطة الملك، وانتقل الشعب من الذل والهوان الملكي إلى ذل الارستقراطية، وهوان الناس في ظلها.

وهم في الحالين قد لانت نفوسهم، وضعفوا وهانوا واستكانوا، وما كان هذا الشعب في ذلته هو الذي يحمل الدعوة إلى العزة والكرامة الإنسانية التي قررها الإسلام في قوله تعالى: ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ .

لا يمكن أن يحمل عبء الدعوة إلى الحق والعزة والكرامة من أمات الظلم والتحكم نخوتهم وألفوا الخضوع المطلق للحاكم، ورضوا بالحياة الدون، والمنزل الهون، فإنه لا يدعو إلى العزة إلا الأعداء، ولا إلى الكرامة إلا الكرماء.

١١ - وهل يتصور أحد أن تكون أرض الفراعنة هي التي تدعو إلى إسقاط حكم الفراعنة ، وبيان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . وما انتقلوا من حكم الفراعنة إلا إلى حكم لا يقل عنه طغياناً وعتواً وفساداً ، انتقلوا إلى حكم اليونان ، ثم إلى حكم الرومان ، فهم يسارعون في الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع إلى قطاع ومن جانب إلى جانب وينفضون رؤوسهم على من يحاول أن يثبت فيهم روح العزة والكرامة قال لهم فرعون : أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي فلم يكذبوه ، وقال لهم أليس لكم من إله غيري ، فقالوا أنت الإله .

إن موسى عليه السلام بعث في غير أرض مصر . ولما دعا فرعون وملاه إلى دخول الحق ما آمن معه إلا قليل وخرج باليهود ناجياً بهم ، وكانوا قد تمرسوا بالذل في أرض فرعون ، وهانت نفوسهم ، وماتت الهمة عندهم .

١٢ - ولو تجاوزنا شرقي الجزيرة العربية وشمالها وغربها ، واتجهنا إلى ما وراء ذلك حيث خراسان ، وحيث البراهمة في الهند فإننا لا يمكن أن نتصور أيضاً أن تكون الهند صالحة لأن ترعرع فيها المبادئ التي أتت بها الاسلام من مساواة بين الناس ومحو الطبقات بينهم ، وأن يكونوا سواسية كأسنان المشط كما قرر الإسلام ، وكما دعا إلى ذلك محمد ﷺ ، فإن الديانة البرهمية كانت تجعل الناس طبقات ، طبقة العلماء البراهمة ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الاله براهما ، وطبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من ساعديه ، وطبقة الزراع والتجار ويزعمون أنهم خلقوا من ساقيه ، وطبقة الخدم ، ويزعمون أنهم خلقوا من قدمه ووراء ذلك أنجاس الناس الذين ينجس لمسهم كل شيء .

وقد اوتضى الشعب تلك الطبقة ، وتغلغل في نفسه ؛ لأنه حسبها ديناً واجب الاتباع وأوامر واجبة الطاعة فهل كان يتصور أن هؤلاء هم الذين يدعون إلى مبادئ المساواة ، والعدل الاجتماعي ، وأن الجميع سواء أمام الله

تعالى وأمام القوانين والنظم التي شرعها الله تعالى ، والناس أمامها سواء ، وقد يتفاضل الناس فيما بينهم ، ولكن معاملة القانون لهم واحدة ، فمن أساء فعله إساءته ، ومن أحسن فلنفسه ، وما ربك بظلام للعبيد .

العرب أصلح الناس لتلقي الرسالة إلى الكافة :

١٣ - العرب هم الذين يستطيعون تعميم الرسالة إلى الأجناس كلها ، وإلى الأقاليم في شتى الأرض لأن الرسالة العامة رسالة محمد ﷺ لا يمكن أن تعم كل بقاع الأرض في الأجل القصير الذي عاشه ، فلا بد أن يحمل تبعه التبليغ من بعده قوم شداد ، وليسوا غلاظاً لكن أقوياء متراحمون ، وقد توافرت عدة عناصر فجعلتهم المختارين لتحمل عبء التبليغ بالرسالة العامة : أولها - أن العرب لم يخنموا ولم يذلوا للملك ، أو طاغية كما ذكرنا ، بل كانت الحرية طبعاً فيهم ، ولم تتكون فيهم تقاليد الطاعة للحكام التي كانت في غيرهم وصحراؤهم عودتهم قوة النفس والجلد ، وتحمل الشدائد ، مع ضمير نقي خالص وقوة شكية ، وإن الحضارات وترفها تولد في النفس رخاوة لا يكون معها قدرة على التحمل والصبر على الشدائد .

وثانيها - أن الأرض العربية إبان ذاك لا مطمح فيها لمستعمر كما أشرنا ، ولا يستطيع مسيطر أن تستغرق سيطرته جميع العرب ، فكانت الأرض العربية حصناً يمنع الغزاة ، وكانت النفس العربية حصناً آخر لمبادئ الحرية والمساواة والعدل ، ولم تركز النفوس بذل الملكية ، ولا بطغيان الاشراف واعتبر ذلك بحال العرب مع الدولتين اللتين كانتا تصاقبانهما ، فما استطاعت واحدة من الدولتين أن تتغلغل في داخل الأرض العربية وما تجاوز سلطانهما نفوذاً على بعض الأطراف العربية كنجران ، في الجنوب ، وغسان في الشمال . وثالثها - أن العرب فيهم قوة شكية وقوة خلق طبعها فيهم أرضهم وامتاز العربي بالسباحة والجود ، وحسن تأت للأمور إذا وجد الموجه ، ووجد

القائد الحكيم ، فإن العربي أنفٌ وإن أبلغ كلمة في وصف العربي قول الإمام عمر رضي الله عنه إذ يقول : « مثل العرب مثل جل أنف فليعلم قائده أين يقوده » .

وبذلك اجتمع في العربي قوة في النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، وصفاء نفس وقوة مدارك ، احتفظوا بها في جاهليتهم ، كما حافظوا عليها في إسلامهم ، وذلك مع صدق النفس ، والصدق في القول ، وصدقهم في القيام بالعمل الذي يوجهون إليه .

وكانوا مع ذلك ذوي أنفة ، لا يطيقون أن يعيشوا في ذلة ، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين غير مجبرين ، ولقد جاءت رسالة محمد ﷺ ، فهدبت نفوسهم وبدت سجاياهم ، وشقوا بها طريق النور في وسط الظلمات .

١٤ - إن الدعوة الإسلامية تحمل في مغزاها ، أمرين جليلين ، والعرب أصلح الأقوام في عصر الرسالة المحمدية لمثلها .

أولهما : العقيدة الإسلامية وهي عقيدة التوحيد ، وأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير .

ثانيهما : الشريعة الإسلامية التي تقوم على مبادئ العدل والمساواة ، والعزة والحرية ، والكرامة الإنسانية ، وقد أشرنا فيما مضى من قولنا إلى أن أصلح الناس في عصر البعثة المحمدية لتلقي مبادئ الحرية والعزة والكرامة والمساواة هم العرب الذين لم يرهقهم ذل الطاعة للطغاة ، بل اقتضى مطلب العربي أن يعيش حراً في خبائه آمناً في سربه ، لذته في أن يستقبل الحر ، ويستبرد بالظل والريح ، وما دام عنده قوت يومه فعنده الدنيا بخذافيرها .

ولم يكن العربي قد خضع لعادات أهل الحضارات من رخاوة في العيش أورثتهم رخاوة في الجسم والنفس ولم يكن عندهم تقاليد وعادات حضرية تقف محاجزة بين الدعوة وتغلغلها في النفوس ، وسيطرتها على القلوب ،

فنفسهم على الفطرة أو أقرب إليها ، فهي كالصفحة البيضاء صالحة لأن تخط فيها خطوط العدل والمساواة والحرية بكل ضروبها ، ومثل البدوي والحضري المحكوم بالملوك والطغاة أو من يتشبه بهم ، كمثل صفحتين إحداهما خالية بيضاء تسر الناظرين تخط فيها خطوط الشريعة السماوية من غير محو وإزالة أولاً ، وهي متقبلة لكل ما يرسم ، والأخرى صفحة مملوءة بالرسوم المختلفة لا يرسم فيها الجديد النقي إلا بعد محو وإزالة ، وبمدها تبقى مغبرة ، حتى يصفلها الزمان ، ويمحو منها ما أبقاه الماضي السحيق ، وما كان له من أثر عميق .

تلك مثل الصفحة العربية ، وهذه مثل الصفحة الرومانية أو الفارسية أو المصرية أو الخراسانية وإن الجزء الأول ، وهو العقيدة ، وقد ذكرنا أنها الوجدانية : وحدانية الله سبحانه وتعالى والإيمان به سبحانه ، ونقول إن العرب في عصر البعثة المحمدية كانوا أصلح الناس قاطبة لحل دعوة التوحيد لذات الله تعالى وصفاته ، لأن الشرك كان يعم النفوس ، فالرومان كانوا على مقربة من عبادة التماثيل ، ولما دخلت النصرانية أرضهم شوهوها قبل أن يدخلوا فيها فعبدوا الثالوث المقدس في زعم النصارى . ولم يعرفوا الله إلا وله ولد ، ومعها روح القدس ، ومثلهم في ذلك أهل مصر ومن وراءها من غرب إفريقية .

والفرس كانوا يعبدون النار ، ويتصورون أن المعبود في النار المشتعلة . وكان من وراءهم في مشارق الأرض الديانة البرهمية التي آل أمرها إلى أن كانت تعبد كرشنو ، على أنه مولود براهما ، وذلك مع ما ذكرنا من أن الطبقة متغلغلة في اعتقادهم على أنها جزء من الدين لا ينفصل عنه .

والبوذية التي انبعثت من البرهمية ، وفارقتها ، وخلصت إلى مبدأ المساواة وهجرت الطبقة وقامت على الزهد المانع لما تتقاضاه الفطرة وتتطلبه ، ولكن آل أمرها إلى وثنية ، فقد صار بوذا يعبد فيها على أنه ابن الإله ، كما كان الأمر بالنسبة لكوشنو .

ويلاحظ أن هذه الديانات كانت في بلاد لها حضارة وفيها تقاليد، فالعقائد فيها راسخة ثابتة عميقة في النفوس متغلغلة في أجزائها ، والقلوب مملوءة بها ، لا سبيل لتغييرها بيسر ، بل إنها تأسبت في النفس واستغرقتها ، وتحتاج لإخراجها منها إلى زمان قد يمتد ، لأن الزمان قد ثبتتها ، فتحتاج إلى زمان لإزالتها .

١٥ النفس العربية كانت أقرب إلى الاستجابة لدعوة التوحيد من غيرها من الذين ذكروا ، وذلك لأن العرب وإن كانوا وثنيين ، كانوا أقرب إلى التوحيد من الفرس والرومان والمصريين ، والبراهمة وغيرهم .

إذ أنهم لم يكن لهم عقيدة ثابتة مستقرة ، كما لم يكن لهم عادات وتقاليد في نظم الحكم لا تتسع للحرية والنظم الاجتماعية التي جاء بها القرآن ، بل كانت عقائدهم في الأوثان غير متغلغلة في أعماق نفوسهم ، كمعتقد النصارى في الثالوث ، وعقائد الفرس في النار ، وعقائد الصائبة في النجوم ، وعقائد البراهمة في براهما ، وكرشنو ، وعقائد البوذيين في بودا ، بل كان الغشاء الذي يغشي صفحة الاعتقاد في نفوسهم واد غير صفيق ، وغير ملاصق للنفوس ، بحيث يصعب فصله عنها .

وذلك فوق أنهم يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شيء وحده ، وأنه الفاعل المختار ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وكانوا إذا حزبتهم أمر لا يلجؤون إلا إليه ، وإذا مسهم مرض لا يدعون غيره ، كما قال الله تعالى ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضره ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم ، إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس

إنما بفيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى آمراً نبيه بمخاطبة العرب المشركين : ﴿٢﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ، قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يهدي ، فالكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون ﴿٣﴾ وإن هذه الآيات الكريمات تدل على أن العرب كانوا يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض ، وهو المدبر ، وهو المنجي عند مشاركة النفس إلى التهلكة ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه لا أحد من شركائهم ، وهم الأوثان في قدرته أن يفعل ما يفعل الله الحكيم العليم ، وأنهم يتجهون إليه وحده في شوائدهم ، وما ينتابهم من كوارث .

ويدل أيضاً على أن عقائدهم في الأوثان تصيب صفحة النفوس ، ولا تتغلغل في أعماقها ، ولذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿٤﴾ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿٥﴾ .

وعقيدة الوجدانية في كمالها تتضمن عناصر ثلاثة ، وهي وحدة التكوين والخلق ، فالله وحده الخالق المدبر لكل شيء ، ووحدة الذات فلا يماثله في ذاته وصفاته أحد « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، والعنصر الثالث من الوجدانية ألا يعبد سواه سبحانه وتعالى .

والعنصران الأولان ثابتان عند العرب ، فهم يدعون لإرادة الله وحده في الخلق والتكوين ويعلمون أنه لا شيء يشابه ذاته الكريمة .

ولكن مع إقرارهم بوحداية الخلق والتكوين والذات والصفات يشركون في العبادة مع الله تعالى الأوثان ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ولكنهم يقولون مع ذلك : ﴿ ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

١٦ - وعلى ذلك نقرر أن العرب دون غيرهم من معاصريهم كانوا يعرفون الله سبحانه ، ويعرفون أنه وحده الخالق ، الفعال لما يريد ، وأن ذاته الكريمة منزهة عن مشابهة الحوادث وأن صفات الذات العلية منزهة عن أن تكون كصفات الناس أو الأشياء ، وإذا كانوا منحرفين إلى الوثنية فإن ذلك في العبادة .

ومن السهل أن تثبت لمن يعرف الله بطلان عبادة غيره ، فإن ذلك أسهل بلا ريب من حمل من لا يعرف الله تعالى على الايمان به . لأن الأول لا يحتاج إلا إلى خطوة واحدة وهي بطلان عبادة الأوثان مع الله الخالق المدبر السميع البصير ، وأن هذا يؤيده الحس لأن الحجر لا ينفع ولا يضر .

أما الآخر ، فإنه يحتاج إلى السير في خطوتين : إحداهما - أن تعرفه بالله تعالى وأنه وحده الخالق ، لا الشمس ولا النجم ولا النار ، وليس لواحد من هذه الأشياء قدرة على الخلق والتكوين ، وليس ذلك سهلاً على الواعظ المرشد ، ودخوله إلى العقول الجاحدة أشد صعوبة والخطوة الثانية إثبات وحدانية المعبود ، وليست في صعوبة الاولى ، وتقرر هنا أن الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولون إن لله ولداً ، لا يعرفون ذات الله تعالى ، ولكي ينعهم المرشد إلى وحدانية الله تعالى يحتاج أولاً إلى التعريف بالله تعالى وصفاته ، وتلك خطوة ، ويحتاج ثانياً إلى نفي البنوة ، ثم يثبت الوجدانية

وإن العرب كانت فيهم بقية من الخنيفية ديانة ابراهيم ، وقد وصلتهم به الكعبة ومناسك الحج ، فإن البيت الحرام الذي كان مثابة للناس وأمناء قد بناه ابراهيم وابنه اسماعيل ، وقامت مناسك الحج على أساس من شريعة ابراهيم عليه السلام ، فكانت بذلك لها نوع من الاستمرار ولقد كانوا يقومون بالاحرام ، كما فرض في شريعة ابراهيم على تحريف في بعض ألفاظه ، ليقاربوا بهذا التحريف القليل بين ما أثر عن ابراهيم عليه السلام ، وما اعتراهم من انحراف في الاعتقاد توجه بهم إلى الشرك .

وإذا كانت الأصنام قد أحاطت بذلك المعبد الذي هو أول بيت وضع للناس كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ . فإن هذه الأصنام لم تقطع العلاقة النفسية بينهم وبين ابراهيم عليه السلام ، وإن انحرفت بها عقولهم وأفكارهم وحادوا عن الجادة المستقيمة بها .

وإن ابراهيم أبو الأنبياء هو أبو اسماعيل الذي يعتز به العرب ، وأبو إسحاق ومن جاء من ذريته من الأنبياء ، فكان الاتصال النسبي موجداً لهم عزة ، وملقياً في نفوسهم بالتأثر إلى حد بعقيدته ، وقد كانت عقيدة التوحيد الخالصة ملته ، وقد ذكرهم القرآن بذلك ، فقال تعالى ﴿ مَلَأْنَا أَبْيَكُمُ اِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

وأخيراً إن العرب بوجود الاعتراف بالخالق المنزه عن مشابهة الحوادث ، وبانفرادهم بمعرفته مع وجود الوثنية فيهم ، عن غير اعتقاد جازم وعلم قاطع بل على أنه وهم وظن ، لم يستغرق النفوس ، ولم يصل إلى أعماقها ، إن العرب بهذه الحال التي كانوا عليها ، كانوا أقرب الناس لفهم عقيدة التوحيد التي هي الدعامة الأولى للإيمان ، فلا إيمان بغيرها ، وذلك مع استعدادهم لكل مبادئ الاسلام ، فلا غرابة إذا انبثق نور الإسلام في أرض العرب ، وهبط الوحي بين ظهرانيهم ، الله أعلم حيث يعمل رسالته .

تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

١٧ - في التمهيد بينا أن دين محمد كان دين الانسان في كل بقاع الأرض ، وأن العرب قد انبعث فيهم نور الاسلام لأنهم كانوا أكثر الناس قابلية لمبادئه ، وأصلحهم لحمل أعباء التبليغ بعد محمد ﷺ .

وأن صاحب الرسالة الالهية هو خاتم النبيين محمد ﷺ ، فلا بد أن تكون دعوته متضمنة معنى الوحدة الاسلامية ، وأن يكون خطابه للناس كافة لا للعرب وحدهم وإن كان بلسان قومه العرب ، وأول من تلقى الدعوة العرب أنفسهم ، وكانوا أول المخاطبين بها كما قال عليه السلام في خطابه لعشيرته الأقربين « إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة » .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، وإنك لتجد النص الكريم يخص ويعم ، يخص العرب بأن الرسول الكريم ﷺ من أنفسهم وأوسطهم وأعلام شرفا ، وأنه عليه السلام يعز عليه أن يضلوا بالاستمرار على وثنياتهم ، وأنه حريص على أن يؤمنوا ، ويرفع عنهم جبت الجاهلية ويعم المؤمنين أجمعين بأنهم أهل رحمته ورأفته ، لا فرق بين عجمي وعربي ، ولا أبيض ، ولا أسود ، ولا أحر ولا أصفر ، لأن الجميع ينطبق عليهم وصف الإيمان ، فالرحمة والرأفة بكل مؤمن .

وإن أول من أجابوا دعوة النبي ﷺ كانوا من أجناس مختلفة، لا من العرب وحدهم ، روى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : « أول من أظهر الاسلام سبعة: رسول الله ﷺ ، وخديجة وبلال ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، والمقداد بن الأسود ، وليست رواية الإمام أحمد في بيان أول الناس إسلاما ، إنما هي في بيان أول من أظهر الإسلام وأعلنه جهره أمام قريش مصابرا لأذاهم ،

ويلاحظ أن أولئك يمثلون عناصر انسانية مختلفة، ففيهم الرجال والنساء، وفيهم الأشراف والضعفاء، وفيهم الأحرار، ومن كتب الله تعالى عليهم الرق، وفيهم العربي والحبشي الأسود ، والرومي من بني الأصفر ، وفيهم بلال الحبشي وفيهم صهيب الرومي الذي قال فيه محمد ﷺ : « صهيب سابق الروم . »

وورد في بعض الآثار عن النبي ﷺ أنه قال : « كل نبي بعث في قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحر وأسود ، وإن بلالاً أول ثمار الحبشة ، وإن صهيباً أول ثمار الروم . »

وعندما هاجر ﷺ إلى المدينة التقى بأول ثمار فارس سلمان الفارسي الذي قال فيه ﷺ « سلمان منا آل البيت »

فمحمد عليه السلام لا يكتفي بإعلان الوحدة في شكلها الاسلامي العام ، بل يعمل على إدماج الناس بعضهم مع بعض بالموالاة ، فكان سلمان بحكم الموالاة لمحمد من آل البيت .

وهكذا نجد عموم الدعوة في الواقع المحسوس، ولا يكتفى بالقول المكتوب، أو الخطاب المسموع ، بل يكون العمل هو الميزان الثابت .

١٨ - والنبي ﷺ لم يحقق الوحدة بدعوته فقط ، بل ثبتتها وأكدها وقوّاها طول حياته عليه السلام بعد البعث وذلك أولاً - باتصاله عليه السلام بالدول المختلفة ، ولقد ذكر ابن القيم للدعوة المحمدية خمس مراتب :

أولاهما : النبوة ، وثانيتهما : إنذار عشيرته الأقربين ، وثالثتها : إنذار قومه ، والرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب قاطبة ، ويقول ابن القيم : الخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس إلى آخر الدهر ، وأقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله تعالى مستخفياً ، ثم نزل عليه ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ ، وأعرض عن المشركين ﴿ فأعلن رسول الله ﷺ الدعوة وجاهر بها قومه فقابلوه بالعداوة واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن لهم بالهجرة .

ولنشر بكلمات مبينة لهذه المراتب ، وصلتها بالوحدة الإسلامية الجامعة : فأولها . النبوة - كما سمي ابن القيم المرتبة الأولى ، وهي التي أعلم فيها محمد ﷺ مبعثه من الله تعالى لخاصته ، وصفوة أصدقائه ، من أمثال أبي بكر ، ومن دخلوا معه في دين الله تعالى ، من ذوي الثقة بالنبي ﷺ الذين أدركوا موضع الحق في دعوته عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم من نفوسهم الطاهرة المخلصة ما أدركوا الحق بمجرد التنبيه إليه ، وبيان نوره بين أيديهم من غير تلكؤ ، بل كان يكفي لأمثالهم أن ينبهوا إلى أن ما هم عليه من عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ليعلموا الهدى من الضلال ، والحق من الباطل ، وكان هؤلاء الذين استجابوا للحق لذات الحق ، مُطَرِّحين الباطل الذي علموا بطلانه .

وكانوا يستخفون بعبادتهم ، وبما أخلصوا به الله تعالى ، وكانوا يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، واسمه عبد مناف ، ويقول علماء السيرة الشريفة أن عدتهم لم تكن قد تجاوزت الأربعين أو ذرقت نحوها .

وكان يتمثل في هؤلاء الأربعين أو من دونهم عدداً الذين آمنوا بالحق بمجرد انبلاجه المجتمع الإسلامي المؤتلف فكان فيهم قرشيون من كل بطون قريش ، وكان فيهم الأعاجم ، فكان صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وكانت فيهم الاشراف كأبي بكر وعثمان وطلحة بن عبدالله ، وكان فيهم الضعفاء الذين اختبرهم الله تعالى بالرق الذي استذل أجسامهم ، ونفوسهم أعلى من نفوس الأحرار

كصهيب وبلال ، وعمار بن ياسر وأمه سمية الذين أودوا في الله ، من بعد ،
حتى كان النبي ﷺ إذا مر عليهم يقول: « صبراً آل ياسر فان موعدكم الجنة » .
أولئك كانوا المجتمع الأول للإسلام ، وهو مجتمع صغير يصور المجتمع الكبير
بعد أن دخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً أفواجا ، وبعد أن شرقت الدعوة
الإسلامية وغربت .

وأولئك هم الذين كانوا هم الأبدال الأطهار الذين كان علو الاسلام بإيمانهم .
١٩ - المرتبة الثانية من مراتب الدعوة ، جاءت بعد الأولى ، وكان فيها
عدد المؤمنين ينمو قليلاً ويقوى كثيراً ، وقد مكث الاستخفاء كما يقول ابن القيم
نحو ثلاث سنين ، الدعوة في كِنٍ سائر ، وخلايا تتولد فيها النفوس ،
حتى إذا قوي الاسلام في خليته الأولى بقوة النفوس ، أمر الله تعالى نبيه بأن
يصدع بالحق ، ليشق بنوره ظلمات الجاهلية فقال عز من قائل ، ﴿ فاصدع بما
تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله
إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح
بمجد ربك ، وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

وقد ابتدأ النبي ﷺ فدعا عشيرته الأقربين استجابة لقوله تعالى ﴿ وأنذر
عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك
فقل إني بريء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذي يراك حين تقوم ،
وتقلبك في الساجدين ، إنه هو السميع العليم ﴾ .

وإنّ هذا النص الكريم مع ما سبق يدل على أمرين :

— أحدهما — أنه تكونت جماعة الحواريين الذين كانوا يستخفون بعبادتهم
ولا يستعلنون وان كانوا مستيقنين مدعنين مؤمنين ، أخذ يتجه إلى الأقرب
فالأقرب من المتصلين ، لتكون الدعوة سارية بسنة التدرج فتكون للأقرب
فالأقرب ، وتتسع دائرتها شيئاً فشيئاً ، حتى تعم العالم كله .

الأمر الثاني : أن الابتداء بالعشيرة لا ينبغي أن الأولين هم قوام الدعوة ، وإن كان فيهم ضعفاء ، ولذا قال سبحانه : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وكررها في الآيات الثانية ، والآيات الأولى ليبين سبحانه أن دعوة الأشراف لا تنسى الضعفاء ، وأنه يجب تأليف القلوب عامة ، وتقريب النفوس كما قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

والمرتبة الثالثة قريبة من المرتبة الثانية ، لأنها لقومه ، والقوم هو الأسرة الأوسع كما أن العشيرة هي الأسرة الأقرب ، وبذلك ، تتدرج الدعوة من الأسرة الصغرى إلى الأسرة الكبرى ، وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

وفي الأمر بالتوكل في قوله تعالى : وتوكل على العزيز الرحيم ، وقوله تعالى عليه توكلت إشارة إلى أن الابتداء بالعشيرة وقومه ، لا للنصرة بهم ، لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم ، إنما هو للتدرج في الدعوة من القريب الداني إلى البعيد النائي ، ولتأليف الجماعات المتنافرة .

ففي دعوة قومه من قريش يحاول تأليف البطون المختلفة من بطون قريش المتنافرة ، وفي اتباع بعض هؤلاء متناسين تنافر العصبية الأولى انشاء للوحدة ، وتأليف للقلوب .

وفي المرتبة الرابعة كانت الدعوة للعرب الذين ما أتاهم من نذير من قبل محمد ﷺ ، وليس المعنى أنهم لم يأت إليهم نبي من قبل ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، وإنما المعنى أن النبي ﷺ جاءهم على فترة من الرسل ، ونسوا التوحيد ، والبعث والنشور ، وإن لم ينسوا الله .

وقد كانت الدعوة حينئذ للعرب أجمعين الذين فرقهم قبل محمد ﷺ

العصبيات المتنازعة ، وكان لا بد أن يلتقي بالقبائل ، ويخرج من حيز مكة إلى حيث مختلف القبائل والمنازع .

التقاؤه بقبائل العرب في موسم الحج :

وبعد أن آمن من آمن بمكة ، وعادى دعوة الاسلام من عادى وتحمل المؤمنون الصادقون ما تحملوا ، وآذى المشركون الضعاف من قريش الذين ليس لهم عصبية تحميهم ، ولا قرابة تدفع عنهم حتى انه لم يمنع الأذى الشديد ، والاستهزاء العنيد عن بعض الكبراء ممن آمن من قريش ، وكانت الهجرة إلى الحبشة مرتين ، بل مع هذا الإيذاء المتضافر ، والاستهزاء المتلاحق لم ين محمد ﷺ عن الدعوة ، وتكوين الائتلاف العربي الذي تحمى فيه العصبيات الظالمة والعنجهيات الجاهلية ، وأخذ يعمم الدعوة بعد التخصيص ، ويجمع القلوب المتنافرة . والأهواء المتناحرة ، أخذ عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، ابتداءً فذهب إلى الطائف فردوه عليه السلام ردّاً نكراً ، وبعد ذلك عاد عليه السلام إلى مكة ليواجه الأذى بعد أن كلبت عليه قريش ، وأعلنت خلافه ، وناوأته وأخذت تكيل الأذى للمستضعفين ، بل لغير المستضعفين أيضاً ، من أمثال أبي بكر وغيره ، من الذين آذاهم الشرك بقوة طاغوته ، وإن لم يكونوا في عشايرهم في أنفسهم الضعفاء .

أخذ عليه السلام يتعرض للقبائل المختلفة في موسم الحج يدعوهم إلى الله تعالى ، ويثبت صدق دعوته للقبائل قبيلة قبيلة ، فيقول لكل قبيلة : « يا بني فلان ، اني رسول الله تعالى إليكم يأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتمنعوني ، حتى أبين عن الله تعالى ما بعثني به » .

وبينا النبي يدعو القبائل بدعاية الله تعالى ، ويخاطب القبائل بدعوته كان من ورائه من يصدّ عن سبيل الله تعالى ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب .

أتى عليه السلام كندة في منازلهم في الحج ، وأتى بني حنيفة ، ولم يكن من هؤلاء ولا أولئك سميع يستمع إلى الحق ، ويحيب داعيه ، ولم يأس عليه السلام ، فلم يكن اليأس من ديدن الرسل المبعوثين رحمة للعالمين الجامعين لوحدة الإنسانية ، بل استمر دائماً ، قاضياً بدعوته على المنازع الجاهلية ، والأثرة التي تفرق ولا تجمع .

يروى في ذلك أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم لو أني أخذت هذا الفقى من قريش ، لأكلت به العرب ، ويظهر أنه كان ذا فراسة ولكن لم يكن موفقاً .

قال مخاطباً رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله تعالى على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك ، قال الأمر لله يضعه حيث يشاء ، قال الرجل : أفنهدف نحو رنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، فلا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

كانت هذه الاجابة من الرجل دالة على العصبية المفرقة ، ومحمد ﷺ جاء لجمع القلوب ، ودالة على الأثرة القاطعة ، والأثرة تفرق ما بين الأحبة وتنادى بالآخرين عن الاستجابة للحق .

وهكذا كان النبي ﷺ في دعوته إلى القبائل يرغبهم في دين الحق ، ويرغبهم في الوحدة الجامعة للمؤمنين ، ويحابه العصبية في مرابطها .

ولنذكر طرفاً مما يدل على دعوة النبي ﷺ إلى الائتلاف بدل الاختلاف وإلى الوحدةانية بدل الوثنية ، جاء في الروض الأنف في دعوة النبي ﷺ بني ذهل بن ثعلبة يقول : فيما روى : « دفعنا إلى مجلس ، عليهم السكينة والوقار فتقدم أبو بكر ، وكان مقدماً في كل خير ، فقال ممن القوم ، فقالوا من بني شيان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ومثنى بن حارثة

والنعمان بن شريك (رجال منهم) وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جالاً
ولساناً وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

قال له مفروق : إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم ؟ .

قال مفروق علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

قال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم .

قال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وإنا لأشد ما نكون
لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر
من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا ، لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أوقد بلغكم أنه رسول الله فيها هوذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك يا أخا قريش .

فتقدم رسول الله ﷺ ، فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده ،
لا شريك له ، وإني رسول الله ، وإلى أن تؤووني وتنصروني ، فإن قريشاً قد
ظاهرت على أمر الله تعالى ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ،
والله هو الغني الحميد .

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم
ألا تشرکوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن
نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي
حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً ؟

فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والله لقد أفكّ قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال هانيء : قد سمعت مقاتلك وإني أرى إن ترَكْنَا ديننا ، واتبعناك على دينك ، لمجلس جلسته إلينا - زلة في الرأي ، وقلة نظر في العاقبة ، وإنما الزلة تكون مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ... ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، وتنظر ... وهذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثني : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانيء في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ، ليس له أول ولا آخر ، وإنما بين صريان اليمامة وسماوة .

فقال رسول الله ﷺ : « ما هذان الصريان ؟ » .

فقال المثني : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أنا لا نحدث حدثاً ، ولا نؤوي محدثاً ، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن تؤويك وتنصرك مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم في الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله تعالى لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم ان لم تلبثوا إلا قليلاً ، حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم ، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟ » .

فقال النعمان بن شريك من كبراءهم : الله لك ذا .

فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ .

٢١ - وقد ذكرنا هذا الخبر مع طوله ، كما ذكرنا غيره من قبله ، لنعلم أن النبي ﷺ انتقل بالدعوة من حيز قريش إلى العرب قاطبة ، بدعوة عامة ، لينذر أولئك الأقوام الذين ما أتاهم على قريب من زمنه نذير من قبله ، ولأنه يريد أن يجمع على الرسالة المؤمنين جميعاً ، لا فرق بين قرشي ، وغير قرشي ، ولتعم دعوته القاصي والداني ، ليوحد ابتداء أهل الجزيرة ما كانت منهم مصاقباً للروم ، وما كان مصاقباً للفرس ، وحتى تصل إليهم أخبار النبي ﷺ همساً ، أو حديثاً بين الأهلين ، قبل أن تأتيتهم الدعوة الجهرية من شخص الرسول ﷺ ، إذ تكون بعد أن تكون النفوس ، قد استشرفت لها ، وتسالت إليهم أخبارها .

ولنعلم أن السبيل أمام الرسول الذي هو من أولي العزم من الرسل ، لم يكن زللاً ، بل كان وعثاً تدعثره العصبية ، والأفانية ، وغلبة الشقوة عند بعض من يدعوهم .

فقد دعا أهل الطائف فماندوه ، ودعا بعض الوافدين إلى الحج ، واختلط بالقبائل في أسواقها فمنهم من أعرض ونأى بجانبه ، ومنهم من غلبت عليه الأثرة ، فاشتراط لاتباعه أن يكون الأمر من بعد محمد في الجزيرة العربية ، له ولقومه ومنهم من استقام للحق ، وأدرك مغزى الدعوة ومراميها وغايتها ، وقرر أن الملوك لا يقبلون مثل هذه المبادئ ، وتحفظوا في الإجابة ذلك التحفظ لأنهم أعطوا كسرى عهداً ، ألا يحدثوا أمراً ، أو يغيثوا محدثاً إلا بعد أن يعرض عليه ، وقد بين لهم النبي ﷺ أنه داعيه بمثل دعوتهم ، وأنها دعوة عامة لأنها رسالة الله تعالى لا يعلو عليها ملك مسيطر ، ولا تجفو عن رعايا مستضعفين ، وعندئذ أحسوا بمرارة السيطرة ، وبجوح العزة والارادة الحرة المختارة .

وإن ذلك يزكي عموم الدعوة وعمل النبي ﷺ على جمع المفترقين المتنازعين المتناحرين ، ولقد مكث عليه السلام يدعو العرب في جموعهم في أثناء موسم الحج زهاء سنتين أو تزيدان ، حتى عمت الدعوة وتذاكرت بها الركبان ، وسرى أمرها في البلاد العربية سريان النور ، ومع هذه الدعوة النبوية كانت الدعوة إلى الوحدة من القرشي الذي كانت قبيلته فوق القبائل فخاراً وشرفاً ومحتداً ، ولكنّ محمداً الداعي يرى الجميع أمام الله تعالى وأمامه سواء ، لا فرق بين قبيل وقبيل ، ولا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ولا بين حر وعبد ، ولا عربي ولا كسروي .

ولقد قال ابن اسحاق في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة ، وأتم التسليم ، كان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره ، كلما اجتمع الناس بالموسم أأهم يدعو القبائل إلى الله تعالى ، وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ، إلا تصدى له ، فدعاه إلى الله عز وجل ، وعرض عليه ما عنده .

فكان عليه السلام ما كان ينتظر موسم الحج فقط بل يتتبع الوافدين طول العام ، ولا يجد أمراً مسموع الكلمة في قومه إلا التقى به لينبئ من وراءه من الأشراف والضعفاء ، لا يئني عن جمع العرب حول كلمة الله تعالى بعد أن حمل معه الحواريون الأولون .

الشرب

٢٢ - في أثناء عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل كان المعارضون له أكثر من الموافقين ، والمناوئون أشد عليه ممن سالموه ، ولكن قوماً من يثرب كانوا أسرع إلى الإيمان من المناوأة والاعتراض .

ذلك أنهم كانوا في فرقة وانقسام ، كان الأوس فيهم والخزرج يتقاتلون وكانت الحرب بينهم شديدة تفرق جمعهم ، وتذهب بوحدتهم فجاءوا إلى مكة يعقدون حلفاً ، ليعين القرشيون الأوس على الخزرج .

وقد علم النبي ﷺ ذلك ، فرأى أن يستمعوا إليه بدل أن يعقدوا حلفاً يزيد العداوة بينهم ، ويؤثرها ، ولا يطفئها ، فدعاهم إلى الإسلام الموحد لجمعهم وتلا عليهم القرآن الذي نزل رحمة للعالمين .

فوجد سميعاً من عدد ضئيل منهم ، ولكنه عليه السلام لم ييأس منهم ، لأنهم كانوا قد أوتوا بعض العلم بالنبوات مما جاء على ألسنة أعدائهم اليهود الذين كانوا إذا اتركوا معهم ، وعرضت الحرب بنائها هددوا أولئك المشركين بنبي حان حينه وأدركهم أبانه ينصرهم على المشركين .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يترقب وفود الحبيج ، ويأنس بالوافدين من يثرب ويستشرفهم ويقول ابن اسحاق : « فلما أراد الله تعالى عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه ﷺ ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي

فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما يصنع في كل موسم وبيننا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيراً .

قال لهم رسول الله ﷺ : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال رسول الله ﷺ من موالي يهود ؟ ، قالوا : نعم ، فقال عليه السلام ألا تجلسون أكلهم ، قالوا: بلى ، فجلسوا فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

ويقول ابن اسحاق، كان مما صنع الله تعالى عليهم في الاسلام أن يهود كانت في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم على الشرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوه ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبياً مبعوث الآن قد أطل زمانه ، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم : تعلموا والله انه النبي الذي توعدكم به يهود فلا تستبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعا إليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له إنا تركنا قومنا ، بينهم من العدواة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله تعالى بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي اجبتك اليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله تعالى عليه ، فلا رجل أعز منك .

عادوا إلى قومهم من الخزرج ، وحاولوا أن يتصلوا بأعدائهم من الأوس ، لأنهم جاؤوا بأمر جامع لا يفرق بين العناصر بل يجمع الاخوة في الاسلام ، فلا تكون ثمة الدعوة الجاهلية .

العقبة الأولى :

٢٣ - في الموسم التالي جاء قوم من يثرب فيهم من الخزرج الكثيرون ، ومن الأوس من دون ذلك عدداً ، وإن كانوا جميعاً أقوىاء في دينهم ، وكان

على رأسهم جميعاً إثنا عشر نقيباً ، وقد بايعهم النبي ﷺ على الأخذ بمبادئ الإسلام ، وقد سمي علماء السيرة هذه البيعة « بيعة النساء » . عن عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر البيعة الأولى ، وكنا إثني عشر ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، قبل أن يفترض علينا الحرب على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا ، ولا نعصيه في معروف . ويقول الرسول : « فإن وفيتم فلکم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً ، فأمرکم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب » .

وعلل صاحب الروض تسمية البيعة في العقبة الأولى ببيعة النساء ، لأنها تتشابه مع ما طالب الله به من مبايعة النساء من بعد ذلك عام الفتح ، فقد قال تعالى في سورة الممتحنة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ، وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْنَهُنَّ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ويظهر على هذا على أن تلك التسمية لم تكن وقت البيعة ، ولكن جاءت بعد ذلك لانعقاد المشابهة بين البيعتين ، وذلك لأن بيعة النساء كانت بعد الهجرة إذ أنها كانت عند الفتح .

ولقد كانت تلك البيعة الطريق إلى نفوذ الإسلام إلى يثرب ، واتجاه أهله إليه ، ولقد أرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير يعلمهم الإسلام وأركانه ويقرئهم القرآن ، ولذلك كان أول من سمي مقرئاً ، وشاع الإسلام في الأوس والخزرج ، حتى أنه ما كان بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا دخله الإسلام ، فكان لـ محمد ﷺ تابعون يدعون بدعايته بعد أن استجابوا لندائه .

وهنا نجد الظاهرة الكبرى التي رحم الله تعالى بها أهل يثرب ، فقد

اجتمعوا بعد افتراق ، وحرب ونزاع بين الأوس والخزرج ، وكان يوم بعث الذي قتل فيه بعضهم بعضاً ، والاتصال بالنبي ﷺ يأخذ طريقه ، وهم يأخذون طريقهم إلى الشرع الإسلامي ، فكان نور الإسلام مؤلفاً للقلوب ، ومزيلاً لكل العصبية الجاهلية .

وظهر على يد رسول الله تعالى الاسلام الجامع المؤلف للقلوب ، الموجه للمجتمع .

العقبة الثانية أو بيعة المنعة والحرب

٢٤ - وتسمى البيعة الكبرى ؛ لأنها التي ختمت الاتصال بأهل يثرب قبل انتقال النبي ﷺ ، وهجرته إلى المدينة ، وقد علمنا أنه عقب البيعة الأولى أرسل النبي ﷺ إلى أهل يثرب مصعب بن عمير يشرح لهم الفرائض الاسلامية ، ويقرأ القرآن ويدعو إلى الإسلام ديناً وآخذاً بقول الله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ومضت سنة على وفادته وإقامته ، ثم عاد إلى النبي ﷺ ليتزود منه ب زاد التقوى ، وخرج من خرج من المسلمين الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ من الأنصار ، وكان معهم حجاج من قومهم الذين بقوا على الشرك ، ولكن اختص المسلمون منهم أنفسهم بالعمل على لقاء النبي ﷺ فوعدهم عليه الصلاة والسلام أن يلقاهم بالعقبة في أوسط أيام التشريق بئى ، وكانوا ثلاثة وسبعين .

واجتمع بهم عليه الصلاة والسلام ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذي فرض على نفسه حمايته من أذى قريش بعد عمه أبي طالب ، فقد ذهب معه يستوثق ، فلما كان اللقاء كان أول من تكلم العباس رضي الله تعالى عنه .

قال العباس : يا معشر الخزرج (يريد الخزرج والأوس) إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعة من أهله ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ،

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه من خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن قد عدنا ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده ، فقالوا : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن الكريم ، ودعا إلى الله تعالى وورغب في الإسلام ، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم .

قال البراء بن معرور من كبرائهم : « نعم والذي بيمثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرًا عن كابر .

وقال أبو الهيثم التَّيَّهَان من كبرائهم : يا رسول الله: ان بيننا وبين الرجال حبالا (يعني اليهود) فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم » قال ابن هشام في سيرته « يقال الهدم أي ذمتي ودمتكم وحرمتي حرمتكم »

وقد طلب رسول الله أن يخرجوا من بينهم اثني عشر نقيبا ، فأخرجوا منهم أولئك النقباء وكان من الخزرج تسعة لكثرتهم ومن الأوس ثلاثة ، لأنهم كانوا في الحج دونهم عدداً .

وقد قال ابن اسحاق كان البيعة في العقبة الأولى بيعة النساء ، وكان فيها «بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم»

وفي البيعة الثانية : قال ابن اسحاق بايعهم فيها رسول الله ﷺ على
حرب الأحمر والأسود ، وأخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل على
الوفاء بذلك الجنة .

بايعهم النبي ﷺ على الايواء والنصرة والمعونة ، وكان أول من مديده
للبيعة البراء بن معرور ثم تتابع الاثنا عشر نقيباً ، ومن وراءهم ، حتى تمت
البيعة واستوثق ﷺ لنفسه ولدينه .

وجمع الله تعالى المختلفين ، وألف بذلك بين قلوبهم .

الجرة

٢٥ - أخذ المسلمون يذهبون أرسالاً إلى المدينة (يثرب) زرافات ووحدانا فارين بدينهم من الأذى والفتنة وتتابعوا في ذلك، والأنصار من الأوس والخزرج يؤوونهم وينصرونهم .

وقد هاجر الكثيرون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه ، منهم من هاجر مستخفياً ومنهم من هاجر في غير خفاء ، ولكن غير معلنين إلا عمر ابن الخطاب ، فإنه استعلن هجرته ، وخرج إلى ظاهر مكة وقد لبس لأمته وشد عزته ، وقال شامت هذه الوجوه ، وأرغم الله تعالى هذه المعاطس ، من أراد منكم أن تشكله أمه ، ويقيم ولده ، وترمل امرأته فليلقني وراء هذا الوادي ، كما قال عنه علي كرم الله وجهه في ذلك .

والنبي قد علم أنه مهاجر لا محالة ، ولكنه ينتظر إذن ربه ، وكان صاحبه أبو بكر يهيم بالهجرة ولكن النبي ﷺ يؤجله ، فيستأذن النبي ﷺ فيها ، فيُحَجِّره ، وقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فطمع أبو بكر في أن يكون صاحب النبي ﷺ ، وبذلك استأنى ، حتى إذا أذن للنبي ﷺ بالهجرة ، عقب اجتماع المأ من قريش ليتشاوروا في أمره بعد أن تسامع العرب بدعوته ، ووجد المستجيبين ، وخصوصاً من الأوس والخزرج ، وكانت بعض القبائل تتسارع إليه ، وإن لم تكن في قوة أهل يثرب إليه ، الذين أحسنوا له المقام ، وآووا ونصروا .

اجتمع الملائكة في دار ندوتهم من قريش ، ودارت بينهم المناقشة أيقتلونه ، أم يخرجونه ، أو يشبتونه (يحبسونه) وانتهى أمرهم إلى أن يقتلوه بأن يضربوه ضربة رجل واحد ، حتى تتوزع القبائل دمه ، فتعجز عن الثأر أسرته وتقبل الدية ، ويذهب ما أهمهم من أمره ، وهذا هو ما أشار إليه الله تعالى في قوله : ﴿واذ يكره بك الذين كفروا ليشتبكوا أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين ﴿﴾ كانوا يدبرون في أمر القضاء على الدعوى بأي طريق من طرق القضاء ، والله سبحانه مدبر أمر رسالته وحافظ رسوله الأمين ، ليؤدي الرسالة .

وقد هاجر النبي ﷺ ليلة أن أخذوا في تنفيذ ما استقر رأيهم عليه واعتزموه إلى آخر ما هو مذكور عن الهجرة النبوية ، وما اكتنفها من صعوبات ، في تنفيذها وما انتهت إليه من استبشار المؤمنين بمقدمه المبارك على أهل يثرب .

وإن الذين يقرون الأزمان بالوقائع التي كانت فيها يحسبون أن السبب هو إرادة القتل ، لأن الهجرة اقترنت بها .

ويجب أن نقول إن الاقتران الزمني هنا لا يفيد أن إرادة القتل هي السبب الباعث المباشر ، بل إنه مجرد اقتران زمني ليس فيه سبب وسبب ، وإن السبب هو أن أرض مكة ، وإن كانت صالحة لتربية الخلية الأولى لأنصار الدعوة ليست صالحة لحياتها وقوتها وسيطرتها بحيث تتكون منها دولة الاسلام الأولى فإن الخلية الأولى تكونت لأنه كان بمكة ضعاف اقوياء في نفوسهم تحملوا شدائد الاستجابة ، وكان فيها اشراف اقوياء في إيمانهم ولكنهم قليل يحوار أهل مكة ، فكانت غير صالحة لأن تقوم فيها دولة اسلامية ، لأن السيطرة عليها كانت للوثنيين .

وكان زعماءها قد سيطرت عليهم العصبية والرغبة في بقاء سيطرتهم ، وألا يحكمها دين غير ما ألفوا مما عند الآباء .

هذا هو الأمر ، ولذلك اتجه النبي ﷺ إلى الخروج من البلد الحرام ، وإن كان أحب بلاد الله تعالى إليه وآلفها له ، وهي في نفسها أرض مباركة وإن كان الشرك يقيم فيها .

أخذ النبي ﷺ في الستين اللتين سبقتا الهجرة يدعم دعائم تكوين الهجرة بل تكوين دولة أخرى خارج مكة ، واتجه إلى يثرب ، وما كانت البيعتان الا تمهيداً للهجرة النبوية فكانت البيعة الأولى لبث النظم الاسلامية ، التي يقوم عليها بناء الدولة القوية المانعة للفواحش ، فان هذه الفواحش التي نمت البيعة ، على أساس ابعادها ، انما هي انهيار للاخلاق والدولة الفاضلة لا تقوم على بنيان منهار تحرق قواعده من الاخلاق الفاسدة .

والبيعة الثانية كانت لتكوين الدولة بالذود عن حياضها ، وفي الحق ان البيعتين كانتا لتكوين الدولة الفاضلة ، أو المدينة الفاضلة ، كما يعبر الفلاسفة ، فان الدولة تقوم على الحماية الذاتية ، وأن تكون لها شوكة ، وإن محاربة الفساد في الداخل ، والعدو في الخارج هما الدعامة لتكوين دولة لها قوة تحمي الذمار .

وإن الهجرة كانت أمراً لازماً لتنفيذ أحكام الإسلام الشرعية في المدينة والأسرة وما يمكن محمداً ﷺ والسلطان ليس في يده أن يقيم دولة تنفذ الأحكام الشرعية فتمنع شرب الخمر وتعاقب عليه ، وتحد الزاني والسارق ، والقاذف ، وتقتص من الجاني في عدالة من غير وكس ، ولا شطط .

٢٦ - كانت الهجرة إذن أمراً لا بد منه وهي دور من أدوار الدعوة الإسلامية ، ودور من أدوار تكوين الوحدة الإسلامية ، يجتمع المسلمون جميعاً في ظل دولة إسلامية لا تحكمها العصبية الجاهلية ولا الفطرية الجاهلية ولكن يحكمها عدل الأحكام الشرعية القائم على المساواة في الحقوق والواجبات .

ولقد أوجب القرآن الكريم على كل مسلم أن يهاجر إلى حيث المجتمع الإسلامي الذي يحكم بحكم الله لا بحكم الطاغوت ، وإن الأقليات الإسلامية التي تكون بعيدة عن المجتمع الإسلامي الموحد يجب عليها الهجرة إليه لتعزز بعزته ، ويقوى هو بانضمامها ، وهجرتها ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك ، بحث على الهجرة المستضعفين .

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً ، ومن يهاجر في سبيل الله يحد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

وإن هذه الآية الكريمة توجب على المسلم الهجرة إلى الجماعة الإسلامية حيث النصرة والمنعة ليعيش في عزها ويستظل بظلها ، وأنه يظلم نفسه إن لم يهاجر إلى حيث الجماعة الإسلامية إلا أن يكون من الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . وتدل الآية أيضاً على أن من خرج مهاجراً إلى الله تعالى لنصرة الجماعة الإسلامية ، ثم أدركه الموت ، فإن الله مجازيه على نيته التي صحبها العمل ، وأجره عليه سبحانه .

وإن هجرة النبي ﷺ علمت كل مستضعف من المسلمين الطريق إلى الجماعة ، وهي الهجرة ، حيث الوحدة الجامعة ، والعزة المانعة .

وإن الدخول في الولاية الإسلامية التي هي الجماعة الإسلامية وحكومتها سبيله الهجرة وإنها واجبة ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك ، ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ .

وإن الميثاق يجب أن يكون متناولا لحماية المسلم ، فليس لحاكم مسلم أن يعقد ميثاقاً مع أي جماعة إسلامية يكون فيها تسليم المؤمن أو خذلانه ، وإلا نبذ عهده ، ورد إليه ميثاقه ، فالاستثناء لكلا يكون القتال قبل التذكير بالميثاق ، فإن لم يمتنع عن ظلم المسلم ، رد إليه عهده ، ونصر المسلم «فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يسلمه ، ومن كان في عون أخيه كان الله تعالى في عونه .»

ومن هذا نجد أن الهجرة التي ابتدأها النبي ﷺ إنما هي لتجميع المسلمين في ظل دولة الإسلام ليحمي المؤمن ، ولينفذ أحكام الله تعالى ، وليطرح حكم الطاغوت قوياً أميناً .

فكانت هجرة النبي وهجرة من اتبعه كانت في سبيل تكوين الوحدة الإسلامية وحمل راية الجهاد مجتمعة مؤيدة بروح من الله تعالى ، وبمزة الوحدة التي لا تفرق ، ولذلك : دعا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم المؤمنين إلى الهجرة حيث النصر والمنعة ، فقال تعالى : ﴿الذين آمنوا وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ .

وبهذا يتبين أن التجمع الإسلامي في ظل دولة الإسلام هو أساس العزة الإسلامية للمستضعفين في الأرض حيث ينقلون إلى دولة التوحيد ، وهذا كله يدل عليه ظاهر القرآن ويدل عليه مقصد الإسلام من تجميع المسلمين .

٢٧ - وقد وردت الآثار عن النبي ﷺ بأنه منع من إقامة المسلم بين المشركين ، فقد جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم ما نصه :

« منع رسول الله من إقامة المسلم بين المشركين إذا قدر على الهجرة ، وقال أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قيل يا رسول الله ، ولم ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا ترى نارهما » وقال عليه الصلاة والسلام « من كان مع المشرك

وسكن معه فهو مثله» وقال ﷺ «لا تنقطع الهجرة، حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» ، وقال ﷺ «ستكون هجرة بعد هجرة فخير أهل الأرض الزمهم مهاجراً ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقذروهم نفس الله ، ويحشرهم الله مع القردة والخنازير» .

وإن هذه الآثار الواردة عن النبي ﷺ تبين مع الآيات الكريمة الدالة على وجوب الهجرة للقادرين عليها ، والا كانوا ظالمين لأنفسهم ولا يرفع الاثم الا عن المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وقد يقول قائل كيف يأمر القرآن بالهجرة المستمرة وبالخروج من بين غير المسلمين والاقامة بين المسلمين لمعاونة جمعهم ، وليستظل بلوائهم ولتكون موالة المسلم للمسلم وحده ، وقد ورد في بعض الاخبار عن النبي ﷺ أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » ونقول في الجواب عن ذلك ان ذلك الخبر لا يمكن أن يكون معارضاً للأخبار المتضافرة عن النبي ﷺ التي روينها ، ولامعارضاً للقرآن الكريم وانه لكذلك غير معارض لأن الفتح في الخبر المراد به فتح مكة ، وأن الهجرة التي نفاها النبي ﷺ هي الهجرة من مكة إلى المدينة ، وهي بلا ريب منفية في موضوعها وذاتها ، لأن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت من ارض الشرك الى ارض التوحيد ، ومن ارض الفتنة الى ارض الأمن ، وبعد الفتح صارت مكة أرضاً اسلامية خاضعة للولاية الاسلامية في المدينة ، والاسلام قد أُرز اليها ، واطمأن بها ، وبقي أنها حرم الله تعالى الآمن ، وقبله المسلمين إلى يوم القيامة ، فكيف تكون منها هجرة من بعد الفتح ، إلا أن يراد تخريبها ، وهي أحب أرض الله تعالى اليه سبحانه ، وإلى نبيه الكريم ﷺ فالنفي الذي ورد في الخبر عنه عليه الصلاة والسلام مقرر لأمر ثابت ، وهو أنه لا يتصور بعد الفتح هجرة من مكة إلى المدينة .

وخلاصة القول في باب الهجرة الذي لا نقصه على هجرة الرسول ﷺ كما هو واضح من بسط القول ، وانما نقصد هجرة المسلم إلى أرض الاسلام

ليكون التجميع الإسلامي الذي تقتضيه الوحدة المقررة الثابتة ، والتي عمل لها النبي عليه الصلاة والسلام ، من وقت مبعته الشريف إلى أن قبضه رب العالمين اليه .

ما بعد هجرة النبي ﷺ :

٢٨ - ونعود كما بدأنا إلى هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأينا أنها كانت لتجميع المسلمين ولإقامة دولة إسلامية تنفذ أحكام الإسلام ، وتقيم الحدود ، وتأخذ من الظالم للظالم ، وأنها سنة التجميع التي سنّها النبي ﷺ ، ونعود الآن إلى آثار الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وهنا نجد أن أول أثر لها ، كان جمع العرب ، وغير العرب في صعيد واحد متآلف بالوحدة الإسلامية ، فقد كان المسلمون من عناصر عربية مختلفة من كل بطون مكة ، ففيها من يمثل كل بطن من بطون قريش ، وفيهم من قبائل العرب الذين دخلوا في الإسلام في أثناء عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل ، فلان كل مسلم من أي قبيلة يجد أن من كمال إيمانه أن يعيش في بيئته الإسلامية ، ومدينة يثرب التي صارت مدينة الإسلام ومجتمعه اليه أرز المسلمون جميعاً من بلاد العرب شمالها وشرقها وجنوبها ، وقد رأيت خبر الذين يجاورون كسرى في أرضهم ، وأنهم ارتبطوا معه بالمواثيق ، وما تحللوا منها ، أو هموا بالتحلل منها إلا بعد أن علموا أن دعوة محمد ﷺ للناس كافة ، وتلا عليهم الرسول النص القرآني الذي يصرح بأنه مبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً .

وقد جاء إلى المدينة من أسلم من غير العرب ، وحسبك أن يكون سلمان الفارسي الممثل لأهل فارس في الإسلام وقد روينا لك قول النبي ﷺ الذي يفيد أن أول ثمرة من ثمار الروم صهيب ، وأول ثمرة من ثمار الحبشة بلال ، وإنا بالقياس نقول : إن أول ثمرة من ثمار الفرس ، بل ما وراء من خراسان وما وراء النهر وسمرقند هو سلمان الفارسي ، وحسبه شرفاً وفضلاً أن محمداً ﷺ ألحقه بأسرته إذ كان قد ترك أسرته الجوسية ، ودخل في الإسلام الأسرة

الكبرى ، وقال ﷺ : « سلمان منا آل البيت » . وهما من إضافة النبي ﷺ
ونما ذلك التكريم لسليمان الذي كان في صدر الإسلام أمة وحده .

المواخاة :

٢٩ - كان لا بد من جمع العناصر المختلفة ، والمزج بينها ، ليخرج من
تلك العناصر مزيج متحد في خواصه ، وأوصافه ، يختلف عن أوصاف كل
عنصر من عناصر ذلك الممتزج ، والأوصاف الجديدة لهذا المزيج هو أمة
إسلامية موحدة في الغاية والمقصد ، والاتجاه إلى الله تعالى ، والقيام بالإصلاح
في الأرض ، ومنع الإفساد فيها ، وأن يكونوا أهل المدينة الفاضلة الإنسانية .

وأول عمل قام به عليه الصلاة والسلام هو مزج هذه العناصر بعضها
ببعض وإيجاد قوة متألّفة من بينها الاخاء أو المواخاة بين المسلمين جميعاً ،
عربهم وأعاجهم ، وأبيضهم وأسودهم .

فلم يكن الاخاء لمجرد المؤانسة بينهم ، وإيناس الغريب بمن آواه ، وإن
كان ذلك في ذاته غرضاً مقصوداً ، ولكن المراد من الاخاء وضع الدعامة لبناء
وحدة إسلامية متجمعة غير متفرقة ، ومتحدة غير منقسمة ، ومؤتلفة غير
متنافرة ، وفوق ذلك فيه بث روح المعاونة بين أولئك المؤتلفين وذلك بتكوين
أخوة دينية تقارب الأخوة النسبية .

اجتمع في بيت أنس بن مالك المهاجرون والأنصار ، وقد أحصى ابن القيم
عددهم فقال إنهم تسعون منهم من المهاجرين خمسة وأربعون ، ومن الأنصار
مثلهم ، ونحسب أن الاحصاء مقرب لا معين ، لأنهم قد يزيدون .

وقد ألف بين كل واحد من المهاجرين ، وأخ له من الأنصار بأخوة تكون
مثل أخوة النسب ، وكان الأخ الأنصاري يشاطر أخاه ماله ، وتغلّفت
الأخوة في النفس ، حتى همّ بعض الأنصار بمن له زوجتان أن يطلق إحداها

ويزوجها لأخيه المهاجر ، كما تذكر كتب السيرة ان تلك المؤاخاة كانت تجعل الأخ بالمؤاخاة يرث في رتبة الأخوة النسبية .

واستمرت حالة الميراث على ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ .

ونحسب أن آيات الموارث مع هذه الآية كانت هي المنهية للتوارث بالمؤاخاة .

٣٠ - المؤاخاة رويت فيها روايتان أولاهما : أنها كانت بين المهاجرين ، والأنصار فقط ، ولم تكن في المهاجرين فيما بينهم ولا في الأنصار فيما بينهم ، وهذه الرواية تجعل المؤاخاة كانت موضعية فيما بين الأنصار والمهاجرة لكي يتم الإيواء ، ولتحقق قول الله تعالى في الأنصار والمهاجرين : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون﴾ .

والرواية الثانية أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض ، وقد ضعف هذه الرواية ابن القيم في زاد المعاد ، وقال في ذلك : وقيل انه آخى بين المهاجرين بعضهم مؤاخاة ثابتة واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه... والثابت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنيين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد المؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين لكان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه رفيقه في الهجرة وأنيسه في الفار ، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال فيه : « لو كنت متخذاً من أهل

الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام أفضل ، وفي لفظ ، ولكن أخي وصاحبي .

وهذه الاخوة في الإسلام ، كانت عامة ، كما قال النبي ، وددت أن أرى إخواننا ، قالوا ألسنا إخوانك ! قال أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدي ، يؤمنون بي ولم يروني ، فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، فالصحابة لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، ولأتباعه من بعده الأخوة ، دون الصحبة .

وقبل أن نراجع بين الروایتين ، ونناقش منطق ابن القيم رضي الله عنه نقول : إن النبي ﷺ عدّ المتبعين له إلى يوم القيامة إخواناً له ، وإذا كان المؤمنون من أتباعه الذين عاصروه ، خصهم بفضل الصحبة ، فالذين جاؤوا ولم يروه ، واتبعوه شرفهم بفضل الأخوة ، ولا شيء أدل على وحدة الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها أقوى من هذه ، فالوحدة الإسلامية وحدة الإسلام ، ووحدة الاخوة المحمدية .

ولنتجه بعد ذلك إلى الموازنة بين الروایتين ، وكنا نود لو أن الامام ابن القيم ، وهو إمام حافظ في السنة كان يتجه إلى المراجعة بين سند الروایتين ، ولا يتجه إلى مجرد الترجيح بالفرض .

ونقول إن المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض لا يغني عنها النسب ، لأنهم لم يكونوا جميعاً من قبيلة واحدة يجمعها نسب ، بل كانوا من قبائل متفرقة ، ولم يكونوا جميعاً من قريش ، وإن كان أكثرهم من قريش ، فكان لا بد من إزالة كل ما عساه يكون من نفرة جاهلية ، والمؤاخاة التي يباركها النبي ﷺ تزيل العصبية الجاهلية وهي كما تقيم التعاون بين الانصاري والمهاجر تقيمه بين العرب الذين كانوا من قبائل مختلفة ، والأنصار كانوا خزرجا وأوسا وكان بينهم بعضهم مع بعض جاهلية ، وما يوم بعثت ببعيد عن الانظار ، وقد

كان النزاع على أشده والنبي يلتقي بالخزرج في عقبة مكة ، فكان التأليف بينهم بالمؤاخاة أمراً تقتضيه ضرورة التوحيد النفسي ، والتآلف الروحي الذي يذهب بأحقاد الجاهلية ، ويفتح قلوب أهل الإسلام على تقوى من الله تعالى ورضوان ، ومحبة بعد البغضاء ، ووثام بعد النزال ، واذن فالإخاء كان له باعث وغاية ، ولا استغناء عنه وتكذيبه لهذا السبب مردود .

بقي ما تصدى له من الموازنة بين أبي بكر وعلي ، وأن النبي ﷺ لو كان قد اختار في المؤاخاة أحداً لاختار أبا بكر ، لأنه لو كان يريد أن يتخذ أحداً خليلاً ، لاتخذ أبا بكر ، كما أثر عنه ﷺ فيما رواه ابن القيم رضي الله عنه وإننا نقول : إن للإمامين مناقب ، وكل من رسول الله قريب في نفسه وحسه وجهاده وللصديق فضله ، ولعلي فضله وإذا فرض أن أبا بكر أفضل لكثرة ثناء النبي ﷺ عليه ، ولما له من مناقب في الإسلام عالية .

فإن المؤاخاة لا تقتضي اختيار الأفضل ، وإن كان لعلي مناقبه في الإسلام الذي سماه النبي ﷺ فارس الإسلام ، وإذا كان أبو بكر قد صاحب الرسول في الهجرة ، وهو صاحبه في الغار الذي أشار إليه القرآن الكريم فعلي تام في منام النبي ﷺ ، والمشركون يترصدون صاحب هذا المنام ليتناولوه بالسيف ، فكان على المقدم لفداء رسول الله ﷺ .

وما لنا والمفاضلة بين إمامين نجد أنفسنا لا نعلم إلى الموازنة بينهما في الفضل ، ولكن نقول إن المؤاخاة مواساة ومعاونة ، وليست للفضل ، ولكن للحاجة ، ولا شك أن حاجة علي في صباه وفي مرباه في بيت النبي ﷺ وهو مقبل على حياة تحتاج إلى المعونة ، وكان فقيراً ، ولم يكن ذا تجارة في ماضيه ولا حاضره ، حتى أنه عندما أراد أن يقدم معجل صداق لفاطمة رضي الله عنها وعن زوجها وصلى الله وتعالى على أبيها وسلم - لم يكن في يده منه شيء فتقدم إلى الصحراء ليحطبط ويجمع من جهده ما يكون صداقاً لابنة عمه سيدة نساء العالمين .

ولذلك كان أحق بالمواساة من أبي بكر ، وإن لم يكن أفضل منه .

وبذلك ننتهي الى أن الرواية التي نأخذ بها لم تكن مقصورة على الموالاتة بين المهاجرين والأنصار ، ولكنها كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم ، بل كانت عامة شاملة ، لتحصل الوحدة ، وتم المعاونة والمواساة .

ولقد ذكر ابن اسحاق في سيرته المؤاخاة بين المهاجرين في أنفسهم مع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبذلك يعتضد تلك الرواية بالسند والدراية معا .

✓ ٣١ - وإن المؤاخاة عمل نبوي معقول المعنى ، وليس تعبدية ، ولا هو من خصوصات النبي ﷺ ، لأنه لم يقم دليل على ذلك ، وإذا كان معقول المعنى ، فانه يجوز بل يحسن اتباعه في كل حال تشابه مع حال المؤمنين بعد الهجرة : فتصح المؤاخاة بل تجب عند وجود طائفة نفرت من بلد غير اسلامي فارة بدينها .

ويجوز المؤاخاة بين الطوائف الإسلامية لازالة معنى الطائفية ، وإحلال المذهبية محلها ، فهي سنة منيعة ، وقد وجدت مقتضياتها في هذا الزمان ، ففي الأرض مسلمون أكلتهم الأقاليم غير الإسلامية ، ولو أنهم خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى أقرب تجمع إسلامي لكان للمؤاخاة موضع ، لأنها معاونة ومواساة ، وفرج ووحدة وإن في أوروبا جماعات إسلامية ليست حرة في تدينها فلو فتح لها باب المؤاخاة لخرجت إلى أرض الإسلام ، لتكون له قوة ، ويعتزون بعزة المسلمين ، ولكن المسلمين غلب عليهم التفرق ، فغلبت عليهم الشقوة ، وكان أمرهم فرطاً .

وإننا نجد الإسلام ينشر نفسه فينشر عند بعض نادر من الأوروبيين والأمريكان وغيرهم وأولئك الذين يسلمون يخرجون من أهلهم ، وقد يخرجون من أرضهم وديارهم ، ويحتاجون إلى المعاونة والمواساة ، فكان الاخاء معهم أمراً لا بد منه وإن المسلمين من بعد ذلك عندما دخل الفرس والروم والمصريون في

الإسلام كان عقد في معنى عقد المؤاخاة ، وهو عقد الموالاة الذي سنتكلم عنه عند الكلام في الوحدة الإسلامية عند ما قوي الإسلام بغير العرب ، ودخل الناس فيه أفواجاً أفواجاً ، « إذا جاء نصر الله والفتح » .

التأليف بين العرب جميعاً :

٣٢ - نشبت الحرب بين المدينة الفاضلة ، وبين قريش ابتداء لمنع الفتنة في الدين ، ولدفع الأذى عن المؤمنين بعد أن أذن الله تعالى للمؤمنين أن يحاهدوا في سبيل الله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ .

جاهدت المدينة الفاضلة في سبيل الله ، وابتدأ الجهاد بسرايا ، ثم بغزوة بدر الكبرى ، التي كانت التقاء الجمعين ؛ جمع الشرك وجمع الايمان في يوم الفرقان وهو ذلك اليوم المشهود ، وهنا شعر المشركون بأنه تكونت للايمان قوة تحضد شوكة الشرك ، وترفع كلمة التوحيد ، وتجعلها العليا ، وكلمة الشرك هي السفلى .

ثم كانت غزوة أحد ، وفيها قويت كلمة الكفر إلى حد ما ، ولكن لم يهن المؤمنون ، وشعروا مع ذلك بأمر الله تعالى انهم الأعلون بميزان الحق ، وميزان القوة معاً .

ولقد شعرت قريش بأنها وحدها لا تقوى على المدينة ، وأنها لا تقوى على أن تقتلع الايمان من جذوره ، ولذلك استعانوا بالقبائل العربية ، وجمعوا الأحزاب في الغزوة التي سميت غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، ولنذكر طرفاً يسيراً من قصة هذه الغزوة لنرى كيف تجمع العرب لقتال النبي ﷺ .

لقد جاء زعماء قبائل عربية وقد رأوا الشرك تنهار دعائمه ، ولم يكن له إلا قريش قطباً له ، فأخذوا يحرضونهم على غزو المدينة بعد أن خافت قريش ، فأجابتهم قريش ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فاستجابت ، ثم طاف أولئك الزعماء في قبائل العرب يدعونهم إلى قتال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستجاب لهم الأكثرون .

خرجت قريش الذين كانوا قطب الشرك في أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم ، وخرج بنو أسد وفزارة ، وأشجع ، وبنو مرة ، وجاءت غطفان ، وقائدهم عينة بن حصن .

تجمع من أهل الشرك من كل البلاد العربية عشرة آلاف ، وقد أذن الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقاتلهم كافة ، كما أذن قبل بقتال أهل مكة ، إذ أخرجهم من ديارهم وأموالهم ، كما تلونا ، وقال تعالى في ذلك : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وإذا كان الشرك في أرض العرب قد اجتمع لأهل الايمان في تلك الغزوة ، فإن الله قد جمع أهل الايمان ، وأضاف الى العرب عنصراً جديداً ليس منهم هو سلمان الفارسي ، ولعل هذه أول مرة يبدو فيها جهاد سلمان ، فقد كان من بين أهل شورى النبي ﷺ عندما استشار المؤمنين في لقاء هؤلاء الذين جاؤوا اليه متضاقرين . فأشار سلمان الفارسي رضي الله تبارك وتعالى عنه بحفر خندق يحول بين أهل الايمان وأهل الشرك ، ويمنع المدينة من الغزو الداهم ويعوق المهاجرين ، وكان ما كان من أمر هذه الغزوة ، وهزيمة الشرك بالريح العاصف والربع المالح .

٣٣ - وقد يقول قائل : ان العنوان وهو تأليف النبي ﷺ للعرب يتجافى عن الحرب والغزوات المتوالية ، فالموضوع غير العنوان ، ونقول في الجواب عن ذلك : إن طريق التأليف ليس هو السلم وحده دائماً ، وإن كان السلم والتأليف صنوين لا ينفصل السلم عنه ، بيد أن التأليف قد يكون طريقه وعراً ، فإن

الحرب قد تجر الى السلم والتآلف ، وقد كانت غزوة الخندق في ذاتها منبهة لحرب قريش المعتدية ، فلم يعد لها طمع قوي في أن تنقض على المدينة لتقطع منها الاسلام ، ويعود العرب الى شركهم الذي اطمأنوا الى ضلاله .

وإن غزوة الخندق كانت فيها دعوة قوية الى أن يلتف العرب حول الاسلام ، إذ رأوا من آيات الله ما رأوا ، إذ رأوا في تدبير الحرب من جيش محمد ﷺ ما لم يكن عندهم به علم ، وهم الكرارون دائماً ، ورأوا من آيات الله تعالى الكبرى ما بهر النفوس ، وما استرعى الانظار رأوا أن السماء تنصر جيش الإسلام ، وتهزم جيش الكفر ، ورأت الأحزاب العربية المجتمعة على الضلال نذر السماء تأتيمهم كما أتت عاداً ، إذ أتهم ريح صرصر عاتية .

وإن هذه من دلائل النبوة وتأييد الله لدعوة الحق الذي أنكروه .

وإن النبي من بعد أن أذن الله تعالى له في قتال المشركين كافة كما يقاتلونه كافة انطلقت سراياه في الجزيرة العربية داعية الى دين الحق ، منتصرة بنصر الله تعالى وتأييده وهي تبث فيهم روح الايمان وتدعوهم الى الوحدانية ، ولا شك أن الايمان كان يدخل الى قلوبهم لا من حر السيف ، ولكن من اللقاء في ذاته وخصوصاً أن الحرب الإسلامية المقدسة كانت تدعو أولاً الى الاسلام ، فان أبوا طلب اليهم العهد والذمة على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فإن لم يكن فالقتال ، وكان وصية النبي لجنده ألا يقاتلوهم حتى يقتلوا من المسلمين ، فان قتلوا من المسلمين واحداً ، قال القائد المسلم لهم : أما كان خيراً من هذا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

فكانت الحرب في ذاتها طريقاً للتأليف ، وبعث الحجة لمن وراء الجيش .

ولما تسامع العرب بحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ وانبثت سراياه في الجزيرة العربية وذهبت جيوشه اليها ، ومعها السيف والسلم ، ومعها عداوة أهل الباطل ، ومسالمة الشعوب ، كان ذلك في ذاته تأليفاً للقلوب المؤمنة التي وراء المحاربين من أنصار الأمراء والرؤساء .

وما كان النبي ﷺ ليخاطب إلا الشعوب ، ويزيل عنهم رق
الأمراء ، وذل المتحكين فيهم ، ولذلك كان التأليف مع تلك الحروب إذ كان
من نتائجها ظهور وجوه الضعفاء ، وتأليف قلوبهم .

ولذلك كان من وراء هذه الحروب ، أو التسامع بها ، والدعوة إلى الإسلام
أن وفدت الوفود إلى النبي ﷺ وهي كانت لعقد عقود الوحدة المؤلفة وإزالة
العداوة المفرقة .

الوفود :

٤٣ - وفدت الوفود إلى النبي ﷺ من وسط الجزيرة العربية ، ومن
أطرافها ، وهي تعرض حال أقوامها والنبي ﷺ يتلطف بهم في اللقاء ويلين
رحمة لهم ويحقق قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا
غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

وكانت رسالة الوفود إلى النبي ﷺ شرحاً لحال أقوامهم ابتداءً ، وكان
لقاء النبي تأليفاً لقلوبهم ، فكانت الوفود ملاقة للنبي ﷺ مع من لم يلاقهم من
ممثلي القبائل العربية ، ومواجهة لصاحب الدعوة الإسلامية بمن يدعوم وبذلك
تألف قلوبهم ، وتألفوا على هدى الإسلام ، بعد طول المنافرة والمنازعة
والمقاتلة .

ولقد كانت الوفود في السنة التاسعة من هجرة النبي ﷺ ، ولذلك سمي
العام التاسع عام الوفود . وذلك بعد أن عركتهم سرايا النبي ﷺ وغزواته
وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه ، وخصوصاً أنهم رأوا أن قريشاً
قد أسلمت وسلمت للنبي ﷺ ، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا ، وخصوصاً أن
الإسلام أخذ يقزو قلوبهم ، وفقدت الأصنام هيبتها التي تخيلوها لها .

ويقول ابن اسحاق في سيرته : « إن قريشاً كانوا إمام الناس ، وهاديتهم
وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، وقادة

العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ ، وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها جيش الاسلام ، عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل أفواجاً ، يضربون اليه من كل وجه .

جاءت الوفود من البلاد العربية من المجاورين للفرس في الجنوب إلى المجاورين للشام في الشمال ، والنبي ﷺ يبيت فيهم معنى الإسلام ، ويؤلفهم حول التكليف الشرعية والأخذ بها ، ويدني أهل المشاكسة والشاس ، ويأخذ بدين القول ، حتى يألف الوفد ، ويكون رسول النبي ﷺ منهم من يبعثه إلى قومه ليؤلف قلوبهم .

ونختار من هذه الوفود وفد ثقيف بالطائف الذين كانوا أشد القبائل العربية شماساً وعنفاً في خصومتهم ، كيف لان النبي ﷺ معهم في القول في بيان الأحكام الشرعية ، ويقطع عليهم في محاولة تغيير بعضها كل إرادة حتى ضم بعضهم إليه ، فنقلوا إلى أقوامهم .

جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد في وفد ثقيف ما نصه :

« قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ ، فاستأذن رسول الله ﷺ ، فقدم وفدهم ، وفيهم كنانة بن عبد ياليل ، وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبي العاصي ، وهو أصغر الوفد .

قال المغيرة بن شعبة : « يا رسول الله أنزل قومي عليّ فأكرمهم ، فاني حديث الجرح فيهم ، فقال رسول الله ﷺ لا أمنعك أن تكرم قومك ، ولكن أزلهم حيث يسمعون القرآن .

وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجيراً لثقيف ، وأنهم أقبلوا من مصر ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق عدا عليهم ، وهم نيام فقتلهم ، ثم أقبل بأموالهم على رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أما الإسلام ، فنقبله ، وأما المال فانا لا نقدر .

وأُتزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد وبني لهم خياماً لكي يسموا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لا يذكر نفسه ، فلما سمعه وفد ثقيف ، قالوا يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله ، ويشهد به في خطبته ، فلما بلغه عليه السلام قولهم قال : فاني أول من شهد أني رسول الله .

وكانوا يقدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن العاص على رحالهم لأنه أصغرهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد اليه وقالوا (أي ناموا في القيلولة) بالهجرة عمد إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، فاختلف اليه مراراً ، حتى فقه في الدين وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وأحبه .

ومكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا . قال كنانة بن عبد يا ليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا . قال عليه السلام : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام ، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم .

قال كنانة بن عبد يا ليل : أفرأيت الزنى ، فانا لقوم لا بد لنا منه .

قال النبي عليه السلام : هو عليكم حرام ، فان الله يقول : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ .

قالوا : أفرأيت الربا فانه أموالنا كلها .

قال (عليه السلام) لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قالوا أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا ، فلا بد لنا منها .

قال (عليه السلام) إن الله حرمها ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين

آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
لعلكم تفلحون ﴿٦﴾ .

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم إلى بعض ، فقالوا ويحكم إننا نخاف إن خالفناه
فيوم كيوم مكة انطلقوا نكتبه على ما سألنا ، فأثروا رسول الله ﷺ فقالوا
نعم لك ما سألت .

ثم قالوا أرأيت الأصنام (أي التي يعبدونها) .

قال (عليه السلام) : اهدموها .

قالوا : هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها .

تدخل في الحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : « ويحك يا بن
عبد ياليل ما أجهلك ، إنما الربة حجر .

قالوا لم نأتك يابن الخطاب .

قالوا لرسول الله ﷺ : تول أنت هدمها ، فأما نحن ، فأننا لا نهدمها .

قال (رسول الله ﷺ) : فسأبعث اليكم من يكفيكم هدمها ، فكاتبوه .

هذا ما نقله ابن القيم من كتب السيرة وقد كان اخلاص النبي عليه السلام في
حديثه وتصميمه على هدى الإسلام ملينا قلوبهم ومؤلفا لنفوسهم ، وقد انضموا
إلى الإسلام شريعة وعقيدة ، وأخلصوا من بعد ، وأراد زعيمهم أن يحملهم
على اعتناق الإسلام وعرض على النبي ﷺ أن يسبق هو رسول رسول الله الذي
أوفده عليه السلام لهدم ربهم ، حتى يهد لذلك ، ولنعمد إلى ما نقل ابن القيم .

« قال كنانة بن عبد ياليل (زعيم الوفد) ائذن لنا قبل رسولك ، ثم
ابعث في آثارنا فانا أعلم بقومنا ، فأذن لهم وقالوا يا رسول الله : أمر علينا
رجلا يؤمننا من قومنا ، فأمر عليهم عثمان بن العاص ، لما رأى من حرصه على
الإسلام ، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج .

فقال كنانة بن عبد ياليل أنا أعلم الناس بثقيف ، فاكتموم القصة ، وخوفوم بالحرب والقتال ، وأخبروم أن محمداً سألنا أموراً أبينها عليه ، سألنا أن نهدم اللات والعزى ، وأن نحرم الخمر والزنى ، وأن نطلل الربا في أموالنا .

خرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم ، فلما رأوهم قد ساروا العنق ، وقطروا الابل (أي جعلوها قطاراً) وتمشوا ثيابهم ، كهيئة القوم قد حزنوا ، وكربوا ، ولم يرجعوا بخير فقال بعضهم لبعض ما جاء وفدكم بخير ولا رجعوا به .

وترجل الوفد ، وقصدوا اللات ونزلوا عندها ، واللات وثن كان بين ظهري الطائف يعبد ، وتهدى له البدن كما تهدى لبيت الله الحرام .
جاء كلا من أعضاء الوفد خاصته من ثقيف ، فسألوم : ماذا جئتم وبماذا رجعتم ؟

قالوا : أتينا رجلاً فظاً غليظاً يأخذ من أمره ما يشاء ، قد ظهر بالسيف ، وداخ له العرب ودان له الناس ، فعرض علينا أموراً شداداً : هدم اللات والعزى ، وترك الأموال في الربا إلا رؤوس أموالكم وحرّم الخمر والزنى .
قالت ثقيف : والله لا نقبل هذا أبداً .

قال الوفد : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال ، وتعبثوا له ، ورمموا حصونكم .

فسكنت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب ، وقالوا : والله ما لنا به طاقة ، وقد داخ له العرب كلها ، فارجعوا إليه ، فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه .

فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا ، واختاروا الأمان على الخوف والحرب ، قال الوفد : فانا قد قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنا ،

ووجدناه ألقى الناس ، وأوفاهم ، وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم في سيرتنا إليه ، وفيما قاضيناه عليه .

قالت ثقيف : فلمَ كنتمونا هذا الحديث ، وغمتمونا أشد الغم ؟
قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان . فأسلموا مكانهم ، ومكثوا أياماً .. انتهى المراد من القصة .

٣٥ - هذه صورة من صور الوفود التي جاءت إلى النبي ﷺ .

جاءت ثقيف ، وهي أشد القبائل العربية شماساً ، وأبعدها عن الإسلام ، ولقد لقيهم النبي ﷺ بالبشر وأكرم ضيافتهم ، وأزلهم في المسجد ، وبني لهم الأخبية وربطها بالأوتاد ، وأمنهم في ضيافتهم تأليفاً لقلوبهم ، وربطاً لهم بالهبة ، والهبة من شأنها أن تلين القلوب ، ولو كانت قاسية كاللحجارة أو أشد قسوة .
وعلم مكان الاعتزاز فيهم فما هدمه ، ومكان الباطل فما تركه .

وبذلك استفدنا من تأليف النبي للمرب فائدتين .

إحداها : إن التأليف يكون بالبشر وحسن اللقاء ، والنفاذ إلى النفوس في سهولة ، ولين لا عنف معه .

الثانية : أن التأليف لا يقتضي إهمال الحقوق ، وإسقاط بعض التكاليفات
فها هوذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألف قلوب أولئك الذين لا يخلون من غلظة ، وفي نفوسهم شماس وفي عقولهم انحراف ، واستمسك بالهوى ، لقد جعلهم محمد رسول الله ﷺ يميلون إلى الإسلام ويمتنقونه ويتحايلون ليهتدي قومهم .

السماحة والعدالة :

كانت أخلاق النبي ﷺ سمحة يألف ويؤلف ، يؤثر على نفسه ، فأخلاقه في معاملاته كانت السماحة هي أظهر الأخلاق فيها ، ما غضب لنفسه قط ،

إلا أن تنتهك حرمان الله تعالى ، والأعرابي الذي أغلظ في القول ، يطلب العطاء ، يرفق به النبي ﷺ ، ويعطيه ويكرر العطاء حتى يرضى ، ويطلب منه في رفق من بعد ذلك أن يرضي أصحابه عليه السلام .

واليهودي الذي يتقاضاه دينه ، فيغلظ في القول ، ويهم عمر رضي الله تعالى عنه أن يقتله ، فيقول محمد رسول الله ﷺ في أناة المترقق : هلا أمرته بحسن المطالبة ، وأمرتني بحسن الأداء ، أو كما قال ﷺ ، فالساحة تجذب القلوب النافرة وتهدي النفوس الحائرة ، وترد العقول الشاردة .

ويحوار هذه الساحة كانت العدالة التي يفرضها على نفسه ، من نفسه ، فكان لا يمتدي على أحد ، ولا يظلم أحداً ، ويقدم نفسه ليقصص منه إن ظن أن عليه قصاصاً .

ولم تكن سماحته وعدالته ومعاونته ، واغاثته للملهوف مقصورة على معاملاته الشخصية بل إنها كانت تتعدى الى كل المعاملات الاجتماعية والسياسية ، فمن آذاه لا يكون إذا أдал منه المنتقم الجبار ، ولكن يكون العفو الرحيم يأخذ بقوله تعالى : ﴿خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾ وبقوله تعالى : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾ .

ويأخذ بقوله تعالى في أوصاف المؤمنين ، ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ .

كان يأخذ بهذه الآداب القرآنية في السلم وفي الحرب ، في المعاملات

الشخصية وفي معاملته لاعداء الاسلام ، فهو ينتصر على الباغي ، واذا انتصر عليه لا يقول ويل للغلوب ولكن يقول رحمة وعفواً ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، وبذلك تتألف القلوب ، بعد أن تدمى الأجسام .

واعتبر ذلك بحال الحديبية ، وبحال فتح مكة ، فقد كان له الغلب على قريش من بعد نصر الله تعالى بالريح والرعب في غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، اذ تجمع عليه العرب من كل آفاق البلاد ليقتلوا الاسلام فاقتلع الله تعالى الشرك من النفوس ، حق المعادين المعاندين .

السماحة في الحديبية :

٣٧ - خرج رسول الله ﷺ في العام السادس من الهجرة ليعتمر ﷺ هو وأصحابه وكان معه جيش كثيف عدته خمسمائة وألف ، وما كانوا يريدون الا بيت الله الحرام .

وإن النبي بث العيون ، ليعرف حال قريش ، ففعلوا أنهم جمعوا الجموع ، وأضافوا اليهم الأحابيش ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ، وقال السمع الكريم رسول رب العالمين : أترون أن غيل الى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فان قعدوا قعدوا موتورين محزونين أم تريدون أن تؤم هذا البيت ، فن صدنا عنه قاتلناه ، وقد وافقه أبو بكر الصديق على ما ارتأى ، وكان ذلك هو الرأي .

ولما رأى عليه السلام جموعاً من قريش تتجمع ،ومعه جيش أغلب خاطبهم خطاب السباح ، لا خطاب من يريد الانتقام .

أرسل اليهم عثمان بن عفان ، وأمره أمرين : أولهما أن يدعو قريشاً الى الإسلام ويخبرهم أن الرسول لم يأت لقتال ، ولكن جاء وصحبه معتمرين ، وثانيهما : أن يتصل بالمستضعفين من المؤمنين ويبشرهم بالفتح القريب .

ذهب عثمان ، وخاطب قريشا ، وغاب ، وظن المسلمون الظنون ، فظنوا

أنهم قتلوا عثمان ، فبايع النبي المؤمنين على القتال وكان ذلك تحت الشجرة التي سميت شجرة الرضوان لأن الله تعالى قال : ﴿ إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ ، إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ 》 .

ولما بلغ الرسول السمع ومعه الجيش القوي أنهم استعدوا للقتال ، قال : إننا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحروب ، وأضرت بهم ، فإن شاؤوا ما رددتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمري ، حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره .

عاد رسولهم اليهم ، وقال لهم : اني قد جئكم من عند هذا الرجل ، وسمعتة يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم ، فقال السفهاء منهم لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء ، وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعتة ، قال سمعتة يقول : كذا وكذا ، ونقل لهم ما قال ﷺ .

قال عروة بن مسعود الثقفي : انه قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعوني آتة ، فأذنوا له ، فأتى النبي ﷺ ، فكرر عليه ما قال ابتداء .

ولتنقل لك ماجرى من حديث بين الثقفي العنيف ، والنبي السمع ، لتعرف أن السباحة علاج النفوس الشامسة .

قال عروة بن مسعود الثقفي : أي محمد ، أرأيت لو استأسلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن كانت الأخرى فإني لا أرى وجوهاً ، وإنما أرى أوشاباً ، أخاف أن يفرّوا ويدعوك .

وأخذ يكلم النبي ﷺ ، وكلما تكلم أخذ بلحية الرسول ، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ، ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى حية النبي ﷺ ضرب يده بنعل سيفه ، وقال : أختر يدك ، رفع عروة

رأسه وقال : مَنْ هذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبه ، فقال له : أي غدر أولست أسمى في غدرتك ، وكان المغيرة قد صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ ما لهم ، فذهب به إلى النبي مسلماً ، فقبل النبي ﷺ إسلامه ، ورد المال لأنه أخذ بغير حله .

ومع سماحة النبي ﷺ ، وتجرؤ التقفي حتى مدّ يده إلى لحية النبي ﷺ وكان يرى طاعة المسلمين له ، فإذا أمرهم ابتدروا أمره بالطاعة ، وإذا تكلموا في حضرته خفضوا أصواتهم ، وما يحدّون النظر فيه تعظيماً له ، رأى التقفي ذلك وعرض على قومه ما رأى .

وأرسلوا رجلاً آخر من كنانة ، فوجد النبي ﷺ ومن معه ومعهم البدن يقدمونها هدياً ويلبسون محرمين ، فرجع إلى أصحابه من قريش ، وقال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . وجرت المراسلات بالرجال ، حتى كان الاتفاق وكتابة الهدنة عشر سنين .

وإذا كانت السماحة قد أظلت معاملة النبي ﷺ منذ أن جاء الحديبية حتى لانت قلوب قاسية ، وفيها نفوس فاسقة ، فإن كتابة العهد قد سيطرت عليها السماحة الحمدية .

ابتدأ الكتاب فألقى النبي ﷺ الافتتاحية بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل الحاضر عن قريش : أما الرحمن فوالله ما ندرى ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم .

قال الحاضرون من المسلمين : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

قال النبي ﷺ : اكتبها باسمك اللهم ، ثم اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .

فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك عن البيت وما

قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبدالله فقال النبي : إني رسول الله وإن كذبتهموني ، اكتب محمد بن عبدالله : على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، قال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب الكاتب برضا النبي ﷺ .

فقال سهيل : على ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك الا رددته .
ضج المسلمون ، وقالوا سبحان الله كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً .
فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل هذا يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .
فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل : والله لا أقاضيك على شيء .

قال سهيل : ما أنا بمجيزه لك ، ومع ذلك أقضي الكتاب على هذا الشرط فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت ، وقد غضب عمر رضي الله عنه غضباً شديداً .
وقال في غضبه : يا رسول الله ، أأنت نبي الله ؟ قال بلى ، قال أأنت على الحق وعدونا على الباطل ، وقال : بلى ، قال : علام نعطي الدنيا في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا .

فقال النبي ﷺ : إني رسول الله ، وهو ناصري ولست أعصيه .
قال عمر : أولست كنت تحدثنا أننا سنأتي ونطوف به .

قال الرسول السمح بلى أنا أخبرتك أنك تأتيه هذا العام ؟ قال عمر : لا قال الرسول : فانك آتية ومطوف به ، وكان العقد على صلح وضع فيه الحرب عشر سنين .

وكان المسلمون محرمين ، فأراد النبي ﷺ أن يتحللوا من الاحرام بذبح الهدي وقال لهم قوموا فانحروا ، ثم احلقوا .

فما قام رجل واحد حتى قال ثلاث مرات .

فلما لم يقم أحد دخل رسول الله ﷺ على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، قالت أم سلمة يا رسول الله اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، ففعل رسول الله ﷺ ما أشارت به أم سلمة .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فانحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً .

٣٨ - هذه سماعة محمد ﷺ ، وقد ظهرت في أمور في هذه القصة :

أولها : أنه كان قادراً على أن يدخل مكة ، ويطوف ويسعى ، وينفذ إحرامه ، ومعه جيش يزيل كل عقبة تقف ضده ، ولكنه آثر السلم ، والعافية وحقق الدماء بسماحة النبوة لتأليف القلوب ، وإن السماحة تجذب نفوساً والسيوف يقطع رقاباً ، وما يأخذ من الرقاب شيئاً ، ولكن يأخذ بالسماحة النفوس إلى الإيمان .

وثانيها : أنه قبل أن يذكر اسم الله بقولهم باسمك اللهم ، وسكت عن بسم الله الرحمن الرحيم وإذا كان قد ترك هذه البسملة سماعة وكرماً ، فقد ألان بذلك نفوساً كانت متعصبة ، وانها لسائرة في طريق الهداية .

وثالثها : أنه قبل ألا يذكر وصف رسول الله ﷺ ، وهو الرسول حقاً وصدقاً وقبل أن يقال ابن عبد الله ، وقد فتح بهذا التسامح القلوب لتدخل إليها رسالته ، وما كانت الجفوة والغلظة لتفعل ذلك .

ورابعها : أنه قبل أن يعطيهم ، ما لم يعطوه ، قبل منهم أن من يحيي ، اليه مسلماً من غير إذن وليه يرده ، ومن يخرج من عنده مرقداً لا يردونه اليه .

وإن ذلك لا يخلو من سماحة ، ولكن فيه حكمة ظاهرة قد بدت نتائجها منه ، فإن من ارتد عنه لماذا يعاد اليه ليكون عينا عليه ، إنه قذاة أخرجت من العين إن كانت .

ولقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحاً ، وما كان فتحاً إلا بتقدير الله سبحانه وتعالى ، وسماحة محمد ﷺ ، ولقد قال تعالى في هذا الصلح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ .

وإن الشرط الذي أغضب الفاروق عمر رضي الله عنه ، وكثيرين من المؤمنين المجاهدين وهو أن من جاء إلى النبي ﷺ مسلماً رد ، تبين أن نتيجته لم تكن شراً ، بل كانت خيراً ، ولقد طلب المشركون من النبي ﷺ أن يقبل من يحييه مسلماً .

كذلك ان الذين كانوا يخرجون من مكة مسلمين ، ولا يقبلهم النبي لا يعودون إلى مكة ، بل يبقون يقطعون على قريش طريق تجارتها ، وتلاحقوا وتجمعوا ، حتى تكونت منهم عصابة أولو قوة ، فكانوا لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوها فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال .

آذى ذلك قريشاً ، وأرسلت إلى النبي ﷺ تناسده الله والرحم لما أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن وبذلك ألغى الشرط بطلبهم ، وتلك من دلائل النبوة .

هذه كانت سماحة النبي ﷺ وقد ألفت القلوب ، وجمعت النفوس الشاردة .

وفي فتح مكة كانت الساحة أوضع :

٣٩ - إذ لم يعرف تاريخ الانسانية أن قائداً منتصراً عامل المغلوبين بمثل ما عامل به محمد ﷺ قريشاً ومن حالفهم ، وقد آذوه ثلاث عشرة سنة دأباً لم يتركوا فيها باباً من الأيذاء والتنكيل والسخرية إلا اتخذوه ، حتى هموا بقتله ﷺ ولكن كان ﷺ أجمع من قبل 'أمر الهجرة واتخذ أسبابها ، وكان الله تبارك وتعالى قد أيده ، فكان أعظم التدبير ، وأكرم التوفيق .

ومكثت الحرب بعد ذلك ست سنين دأباً ، ما تركوا طريقاً من طرق الشيطان إلا سلكوه ، حتى إذا كان الصلح والنبي ﷺ معه جند الله الذي يستطيع إبادة حضراتهم ، وكان الصلح كما أرادوا ، وفيه فرضوا على النبي ﷺ شروطاً ظالمة ، وقبلها عليه السلام في سماحة راحة ، وحكمة نبوية من غير صغار ، ولكنها نبوة مقربة للنفوس ، وليست منفرة للقلوب ، جامعة وليست مفرقة .

ولكنهم مع ذلك غدروا ولم يوفوا.

ذلك أنه كان في ضمن شروط الصلح التي ارتضاها الطرفان ، وأرادها النبي ﷺ الذي كان يريد الجمع العربي الذي لا تفرق فيه - كان من الشروط أن من أراد أن يدخل مع محمد ﷺ دخل ، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل . اختارت خزاعة جانب النبي عليه الصلاة والسلام ، واختار بنو بكر عقد قريش ، فكان من يعتدي على خزاعة كأنما اعتدى على النبي ﷺ .

وقد عادت الحرب جزءاً بين خزاعة وبني بكر كما كانت الإحن بينهم في الجاهلية ، فاقتتل الفريقان وما تدخل جيش الإسلام في القتال ، ولكن قريشاً تدخلت ونصرت بني بكر على خزاعة ، وأمدت بني بكر بالسلاح ، وقاتل من رجالها من قاتل .

عندئذ كان الغدر . ومهما تكن سماحة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلن تكون في غدر قط ، ومع غادر أبداً .

بل تجاوز الأمر مع بني خزاعة حد الغدر المجرد ، بل لقد حاول بنو بكر النيل من خزاعة في البيت الحرام بتجريض من بعض القرشيين .

كان لا بد لخزاعة أن تستنصر بالنبي ﷺ ، وما كان للنبي إلا أن يحيب الدعوة . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة ، حيث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول لرسول الله ﷺ : ' قتلنا وقد أسلمنا .

أصبحت الحرب ضرورية ، ولا موضع للسماحة . أولاً : لأنهم غدروا في العهد . وثانياً : لأنهم نكثوا في إيمانهم نكثاً كاملاً ، فقتلوا قوماً مسلمين ، فنقضوا الصلح من أساسه ، ولا صلح مع من يخون اليهود .

ولقد روي أن النبي ﷺ أكد نية الحرب بالقسم فقال : « والله لأغزون قريشاً » .. قالها ثلاث مرات تأكيداً للقسم .

سار رسول الله تعالى إلى مكة ، ومعه العباس الذي كان قد أسلم من قبل ، وركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وخرج يلتمس أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون النبي ﷺ .

ويلتقي وهو يتوسم الوجوه بأبي سفيان ، فيركبه في عجز بغلة الرسول ﷺ ، ورآه عمر وقد كان حارس الجيش ، وهمّ عمر أن يقتل أبا سفيان ، وقال له موعداً مهدداً : الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ولكن العباس استحث البغلة فركضت لكيلا يمكن الفاروق من قتل أبي سفيان قبل أن يلقي صاحب السماحة رسول الله ﷺ .

والتقى الفاروق مع أبي سفيان في حضرة النبي ﷺ مع العباس عمه ، وعمر يهز السيف ، ويستأذن النبي ﷺ في قتله ، ولكن ابن عبد المطلب شيخ قريش يحيره ويؤمنه .

فيقول رسول الله ﷺ قايلاً للأمان لعمه . « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأنتي به » .

هذا أول مظاهر السحاحة ، فلم يتركه بغير مَنْ أَمَنَهُ ، حتى لا يلقاه أحد من جيش الله فيقتله ، كما هم عمر .

التقى بالنبي مع العباس في الغداة ، فعرض عليه النبي الإسلام فتردّد بعصية الجاهلية فقال له العباس : ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم وشهد شهادة الإسلام .

ولكن السحاحة لا تقف عند قبول الإسلام بعد قلبت ، بل انها تريد إلى التكريم .

يقول العباس : إن أبا سفيان يحب العز فاجعل له شيئاً .

يقول رسول الله ﷺ مكرماً : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

وهنا السحاحة تعم ولا تخص ، وإن كان الباعث ابتداء تكريماً لأبي سفيان زعيم الشرك العنيد ، ولكنها سماعة النبوة المؤلفة .

وكان جيش الإسلام مؤلفاً من كثير من قبائل العرب ، اجتمعت على كلمة الله تعالى وتأييد رسوله الكريم ﷺ ، وكانت الكتائب تمر على أبي سفيان ابن حرب ، وقد وقف بمضيق الوادي .

وكانت كتيبة النبي ﷺ فيها المهاجرون والأنصار .

وكان يحمل راية الأنصار سعد بن عباد ، فلما مرّ على أبي سفيان قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة أذل الله قريشاً .

أطمعت سماعة النبي أبا سفيان بن حرب أن يشكو ذلك لرسول الله ﷺ .

فقال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد قال وماذا قال ؟ قال كذا وكذا .

قال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة .

قال النبي السمع الكريم : اليوم يوم المرحمة ، بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً .

هذه واحدة في سماحته المؤلفة ، وأخرى في سماحته وحكته أنه نزع اللواء من يد سعد بن عباد ، وأعطاهما ابن سعد قيساً ، ليري سعداً أن اللواء لم يخرج منه إلا إلى ابنه الذي هو امتداد لشخصه .

مضى أبو سفيان بعد أن طابت نفسه بسماحة النبي ﷺ .

قسم رسول الله جيشه أربعة أقسام كل قسم يدخل من جانب ، فبعث الزبير بن العوام إلى جانب ، وأبا عبيدة في بطن الوادي وخالد بن الوليد على جانب آخر ، ورسول الله في كتيبته .

وقد نهى رجاله عن القتال ، إلا أن يضطروا ، وشدد في النهي ، ومن بينهم خالد بن الوليد ومعه من جيوش القبائل سليم ، وغفار ومزينة وجهينة وقبائل أخرى من العرب .

ولم يقاتل أحد من القواد المسلمين إلا خالد بن الوليد ، فقد تعرض له عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمرو ، وكان بعض بني بكر الذين اعتدوا على خزاعة ، قد أعدوا السلاح ليقاتلوا جيش محمد ﷺ . كانت معركة صغيرة ، قتل من المشركين فيها نحو اثني عشر رجلاً ثم انهزموا .

وقد لامه النبي ﷺ أن قاتل ، وقد نهاه ، فذكر له خالد اضطراره فقبل عذره .

اتجه رسول الله ﷺ أول ما اتجه إلى المسجد الحرام ، فطاف ، واستلم الحجر الأسود ، وأخذ يحطم الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل »

إن الباطل كان زهوقاً ، والأصنام تتساقط بين يدي محطم الأوثان في الأرض ،
وقد رأى تماثيل في جدران البيت الحرام فحطمها .

وخرج رسول الله ، وقد وقف بباب البيت ، وقريش قد ملأت المسجد
صفوفاً ينظرون ماذا يصنع بهم ، فقال عليه السلام : « لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ألا كل
مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج
ثم وجه خطابه لقريش التي كانت تتفاخر بالأنساب قائلاً .

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم
وآدم من تراب » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله
عليم خبير ﴾ .

يا معشر قريش ماترون أني فاعل بكم .

قالوا أخ كريم وابن أخ كريم .

قال الرسول الكريم : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ، لا تثريب
عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين إذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هي الساحة العظمى ، وقد آمن الناس جميعاً ، إلا نفرأ ثم عفا عن
بعضهم ممن تاب وآمن وعمل صالحاً كمكرمة بن أبي جهل .

٤٠ - بهذه الساحة الكريمة التي ابتدأت في الفتح :

أولاً : بتأمين أبي سفيان وتكريمه بتأمين كل من يدخل بيته .

ثانياً : بتأمين كل من لا يخرج من بيته مقاتلاً .

ثالثاً : بعزل سعد بن عباد عن لواء الأنصار ، لقوله : اليوم يوم الملحمة ،
الذي تذل فيه قريش واستبدالها بقوله اليوم يوم الرحمة الذي تعز فيه قريش .

رابعاً : ينهي قواده عن القتال والقتل وقد استجابوا إلا خالداً ، إذ اضطر إليه .

خامساً : بذلك العفو الكريم : إذ يحكي معهم مقالة يوسف لأخوته : « لا تثريب عليكم » .

وهناك فوق هذه السماحة النهي عن التعصب للآباء ، والمنع من العصبية الجاهلية وبين لهم أن الناس جمعاً على سواء .

التأليف الإلهي :

بهذه السماحة النبوية ، والإطار الاسلامي ، والالتقاء على مائدة الإسلام الروحية ، وبالحرز والعزم ، والرفق والعفو تألفت قلوب كانت متنافرة ، وتقاربت نفوس كانت متباعدة .

وكانت الوحدة العربية التي تمد معجزة ، وقد كانت وحدة إسلامية في حدود العرب إذ لم يكن الأمر قد خرج من الديار العربية ، ولم يكن قد دخل غير العرب في ظل اندولة الإسلامية ووحدة الإسلام . إلا نفر قليل .

وإن ذلك التأليف معجزة من عمل الله تعالى ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ﴾ .

وإن التأليف في كل الأمور المادية سهل يسير ، وأما تأليف النفوس فصعب عسير ، وخصوصاً إذا كانوا متنازعين متقاتلين متدابرين ، فحق أن يكون ذلك بعمل الله القادر القاهر فوق عباده الذي يملك النفوس ، ويسيرها .

ولقد دعا القرآن الكريم إلى الوحدة بين بني الإسلام ، فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم

ونقف عند هذه الآيات وقفة قصيرة فهي تدل أولاً على الوحدة الإسلامية دلالة صريحة إذ يقول تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ وحبل الله تعالى القرآن الكريم فهو حبل الله الممدود ، إلى يوم القيامة ، وهذا يفيد أن الوحدة تقوم على الاستمسك بكتاب الله تعالى ، فكل وحدة تقوم على غير ذلك مآلها الانهيار ، لأنها تقوم على شفير هار ، ثانيها - أنها تفيد أن التأليف بين العرب كان يهتدى به الله سبحانه وتعالى وبالإسلام فهو الذي جمعهم بعد التفرق ، وآوامر إلى ربوة المحبة والاخلاص ، وأن من ثمرات التأليف أن يعتصموا بحبل الله الذي كان السبل إلى ذلك التأليف .

ورابها : بين أن التفرق بعد أن جاءت الينبات تكون معه الذلة ، ومع الذلة عذاب الدنيا ومع العصيان عذاب الآخرة فيجتمع على المفرقين الذين جعلوا جمعهم شيئا ، كل حزب بما لديهم فرحون — ذل الدنيا وعذاب الآخرة .

تَسَامُ الوَحْدَة في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٤٢ - تكونت الوحدة العربية في عصر النبي ﷺ على أساس الإسلام ، وكان القرآن هو الجامع لتفرقها ، والموحد لأشتاتها ، فلم تكن وحدة قومية بل كانت وحدة إسلامية .

والفرق بين الوجدتين بين واضح ، فان الوحدة القومية تسد الباب على غير العرب ، ولا تجعلهم ينتظمون في سلكها ، أما الوحدة الإسلامية ، فإنها مفتحة الأبواب ، لكل مسلم أن يدخل فيها لأنها وحدته ، ولأن الديار دياره ، فلا فرق فيها بين عربي ، ولا بنحس فيها لأعجمي ، ولذلك يقول ﷺ مؤكداً أنها وحدة إسلامية « كلكم لأدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » .

وإن شئت فقل : إن الوحدة التي أقامها النبي ﷺ وحدة قرآنية ، لأن أساسها الاعتصام بمجل الله تعالى وهو القرآن ، ولذلك نجد القرآن الكريم لا ينادي العرب بعنوان العرب ، إنما ينادي الناس بعنوان الناس والايامن ، ويدخل العرب فيهم ، إذ ينادي المؤمنين بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » ، ويدخل الفرس والروم وغيرهم من أجناس أهل الأرض إذا آمنوا بالله سبحانه وتعالى .

وليس للعرب في القرآن حظ أكبر من غيرهم بيد أنه نزل بلغتهم ، لأن النبي ﷺ منهم ، وقد قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ وقد ذكرنا من قبل لماذا اختص الله سبحانه وتعالى العرب بأن جعل البعث فيهم . وإن البلاد العربية بهذا لها شرف في الوحدة ، لأن بها بيت الله الحرام ، وقد من الله تعالى عليهم ، فقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ .

وأن وجود الكعبة بها ، وهي قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، في قاصيها ودانيها وهذه القبلة تشعّر المسلمين في كل بقاع بأنهم أجزاء من كل شامل جامع .

وفي البلاد العربية مظهران للوحدة الإسلامية ، وهو مناسك الحج التي هي موضع التعارف بين المسلمين في كل الأرض ، فهم يأتون إليها من كل فج عميق في ضيافة الرحمن .

وقد ذكرنا في سياق بحثنا لماذا كانت البلاد العربية بها مبعث الرسالة المحمدية الخالدة التي تكون للناس كافة أحمرهم وأسودهم وأبيضهم .

ولا يقال : إن الإسلام عربي ، لأنه نزل في أرض عربية ، ومعجزته عربية ، ومنبعه عربي لا يقال ذلك لأنه لا علاقة بين خصوص المكان ، أو خصوص اللغة ، وكون الدعوة عامة ، والحكم عاماً لأنه صرح النبي ﷺ بعموم الرسالة ، وصرح القرآن بعمومها ودعوة محمد كانت عامة ، والعبرة بعموم الدعوة ، لا بخصوص المكان ولا بخصوص اللغة .

وإذا كان للغة العربية ، موضع في الوحدة ، فليست لتخصيص الإسلام بالعرب ، ولكن سنقول : إنها اللغة التي تكون وسيلة لجمع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت هي لغة الإسلام يوم أن كانت الوحدة الشاملة ، وقد تفرقوا إذ تفرقوا عنها ، فكان أول مظهر من تفرق كلمة المسلمين ، كان

إحياء اللغات الشعوبية للأقوام الذين دخلوا في الإسلام أفواجاً أفواجاً .
وليس مؤدى ذلك أن القرآن والإسلام للعرب وحدهم، دون سائر الناس .

حماية محمد للوحدة التي ألفها الله :

٤٣ - حمى محمد ﷺ الوحدة الإسلامية التي ألفها الله تعالى على يديه في البلاد العربية وبين القبائل العربية حماها النبي ﷺ مما كان سبب التفرق من بعد، وهو العصبية الجاهلية، والتفاخر بالأنساب وما نهى النبي ﷺ مستنكراً أمراً اجتماعياً كما نهى عن العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالآباء والأجداد . وأوجب التفاخر بالعمل الصالح وحده .

لقد برىء النبي ﷺ من كل من يدعو بدعوى العصبية الجاهلية فقال ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية . » ولقد روى مسلم والنسائي أن رسول الله ﷺ قال : « من قتل تحت راية عِمِيَّة يدعو لعصبية أو ينصر عصبية ، فقتلته ^(١) جاهلية . »

أي يكون في حال عمى بسبب هذه العصبية الجاهلية ، التي لا تعرف الحق من الباطل ويكون الضلال والجهاد فيها بينة لا تخفى على مؤمن بالله تعالى . ويقول ﷺ : « مثل النبي ينصر قومه على الظلم مثل البعير المتردي في الركي ^(٢) فهو ينزع بذنبه ، » وقد سئل رسول الله تعالى عن معنى العصبية المنهي عنها ، فقال ﷺ : « العصبية أن تعين قومك على الظلم . »

وهنا يرد سؤال هل ينهى النبي عن محبة الأوطان أو محبة الأقوام ؟ وإن الجواب عن ذلك أن المحبة في كل صورها أمر محبوب في الجماعة ، تبتدىء بمحبة الأسرة والعشيرة ، ثم الجماعة في الوطن ثم الجماعة الكبرى في الإسلام ، ولا تلغى الدرجة العليا ما دونها ، ولكن المنهي عنه المحبة التي تؤدي إلى

(١) العِمِيَّة بكسر الميم على وزن فَعِيلَة مبالغة في العمى .

(٢) الركي ، الآبار .

الفرقة والإنقسام ، وتحرض على الظلم ، وهي العصبية الجاهلية ، ولقد سأل أبي بن كعب النبي ﷺ : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، فقال ، النبي ﷺ الذي آتاه الله الحكمة : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر قومه على الظلم » .

ولقد قال ﷺ : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم ، والائم إنما يكون في الاعتداء والظلم » .

ولقد نهى النبي ﷺ في سبيل إقامة الوحدة وتثبيت أمرها عن أن يقتتل المسلمون بعضهم مع بعض ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا تواجه المسلمان فالقاتل والمقتول في النار ، فويل يا رسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ » ، قال كان حريصاً على قتل صاحبه » .

ويقول عليه السلام : « لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » .

ولقد روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وقد رواه مع الترمذي أبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه وجزى أباه عن الإسلام خيراً .

٤٤ - كان النبي يحمي الوحدة ، والتآلف العربي الذي ألف الله به العرب بعد طول افتراق وقد علم الرسول ﷺ أن العصبية الجاهلية هي سبب فرتهم ، فزواها هو الذي يجمعهم .

وقد حدد رسول الله ﷺ الحدود ، فلم يح الأوطان ، ولا الأقاليم لأن الحبة كالسنبور من الماء يفيض على المكان القريب منه ، ثم يفيض على ما بعده ، فلا يمكن أن تحمي حبة العشيعة أو حبة الوطن التي حلت محل حب العشيعة

أو القبيلة ، ولكن محبة الوطن تكون في ظل الإسلام كله أولاً ، وتكون في دائرة المحبة التي لا بغضاء فيها ، ولا عداوة ، ولا اعتداء .

ولذلك ففسّر عليه الصلاة والسلام العصبية بأن يعين المرء قومه على الظلم .

وإن التصور الذي نستطيع أن ندركه في الجمع بين الوطنية أو الاقليمية والوحدة الإسلامية هو أن نقول إن التدرج الانساني يبتدىء بالأسرة ، فأحاديها يكونون وحدة متضافرة متوادة متحابّة والأسر مجتمعة تكون اقليماً متواداً متآلفاً متحاباً بحيث لا تكون ثمة عداوة بين أسرة وأخرى والمجتمع الاسلامي يتكون من أقاليم متوادة متعاونة في الذود عن الإسلام .

وكما يضحى بالواحد في الأسرة في سبيل مجموعها ، ويضحى بالأسرة في سبيل الوطن فان الوطن يندغم في الجماعة الاسلامية ، وتكون الوحدة الإسلامية متكونة في أعلى مدارجها .

المنافقون والوحدة في عهد النبي

٤٥ - العربي صريح بطبعه ، واضح النفس وضوح الشمس الرائعة التي تنير نفسها ، فإذا دخل الإيمان قلبه التقى فيه نور البصيرة ، وإذا كان في الأعراب منافقون كما صرح القرآن الكريم إذ قال : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾ فإن ذلك كان من شأن الجاهلية التي كانت قبل أن تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

ولما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة ، وخالط العرب اليهود ، وكان في المدينة يجوار اليهود مشركون لم يدخلوا في الإسلام مع أقوامهم ، بل أبوا وجحدوا .

واستمروا في غيهم يعمهون إلى أن انتصر المسلمون في غزوة بدر، وصارت لهم قوة يحسب حسابها ، فصارت كلمة الله تعالى هي العليا ، وكلمة الشرك هي السفلى .

عندئذ وجد من هؤلاء منافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تَعَجَّبَكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُو ، فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنَى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

وإن هؤلاء المنافقين كانوا حربا على الوحدة التي كونها النبي ﷺ وكانوا يثيرون العداوة أينا وَاَجَدُوا لِكَلَامِهِمْ مَوْضِعًا مِنَ التَّأْثِيرِ ، كانوا يوقعون بين المهاجرين والانصار ، ولكن الله تعالى كان يرد كيدهم في نحورهم ، والنبي ﷺ يعمل على حاية المسلمين من شرهم وحاية الوحدة الإسلامية التي ألفت من كيدهم ولكنه لا يقتلهم ، ولا يمسه بأذى ، حتى يحفظ للوحدة مظهرها واعمالهم هي التي تحذر المؤمنين ، فكلما كانت حرب بين المسلمين وغيرهم خذلوا جيش الإيمان ، وكان يفتّر بهم ضعاف الايمان والنبي ﷺ يطاولهم ويصابرهم ، وهم لا يجدون فرصة للتفريق بين المؤمنين من المهاجرين والانصار إلا انتهزوها ، ووسعوا الهوة عساهم يهدمون لبنات من ذلك البنيان المرصوص من الوحدة الإسلامية .

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في غزوة... فكسع^(١) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري : يا لأنصار

(١) معناها ضرب عجزته بيد أو رجل أو سيف أو غيره ، والمناسب هنا أن يكون بسيف لأنهم كانوا في غزوة .

وقال المهاجري يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال رسول الله المؤلف بين القلوب : « دعوها فانها مُنْتِنَةٌ ، فسمعها عبدالله بن أبي ابن سلول (زعيم النفاق) فقال قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال الرسول المؤلف للقلوب الحفيظ على الوحدة الإسلامية دعه ، لا يتحدث العرب ، أن محمداً يقتل أصحابه .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة أن الغزوة التي أشار إليها صحيح مسلم في روايته كانت غزوة بني المصطلق ، وذكر تفصيل القصة بما ينتهي في نتيجته إلى ما انتهت إليه الرواية في صحيح مسلم فقال : بينا رسول الله على الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا فقال الجهني يا معشر الأنصار ، وصرح جهجاه يا معشر المهاجرين .

فغضب عبدالله بن أبي بن سلول (كبير المنافقين) وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال كبير النفاق : أوقد فعلوها ، فقد نافرونا ، وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدثنا وجلابيب قريش ، إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فشى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال عمر : فمر به عباد بن بشر ، فليقتله ، قال الرسول الحكيم : « فكيف يا عمر إذا تحدث

الناس أن عمداً يقتل أصحابه ، لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ليترحل فيها .

وهذا الرحيل العاجل شغل الناس بلم المتاع والشعث عن التفكير في تلك الدعوة الجاهلية التي نبتت نابتنها ، وغذاها النفاق بغذائه الخبيث .

٤٦ - في سبيل بقاء الوحدة ، قائمة في حقيقتها ومظهرها لم يكن النبي ﷺ ليمس منافقا ، أو ينال منه أي نيل وهو يعلم أنه يشبط المسلمين ، ويخذلهم ، ويعلم كما ورد في القرآن الكريم أنهم مرضوا بداء النفاق ولا سبيل لأن يكونوا مؤمنين ، ولكنه كان مع ذلك يتلطف لهم ، ويستغفر الله لهم ، حتى نهاه الله تعالى ، ونزل قوله : ﴿ استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

وكان النبي يفعل ذلك تأليفاً للقلوب ، ولأنه يرجو أن يخرج من أصلاهم من يعبد الله ، ولأن لهم أقارب من المؤمنين المخلصين يألمون للأذى ينالهم ، ولقد كان عبدالله بن أبي هذاله ابن اسمه عبدالله من أخلص الناس .

ولكن الرفق لم ينهمهم عن غيهم ، ولم يقرب نفوسهم ، لأن النفاق مرض ، إن أصاب القلب لا يشفى منه ، ورفقة النبي ﷺ في السياسة والحروب ورفقة المؤمنين معه كانت تزيد مرض النفاق فيهم ، ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وذلك بتوالي الانتصار .

الإفك وخوض المنافقين :

٤٧ - تخلفت عائشة أم المؤمنين حب رسول الله تعالى عن هودجها في إحدى الخرجات حتى أدركها بعض الصحابة فأناخ لها الجمل وركبت ، والتحقت بركب الرسول ﷺ .

وكانت تلك الواقعة فرصة للنفاق ، فتلقفها عبد الله بن أبي وقول كبير

الافك على أم المؤمنين الطاهرة بنت الطاهر الصديقة بنت الصديق وزوج خير العالمين ، وصفوة الوجود الإنساني .

وقد قالت عائشة أم المؤمنين ، وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج ، وهو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إِن الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ .

وكان يكفي هذا لأن يثير النبي ﷺ ليعاقب الآثمين ، وقد مَسَّ الأمر شخصه ، وإن لم ينل من مكانته عند الله تعالى وعند الناس ، ولكن النبي ﷺ ما كان ليعمل لنفسه ، ولكنه يعمل لله وهو لا يريد إلا أن تبقى الوحدة الإسلامية سليمة في حقيقتها وفي مظهرها .

ولم يفعل في حديث الافك إلا أن قال عاتباً مترفقاً .

« أيها الناس : ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً » .

ولكن ذلك العتب الرقيق الهاديء استفز قلوب قوم مؤمنين من الأنصار فقال أسيد بن خضير من الأوس يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم » .

ولنترك لابن هشام الكلمة يتمم القصة ، ومنها نعلم أن عبد الله بن أبي كان يرمي إلى التفرقة بين الأوس والخزرج ، يقول ابن هشام بعد نقل مقالة أسيد بن خضير .

« قام سعيد بن عبادة ، وكان من قبل يرى رجلاً صالحاً ، فقال كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم أما والله ، ما قلت هذه المقالة إلا لأنك عرفت

أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ، فقال أسيد كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ذلك ما كان ينتفيه عبدالله بن أبي بن سلول بما حدث به الخزرج ، وما كان يمكن أن يسكت من غير فتنة يثيرها ، ولكن قوة الايمان في الأنصار الذين قال فيهم النبي ﷺ : لولا الهجرة لكنت أمراً من الانصار ، كانت قوة الايمان قاضية على هذه الفتنة .

وهكذا كان المنافقون يوقدون الفتنة ، حيث وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وكلما أوقدوا ناراً لها أطفأها الله تعالى بقوة ايمان أصحاب رسول الله ﷺ .

٤٨ - اشتد أمر النفاق في المدينة ، والنبي ﷺ يطاول المنافقين ، وهو يعلم الأكثرين منهم ، أو يعلم كبارهم وهم يكيدون فينجحون أحياناً بين الضعفاء ، ولا يقولون على أن يبشوا سمهم في أقوياء الايمان ، لأن هؤلاء يعلمون أمرهم ، ولا ينخدعون ، وإن كانوا كما قال الله تعالى : ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

وهكذا نجد المنافق الذي يكثر نفاقه بالكذب على الناس واستمرار الكذب ينتهي أمره بأن يفسد تفكيره فلا يرى الأمور على وجهها ، بل يراها من وراء تفكيره السقيم .

اشتد أمر النفاق في المدينة ، حتى ذهب أهل كل بيت فيه منافق يستأذن النبي ﷺ في قتله ، وذهب عبدالله بن عبدالله بن أبي يقول للرسول إن كنت تريد قتل أبي فأمرني بقتله فاني لا أريد أن يكون في نفسي ثأر من مؤمن .

ولكن النبي ترك النفاق يأكل بعضه بعضاً .
وقال أين عمر ؟ لو قتلناهم يوم طلب قتلهم لأرعدت لهم أنوف تريد
اليوم قتلهم .
وهكذا بحكمة الرسول وبجله وسماحته ولطف عشرته تمت الوحدة بين
العرب ، ومات النفاق بينهم بفعل أهله ، والله سبحانه وتعالى بكل شيء محيط .

الاتجاه بالدعوة إلى غير العرب

٤٩ - تم تأليف العرب في وحدة اسلامية جامعة ، أو كاد يتم ، والاسلام لم يحىء للعرب وحدهم ، ولكنه للعالم الإنساني كله ، فكان لا بد أن يتجه إلى الناس كافة من بعد نشره في البلاد العربية ، وجعل قوة له فيها ، وبعد أن أزال دولة الأوثان .

ولذلك اتجه إلى الروم والفرس والشام ومصر برسل أرسلهم ، وكتب كتبها ، وهو يريد من الارسال اليهم أن ينفذ إلى شعوبهم ، ليتمكن من الدعوة الإسلامية الجامعة لكل معاني الانسانية .

بعث رسول الله ﷺ رسلا من أصحابه ، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوم فيها إلى الإسلام .

يقول ابن هشام في سيرته : « فبعث دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى ملكي عمان .. » ولم يقتصر برسله على غير العرب ، بل أرسل إلى أمراء العرب الذين نأت ديارهم ، ولم يشتركوا في حروب النبي ﷺ ، ولم يكن في أرضهم فتح إسلامي .

ولنثبت هذه الكتب كما رويت في كتب السيرة وفي الصحيحين ، صحيح مسلم والبخاري وغيرهما .

أ - ثبت في الصحيحين عنه عليه السلام أنه كتب إلى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (يريد الرعية) يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن قولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون .

ب - وكتب إلى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجحوس .

ويروى أنه لما قرئ عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مزق الله ملكه .

ج - وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة :

بسم الله رب العالمين ، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة : أسلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطهور الطيبة الحصينة ، فخلق الله تعالى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني

أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن
بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، واني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد
بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى .

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري ، وقد أخذ يذكره عمرو
بمطفه على المسلمين عند الهجرة إلى الحبشة ، وحده عليهم قال له : « يا أصحمة
إن علي القول ، وعليك الاستماع ، انك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة
بك ، ومنك لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه منك ، ولم نخفك على شيء
قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك : الإنجيل بيننا وبينك
شاهد لا يرد ، وقاض لا يحوّر ، وفي ذلك الموقع الحز ، وأصابة الفصل وإلا
فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم .

وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس ، فرجاءك لما لم يرجهم له ، وأمنك
على ما خافهم عليه بخير سالف ، وأجر ينتظر .

قال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ،
وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان
ليس بأشقى من الخبر .

وكتب النجاشي كتاباً إلى النبي جواباً لكتابه هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة .

سلام عليك ، يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته الله الذي لا إله
إلا هو .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فما ذكرت من أمر عيسى ،
فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت
به إلينا ، قد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ،

وقد بايعتك وبايعت ابن عمك (جعفر بن أبي طالب) ، وأسلمت على يديه
الله رب العالمين .

د - وكتب إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله - إلى المقوقس عظيم
القبط .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك
مرتين فإن توليت ، فإنما عليك إثم القبط « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة
سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا
بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن قولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون .

بعث هذا الخطاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، ولم يكتف حاطب بتبليغ
الرسالة ، بل ناقشه في أمور الفراعنة والعبرة في أخبارهم ، قال حاطب :
إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ،
فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر بغيرك بك . قال
المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه . قال له حاطب : ندعوك
إلى دين الإسلام ، الكافي به الله فقد ما سواه ، وإن هذا النبي دعا الناس ،
فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ،
ولعمري ، ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك
إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم
أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي .

ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

قال المقوقس ، إني نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود
فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن

الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة باخراج الجبناء والاخبار بالنجوى
وسأنظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حق من عاج وختم عليه ورفعـه
إلى جارية ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله الكتاب
التالي :

لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما
تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا بقي ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد
أكرمت رسولك ، وقد بعثت اليك بجارية لها مكان في القبط عظيم ،
وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك .

كانت الإجابة فيها سلام وأمان ، ومودة ولم يكن فيها إيمان .

٥٠ - هذه كتب كتبها إلى ملوك ورؤساء لم يكونوا عربا ، وقد رأينا
أن بعضهم لم يرد مطلقاً ، وإن كان فيه ميل إلى الإسلام ، ولكن حب الملك
طغى على حب الحق فطمسه .

ومنهم لم يرد ، ولكنه كان غليظاً في تلقيه للكتاب إذ مزقه فدعا عليه
النبي ﷺ أن يمزق الله ملكه ، فمزقه المسلمون شر ممزق ويروى انه ارسل من
يذهب إلى النبي ﷺ ليقتله .

ومنهم من آمن ، وحسن إسلامه ، وهو النجاشي .

ومنهم من أحسن الرد ، ولم يحسن لنفسه بالإيمان ، وهو المقوقس عظيم
القبط في مصر .

وإن النبي ﷺ كتب لبعض أمراء العرب الذين كانوا في أرض نائية عنه
فأجابوا ومنهم من ذكر أن تحت سلطانه يهوداً ومجوساً ، وماذا يصنع معهم ،
وهو المنذر بن ساوى .

ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة مولى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .
قال وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس ، فنسخته ، فإذا فيه بعث
رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ، وكتب إليه كتابا
يدعوه فيه إلى الإسلام .

فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ جاء فيه :

أما بعد يا رسول الله ، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من
أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود
فأرسل إليّ في ذلك ، فكتب اليه رسول الله ﷺ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى :
« سلام عليك ، فإني أحمد اليك الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
وأن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد : فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فانما ينصح لنفسه ، وإنه
من يطع رسلي ويتبع أمرهم ، فقد أطاعني ، ومن نصح لهم ، فقد نصح لي ، وإن
رسلي قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما
أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم وإنك مهبا تصلح فلم
نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية . »

ونرى أن ذلك الكتاب المروي عن رسول الله تعالى بسند ابن عباس
(في الجملة) يدل على أمرين :

أولهما - تسامح النبي ﷺ مع أهل الذنوب ، وترك أمورهم لله تعالى ،
وبيان أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الأمر يكون على حسب حاضرم .

وثانيهما - أن الرسول ﷺ استجابة لأمر ربه في قوله تعالى :
﴿ لا إكراه في الدين ﴾ لم يفكر في إكراه المجوس واليهود الذين هم في ولاية

المنذر ، بل تركهم وما يدينون ، وفرض عليهم جزية تقوم مقام ما يجب على المسلم من زكوات وكفارات ، ونذور ، وصدقات ، وليساهموا بذلك في بناء الدولة الإسلامية .

٥١ - بهذه الكتب التي أرسلها النبي ﷺ حقق أن رسالته للناس كافة ، لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، ولم يجب إلى الإسلام إلا النجاشي ، وبعض قومه ، وقد فتح باب الدعوة إلى الإسلام في أرضه وغيره من ملوك الفرس والروم ومصر وغيرهم ، لم يحيبوا داعية الإسلام ولم يفتحوا الباب للدعوة الإسلامية ، ومنهم من رد رداً عنيفاً فيه إعلان العداء للإسلام والمسلمين ، ومنهم من لم يرد قولاً ، وإن كان قد ثبت ميله للإسلام بالقول ، وآثر الاحتفاظ بملكه عن الاستجابة للدعوة إلى الإسلام ، فقد جاء في صحيح البخاري أن هرقل عندما جاء إليه كتاب رسول الله ﷺ يدعو وقومه إلى الإسلام عرض على الملأ من الروم وبدا من لحن قوله وصريحه أنه يصدق الرسالة المحمدية ، فحاصوا حبيصة حمر الوحش فتراجع ، وقال إنما كنت أختبركم .

ولم يقف بالنسبة للرومان على السكوت فقط ، بل إن الولاة والقواد للجيوش الرومانية اعتدوا على من دخل في الإسلام من أهل الشام وقتلوه وفتنوه في دينهم ، فحق قتالهم .

ولذلك أرسل النبي الجيوش للشام ، وخرج الروم إلى المسلمين في غزوة مؤتة يجيوش كثيفة ، وقد تراجعت الجيوش الإسلامية بمهارة خالد بن الوليد عندما رأى أنه لا قبل للمسلمين بالرومان عدداً ، وعُدداً ، ثم كانت . . غزوة تبوك .

وكان لا بد أن تنفذ الدعوة الإسلامية وراء محاجزات الملوك وممانعات الأمراء ، لأن الأمر بتبليغ الرسالة عام كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ولا بد من إزالة هذه المحاجزات ، لما كان من اعتداء على المسلمين ، وعلى الإسلام بمنع دعوته .

وانجه النبي ﷺ إلى فتح الشام للدعوة الإسلامية ، فأعد جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وشدد في تنفيذه ، وكان فيه الشيخان الجليلان أبو بكر وعمر .

وأوصى بتنفيذه ، وكان لا بد من تنفيذه .

وهنا نلتفت التفاتة صغيرة إلى معنى تكوين الجيش ، فعلى رأسه أسامة ابن زيد الذي قتل أبوه في حرب مؤتة ، وهو مع ذلك ابن زيد الذي لم يبلغ في نسبه ولا في مكانته كبار قریش وخصوصاً أن في الجيش أبا بكر وعمر ، ومكانتهما في الإسلام مكانتهما .

وفي ذلك إثبات أن الشرف ليس بالنسب ، وأنه يجب أن يمكن الصغير من العمل ، كما يمكن الكبير ، وأنه لا تقف المانعات أمام صغير ، ولا يفض من مقام الكبير أن يكون مرؤوساً للصغير ، فإنه جهاد ، لا شرف فيه إلا للعمل .

التآلف بين العرب وغيرهم :

٥٢ - تكاثر دخول غير العرب في الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ عندما فتحت فارس ، والشام ، ومصر ، وانساب المسلمون في شمال إفريقيا ، ثم من بعد ذلك دخلوا الأندلس وصاقبوا وسط أوربا ، فهل ترك النبي ﷺ الأمر فرطاً ولم يبين ما ينبغي اتباعه بعد أن دخل غير العرب في دين الله أفواجاً أفواجاً ؟ كلا إن النبي ﷺ دبر الأمر لما يكون من بعده ، حتى تكون الوحدة الإسلامية كاملة .

وذلك في أمور ثلاثة :

أولها : النهي المطلق عن المعصية ، فإن النهي عن المعصية يدخل في عموم النهي عن عصية الإقليم ، كما يدخل في عموم النهي عن عصية القبيلة والنسب .

وأساس العصبية أن يعين المتعصب قومه على الظلم ، كما بين النبي ﷺ أن العصبية لا تتنافى حب قومه ، ولا تتنافى حب الوطن ، كما وضعنا ذلك في بيان تدرج المحبة في المجتمع الإسلامي ، وأن الأساس ألا تكون معاداة مطلقاً ، وبالتالي لا يكون ظلم ، لأن العداوة تجر إليه ، وما يكون حراماً تحرم ذريعته ، ودين المحبة يمنع العداوة في أي صورة من صورها ، والظلم في نظر الإسلام كما قرر محمد ﷺ ظلمات يوم القيامة .

وثانيها: إثبات الأخوة الإنسانية العامة التي لا تفرق بين عربي وأعجمي فقد قال عليه الصلاة والسلام كما روينا من قبل : « كلكم لأدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

وقد أوجب القرآن الكريم ذلك لأجل التعارف الإسلامي العام في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقد قرر القرآن الكريم الأخوة بين أهل الإيمان بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ .

ونهى النبي ﷺ عن التنابز بالألقاب التي تدل على الجنس المختلف فقد سمع ﷺ عربياً من أصحابه يتنازع مع غيره ، فيقول له : « يا ابن السوداء » فيغضب رسول الله ﷺ ويقول : « لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا التقوى » .

الأمر الثالث - ولاء الموالاة الذي شرعه النبي ﷺ بين العرب وغير العرب ، ليقوم مقام المؤاخاة ولذلك بيان ، نذكره بإيجاز .

ولاء الموالاة

٥٣ - ولاء الموالاة عقد يشبه عقد الاخاء الذي كان في عصر النبي ﷺ وعقده عليه السلام بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض على ما حققنا فيما مضى ، وثبت من الرواية الصحيحة

وحقيقة عقد الموالاة أن يتفق رجل دخل في الاسلام من غير العرب عادة مع أسرة عربية على أن تعقل عنه إذا جنى ، ويدخل في الأسرة على هذا الأساس بحيث يكون كأحدها في هذا ، ولا يتجاوزها ، وعند الحنفية ، أبي حنيفة ، وأصحابه أن العربي في مقابل أن يعقل عنه إذا جنى يرثه إذا مات من غير وارث من ذوي فروض ، ولا عصبه ، ولا ذوي أرحام .

وخالف بعض الفقهاء الحنفية في الميراث ، ولكن لم يخالفهم في أصل عقد الموالاة ، فهو حقيقة ثابتة بالقرآن وبأحاديث النبي ﷺ ولا مجال لفقيه من فقهاء الاسلام الأعلام أن ينكر أمراً ثابتاً بالكتاب والسنة .

ونحن نذكر ولاء الموالاة في الوحدة الاسلامية ، لأنه امتداد للاخاء الاسلامي الذي تولاه محمد ﷺ ، والمؤاخاة الاسلامية عقد أشرف عليه النبي ﷺ ، ونحسب أنه داخل في عموم النصوص الدالة على العقود التي تثبت مؤاخاة بين المسلمين تثبيتاً للوحدة ، وتمكيناً للأخوة الاسلامية العامة ، سواء أكانت بعقد سمي عقد المؤاخاة ، كما سماه النبي ﷺ أم سميت بعقد الموالاة ، كما اشتهر بين الفقهاء من بعد .

ونعود إلى النصوص الواردة المثبتة لعقد الموالاة والتي تشمل بعمومها عقد المؤاخاة على أنه شريعة اسلامية دائمة ، إن لم تكن واجبة فهي أمر حسن في الاسلام ، وليس حالا وقتية خاصة بالهجرة .

لقد قال تعالى : (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، إن الله كان على كل شيء شهيداً) .

وقد روي عن جابر أن النبي ﷺ كتب على كل بطن عقوله (أي أن تقوم قبيلة العاقد الذي عقد موالة بدفع دية مولاه إذا جنى ، وقال لا يتولى مولى قوم إلا بأذنهم ، أي أنه لا يدخل في أسرة أو قبيلة بمجرد عقد شخص منها ، بل لا بد من أذنهم ، ولقد قال في ذلك أبو بكر الرازي الشهير بالخصاص « حوى هذا الخبر معنيين أحدهما جواز عقد الموالة .. والثاني أن له أن يتحول بولاية إلى غيره إلا أنه كرهه إلا بأذن الأولين » .

ومؤدى هذا الكلام أن الولاء يبتدىء بالترام شخصي من العاقد ، ويتحول إلى ولاء للأسرة أو القبيلة كلها ، وإن النبي ﷺ يستحسن ما دام الولاء له هذا التعدي أن يكون بإذن من الأولياء ، لأنهم سيتحملون ديات جانبية ، فيحسن أن يكون لهم إرادة واختيار ليكون الالتزام بإرادتهم ، لا بالزامهم .

ولقد قال ﷺ : « الولاء لمة كلحمة النسب » .

ولقد ذكر الفقهاء مستنبطين من كلام النبي ﷺ وسنته أحكامه فقال يحيى ابن سعيد إذا جاء رجل من أرض العدو فأسلم على يد مسلم فإن ولاءه لمن والاه ومن أسلم من غير المسلمين المقيمين في ظل الإسلام (الذميين) فولأوه للمسلمين عامة .

وقال : الليث بن سعد فقيه مصر : من أسلم على يدي رجل فقد والاه ، وميراثه لمن أسلم على يده .

وروي عن تميم الداري أنه سأل رسول الله ﷺ يقول له يا رسول الله في الرجل يسلم على يدي الرجل من المسلمين قال هو أولى الناس بمحياه ومماته .

وروي أنه قد سئل ابن شهاب الزهري عن رجل أسلم فوالى رجلا هل بذلك بأس ، قال لا ، وقد أجاز ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

٥٥ - وفي الحق أن اجازة عقد الموالة ثابتة بالقرآن فيما تلونا ، وبالحديث والسنن المروية عن الصحابة ، وهو تناصر وتألف بين العربي ، وغير العربي

وبين المسلم القديم بإسلامه ، والمسلم الداخل في الإسلام الذي يكون في كثير من الأحوال قد انفصل عن أهله وعشيرته ، فشرع الله تعالى ولاء الموالاة ليكون للرجل أنس بالمسلمين . وقد فقد أنسه بآله وعشيرته ، وهذا يفسر قوله ﷺ « الولاء لمة كلحمة النسب »

ويفرض الفقهاء اعتراضين أحدهما على أصل شرعية هذا الولاء ، والثاني على التورث به .

أما الأول فهو ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في رواية جبير بن مطعم « لا حلف في الإسلام ، وأبما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » أي في حال كونه موافقاً للمبادئ الإسلامية ، كحلف الفضول الذي كان لحماية الضعفاء ، أما الحلف الجاهلي الذي يتنافى مع مبادئ الإسلام ، فإنه لا يلتفت إليه ، وكان حلف الجاهلية يقوم على التعاون على الإثم والعدوان ، والأخذ بالثارات ، ويقول في ذلك أبو بكر الرازي « وذلك لأن حلف الجاهلية كان يعاقده ، فيقول : « هدمي هدمك ، ودمي دمك ، وترثني وأرثك ، وكان في هذا أشياء قد حظرها الإسلام ، وهو كان يشترط أن يحامي عليه ويبذل دمه دونه ، ويهدم ما يهدمه ، فينصرده على الحق والباطل ، وقد أبطلت الشريعة هذا الحلف ، وأوجبت معونة المظلوم على الظالم ، حتى ينتصف منه ، وألا يلتفت إلى قرابة ولا غيرها ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ، فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ .

وخلاصة هذا الرد أن الحلف المنهي عنه في الإسلام هو الحلف الجاهلي الذي أساسه أن تؤخذ الحقوق أو غيرها من غير حكم ، بل بالغلبة والقهر والتعاون عليهما فحرم الإسلام ذلك حرم أن يكون حلف في الإسلام يكون على هذه الأسس ، ففي الإسلام نظام وقضاء ، ولم يترك الناس يبغي بعضهم على بعض ، فقد

كانت دولة حاكمة بالعدل ، تنتصف للضعيف المظلوم ، وتقتص من القوي الظالم .

وإذا كان الحلف قائماً على العدل والانصاف للمظلوم ، فإن الاسلام يزيده كحلف الفضول الذي عقد في دار عبدالله بن جدعان الذي كان المتحالفون فيه يقولون لناخذن على يدي الظالم ما رسائير (جبل بمكة) وما بل بحر صوفة ، ولقد حضره النبي ﷺ ، وقال بعد بعثه عليه السلام : لقد حضرت حلفاً بدار عبدالله بن جدعان ما يسرني به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الاسلام لأجبت .

ومهما يكن من أمر حلف الجاهلية فالولاء على المعونة والنصرة ، ودفع الدية والمعاونة فيها إن وجبت لا ينطبق عليه معنى الحلف الذي يكون فيه التناصر في الباطل ، وإن كان فيه حلف فهو في المعاونة على أداء الحقوق والواجبات وإيناس المسلم حديث العهد بالاسلام بالأخوة الاسلامية .

وإذا كان فيه معنى فهو أنه من نوع المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وهو في مؤداه تقوية للوحدة الاسلامية ، ومحاربة للعصية الجاهلية .

والاعتراض الثاني ليس على أصل الولاء ، إنما هو على التورث به ، وذلك لأن الله تعالى يقول : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) .

وإن هذا وإن كان فيه الخلاف الفقهي بين أبي حنيفة وبعض من الفقهاء لا مانع من أن نقول فيه كلمة موجزة : « إن الذين يشيرون هذا الاعتراض في الميراث بمولى الموالاة يدعون النسخ في قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم ، فآتوهم نصيبهم ، إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ ، ونحن أولاً لا نرى في القرآن منسوخاً على ما قررنا في كتاب أصول الفقه .

وثانياً : أنه لا تعارض بين الآيتين ، فآية ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ وآية الميراث بالموالة بالعقد ، لأن الميراث بولاء الموالة حيث لا تكون قرابة مستحقة لميراث قط .

وقد يقول قائل : « (إن آية وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) نسخت الميراث بالمؤاخاة أيضاً ونحن نقول إن الميراث بالمؤاخاة لم يثبت بنص قرآني ، وإن كان النص القرآني يشمله بعمومه باعتبار أن المؤاخاة عقد ، فإن الميراث بها لا ينسخ إذا كان على أساس أنه لا يكون إلا حيث لا تكون قرابة قط . بيد أن عقد المؤاخاة لا يثبت الميراث على أساس العقد إلا إذا كان فيه النص على أنه يعقل عنه إذا جنى ويرثه إذا كان من غير قريب .

٥٦ - هذا هو عقد الموالة الذي شرعه القرآن الكريم ، وبينته سنة محمد ﷺ وهو عنصر من عناصر تكوين الوحدة الإسلامية التي كونها محمد ﷺ في حياته ، وأوصى باستمرارها بعد وفاته ، ونهى عن قطعها ، وعد من يقطعها كأنما يبيت مبادئ الكفر في الأمة الإسلامية ، ولذا قال عليه السلام : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض . »

ولقد انتشر عقد الموالة في صدر الإسلام في عهد الراشدين ومن جاء بعدهم حتى سمي المسلمون غير العرب بالموالي لأنهم كانوا يعقدون ذلك العقد المؤلف بين المسلمين الذي اقتضته الوحدة واقتضاه أنس المسلم الأعجمي بأخيه المسلم العربي ، وتلاقيهما على مائدة الرحمة الإسلامية ، والأخوة العامة .

وإن كثيراً من كبار رجال الإسلام كانوا موالي بهذا المعنى ، فأبو حنيفة كان مولى لبني تميم ، ولذا كان يقال أبو حنيفة التيمي .

الوحدة الإسلامية في عهد الراشدين

٥٧ - ربما نكون قد بسطنا القول في عصر النبوة ، بما قد يخرجنا عن نطاق بحث موجز ، إلى أن يكون كلاماً في كتاب مبسوط ، ولكن الذي دفعنا إلى ذلك أن عصر النبوة المحمدية هو عصر تكوين الوحدة الإسلامية ، وقيام دعائمها ، ولا يمكن أن يعرف التفرق إلا إذا عرفنا قواعد البناء ، وما أتى القواعد من هذا البنيان ، حتى تصدع ، ولأننا إذا عرفنا التصدع، ووازنا بين أصل البناء وهو قائم ، وحاله بعد التصدع - يمكننا معرفة الصدع، فنراه ومكان السقوط ، فنرفعه .

نعلم بهذا كيف تفرق المسلمون مخالفين أوامر النبي ، وكيف يمكن إعادة الوحدة ، وأن نعلم أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وحدة يحى فيها كل اسباب التفرق الاقليمي الا ما تقتضيه الطبيعة المكانية ، من اجل هذا ، ولكي تكون المعالم واضحة بسطنا القول في تكوين الوحدة .

وعهد الراشدين أبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي كان ينبغي أن يكون امتداداً لعصر النبوة في الوحدة ، لأن هؤلاء أخلص المؤمنين للإسلام ، وأقربهم إلى النبي ﷺ في دعوته ، وأهداهم رشداً .

ولكن كانت أحداث لم تكن من قبلهم جعلت عصر الراشدين الكرام الذين انتقل رسول الله تعالى إلى ربه وهو عنهم راض ، وهم من المبشرين بالجنة - جعلت

هذه الأحداث الأمور تتغير في عهد بعضهم على غير ارادة منهم ، ولكن بتغير الناس ، وقد أمكن في بعض الأحوال حل الناس على الجادة ، وفي بعضها اتسع الخرق على الراقع بسبب دسائس من غير المؤمنين وسيطرة بعض المنافقين ولم يكن المعصوم عليه السلام الذي عالج النفاق بالحكمة ، مع اليقظة المترصدة المتنبهة - حيا .

الاختلاف والردة :

٥٨ - ما ان انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى انبعثت العصية من مراقدها ، ورفعت رأسها كما تفتأ رؤس الشياطين .

ابتدأت عند اختيار خليفة للمسلمين ، فقد كان اجتماع في سقيفة بني ساعدة ، وقف فيه سعد بن عبادة الذي نادى وهو يحمل لواء الأنصار : اليوم يوم الملحة يوم تذلل فيه قريش ، وقف يقول : منّا معشر الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ، وقد قضى على هذا الخلاف كلام أبي بكر وحكمته ، ومسارعة عمر رضي الله عنه إلى بيعة أبي بكر ، وتتابع أهل السقيفة في البيعة أنصاراً ومهاجرين .

وامتنع عن البيعة سعد بن عبادة ، فلم يبايع أبا بكر ، كما لم يبايع عمر . وانتهت هذه الزوبعة ، أطفالها الله تعالى ، إذ لم تجد حطبا يؤجج النيران لإخلاص الأنصار الذين نصرّوا ابتداء ، وسدوا باب الفرقة والانقسام انتهاء . ولكن ما إن انطفأت تلك الزوبعة الخفيفة ، وذهبت غياهبها بنور الاخلاص وقوته حتى انبعثت العصية في حدة وغف بلغا أشدهما .

وذلك في الردة : لقد كانت الردة انبعاثا للعصية ، وكانت البثق الكبير الذي انبثق من قبائل الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ﴾ .

فقد امتنعت عن طاعة المدينة والخضوع لسلطانها القبائل العربية إلا قريشاً وثقيفاً .

ارتدت أعداد كثيرة من أسد وغطفان وطبيء ، وناس من تميم واليامة وارقد أهل البحرين وعمان وكنده ، وحضرموت واليمن .

وهكذا خرجت جموع مرتدة من كل القبائل ، وكان خروجها لأمرين : أولهما : أن الإسلام لم يكن قد استمكن من قلوبهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا أَنْ تَمُوتُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

وثانيهما : العصبية الجاهلية التي كانت تحقد على مضر وقريش ، حتى لقد قال قائل منهم : « كاذب ربيعة خير من صادق مضر » ، فالعصبية التي حاربها محمد ﷺ ، واعتبر الدعاية بها دعاية منتنة خبيثة ، ارتفعت رأسها فاثثة تنادي بالفرقة والانقسام ، وأن يعود العرب كما كانوا قبل أن ينقذهم الله تعالى من حفرتها .

ولولا عزيمة أبي بكر ، وحكمته لعاد العرب كما كانوا ، ولكن عزيمة أبي بكر الضعيف في بدنه القوي في إيمانه قد قضت عليها ، وجيش لهم الجيوش من قريش والأنصار ، وحاربوا عن إيمانهم .

فلما عضت الحرب أهل العصبية الجاهلية قالوا نرضى بالصلاة ، ولا نعطي الزكاة ، فرأى بعض المؤمنين أن يقبل منهم ذلك ، حتى يستمكن خليفة رسول الله ﷺ ، وكان فيهم عمر .

ولكن الصديق ، وقد اعتزم ، لم يرض بنصف الحل ، وقال : إما سلم مخزية ، وإما حرب مجلية والتفت إلى عمر رضي الله عنه ، وأخذ بلحيته وقال له شكلك أملك يابن الخطاب جبار في الجاهلية خوار في الإسلام ، وقال الصديق في قوة إيمان ، والله لو منعوني عقالا أعطوه لرسول الله لقاتلتهم عليه ،

ويقول رضي الله عنه : « والله لو أفردت من جمعكم لقاتلتهم حتى أثال مأرباً
أو أهلك مهلكاً . »

انتصر الايمان على الردة بتوفيق الله تعالى ثم عزيمة أبي بكر ، وجهاد
أهل الإيمان .

وكان من حكمة الصديق أن جند العرب لحرب فارس والروم .

وتحقق قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ،
فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ،
يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
والله واسع عليم ﴾ .

عهد الشيخين :

٥٩ - بعد أن انتهت الردة ، وعصبيتها ، استقام أمر المسلمين على وحدة
جامعة شاملة ، قام على حراستها صديق الأمة خليفة رسول الله ﷺ ، ثم قام بعده
الفاروق رضي الله تبارك وتعالى عنه الذي لا يسير الشيطان في فج يسير فيه
عمر ، كما قال النبي ﷺ ، والذي قال فيه الرسول أيضاً انه لم يَفْترِ فرية في
الإسلام .

خمدت العصبية الجاهلية المفرقة ، وأطفأ نيرانها الايمان ، والفتوح الإسلامية
وقد وضعت العقوبات الرادعة الزاجرة لمن ينادي بها .

وكان عمر رضي الله تعالى عنه يأمر قضاة وولاته أن يعاقبوا من ينادي
بالعصبية الجاهلية ، حسباً لمادة الفساد ، ولقد روي أن أبا موسى الأشعري
عاقب النابغة الجعدي بجلده خمسين جلدة لأنه اشتد بعصبيته ، ونادى بالعامر .

والفقهاء من بعد ذلك في عصر الاجتهاد الفقهي بناء على الهدي الحمدي
وعلى سنة الصحابة من بعده قدروا عقوبة زاجرة لمن ينادي بانداء الجاهلية .

فمنهم من جعلها خمسين جلدة اقتداء بالصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ومنهم من جعلها عشر جلدات ، لما روي من أن النبي ﷺ نهى عن جلد أحد فوق عشر جلدات إلا في حد .

ومنهم من قال إن ذلك يترك لتقدير القاضي ، أو الوالي إذ أن العقوبة عقوبة تعزيرية ، والتعزير يفوض إلى القاضي أو ما يراه ولي الأمر رادعاً وبذلك تعاون الولاة مع الامام أبي بكر وعمر على مقاومة العصبية التي تفرق الجمع الاسلامي وتقطع الوحدة الاسلامية .

اتساع الحكم الاسلامي :

٦٠ - في عهد أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ خرجت الجيوش الاسلامية لتزيل حكم الملوك الذي كان يحول بين الشعوب ، والاستماع إلى الدعوة الإسلامية التي تتضمن التوحيد ، وأعلى المبادئ الاجتماعية من الحرية والمساواة وأن يكون أمر الناس شورى بينهم ، وإقامة العدل ، ومنع الظلم والفساد ، وما كان حكام ذلك الزمان ليسمحوا بأن تتسلل تلك المبادئ إلى شعوبهم ، وإلا لم يكن للحكم أساس يقوم عليه .

وفوق ذلك فإن أولئك الحكام ردوا دعوة النبي ، ردأ غير كريم ، واعتدوا على من أسلم في الشام ، كما أشرنا من قبل ، وقد انسابت الجيوش الإسلامية في أراضي هؤلاء الملوك ، وخضعت الشعوب المفتوحة أرضها لحكم الإسلام ، وأظلم عدله .

وقد انقسموا إلى قسمين : قسم أسلم ، ودخل في جماعة المسلمين ، وصاروا بهذا تجمعهم راية الإسلام ، ويخضعون للقرآن ، وينفذ حكمه ، وحكم الدولة الإسلامية .

وقسم لم يسلم ، ولكن دخل في عهد المسلمين ، ومن هؤلاء من ارتضى أن

يكون في ظل الحكم الإسلامي له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وهو حر في الجزء الذي يتعلق بالعقيدة الدينية ، لا يمنع من إقامة شعائره الدينية، ويكون في أحكام الأسرة خاضعاً لدينه الذي ارتضاه ، لا يكره على الدين ، ولا يضطهد في اعتقاده ، والقاعدة الفقهية التي أثرت عن الصحابة والتابعين ، وعدها الفقهاء قاعدة تتبع وتنفذ هي « أمرنا بتركهم وما يدينون » ويسمى هؤلاء الذميين ، إذ أن لهم ذمة رسول الله ﷺ ، وأي مسلم له أن يعقد ذمة مع غير مسلم ، والامام يقره ، وذلك لقوله ﷺ « المسلمون تكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

وهؤلاء تؤخذ منهم جزية لقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ، وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي طائعون غير متمردين ولا مستكبرين ، وليس المعنى أذلاء ، فدين الله ، وهو دين العزة لا يذل أحداً ، إذ أن العزيز من الناس هو الذي يقدر العزة في غيره ، كما يقدرها لنفسه ، ودين الحق والعدل لا يذل أحداً ، لأن قانون العدل ونظامه يمنع الاذلال .

وهذه الجزية كانت ليستترك غير المسلم الذي يستظل بظل الدولة الإسلامية في بناء الدولة والاتفاق على مرافقها ، وهي في مقابل ما يؤخذ من المسلم من زكوات جارية منظمة يجمعها ولي الأمر ، كما كان يجمعها النبي ﷺ عن طريق ولاية الصدقات الذين يرسلهم ، ومنها الصدقات المطلوبة والنذور والكفارات والفدية وغير ذلك .

وان الجزية تؤخذ منها النفقات على فقراء أهل الذمة ، فقد كان يفرض لهم من بيت المال ما يسد حاجتهم .

روى أبو يوسف في كتابه الخراج ، أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً شيخاً يتكفف الناس فسأله من أنت يا شيخ ، قال رجل من أهل الذمة ، فقال الفاروق العادل الرحيم : « ما انصفناك أكلنا شيبتك وتركناك في شيخوختك » ، وأجرى

له رزقاً من بيت المال ، وقال لخازن بيت المال ابحث عن ضرباء هذا ، وأجر لهم رزقاً من بيت المال ، ولا شك أن ذلك الذي يجري عليه يمكن أن يكون من الجزية ، ولكن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه جعل ما يجري على هذا الرجل وأشباهه من الزكاة ، وقال إنه داخل في المساكين إذ يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فأدخله في المساكين ، بل إنه رضي الله عنه فسر المساكين بزمنى أهل الكتاب .

والقسم الثاني من المعاهدين هم الأمراء أو الحكام الذين لم يقاتلوا المؤمنين عندما يخبرهم القائد بين الإسلام أو العهد أو الحرب ، فيختارون العهد ، على أن يبقوا على ما هم عليه من حكم وسلطان ودين ، على مال يقدمونه في نظير أن يقوم الجيش الإسلامي بالدفاع عنهم والذود عن أرضهم .

وقد قرر الفقهاء مقتبسين من هدى النبي ﷺ أنه لا يجوز من الشروط ما يكون فيه تمكين للأمراء والحكام من حكم الرعية بالظلم ، فإن شرط ذلك يكون باطلاً ، لقوله ﷺ : « المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حلالاً ، أو حرم حراماً » ، والظلم حرام لذاته حرمة لا يبيحها نظام أو قانون .

بل إنه إذا علم أن أميراً ممن له عهد يظلم رعيته ، ويسعى بالفساد فيها يرد عليه عهده ، لأن ذلك يكون خيانة للعهد ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ .

الدولة الإسلامية بعد الفتوح :

٦١ - كانت الدولة في عهد النبي ﷺ مقصورة على العرب وإن آذن عليه الصلاة والسلام بأن الفتوح ستفتح ، فأذن بأن الله سيفتح على المسلمين العراق وفارس والشام ومصر وما وراءها ، وروى عمرو بن العاص أن

النبي ﷺ قال : « سيفتح الله تعالى عليكم مصر فإذا فتحتموها ، فأعدوا فيها جنداً كثيفاً ، فهو خير أجناد الله تعالى في الأرض ، فقال أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه : ولم يا رسول الله ؟ قال : لأنهم ونساءهم في رباط دائم . وبعد أن فتحت هذه الأقاليم صارت الدولة الإسلامية ليست مقصورة على بلاد العرب وحدها بل شملت في عهد الإمام عمر رضى الله عنه تلك الأقاليم كلها ، وكانت الإمامة الكبرى التي تتمثل في الخلافة بالمدينة ، حيث أمير المؤمنين بها ، يبين تعاليم الإسلام ، ويبلغ أوامره ونواهيهِ إلى كل إقليم ، ويلاحظ هنا أمور :

الأولى : أن الشريعة الإسلامية شريعة القرآن والسنة الحمديدية ، هي التي كانت تحكم بها تلك الأقاليم مهما تباعدت رقعتهَا عن المدينة ، وكانت عين الفاروق الساهرة الفاحصة تترصد لتنفيذ تلك الأحكام في غير هواده ، وليس لغير الحق عنده إرادة ، ولكن في رحمة بالرعية ، وعطف على الضعفاء .

٦٢ - وفي الحقيقة انه مع شمول الحكم لكل الأقاليم التي كانت في ظل الدولة الإسلامية لم يفقد كل إقليم ذاتيته مع سلطان الإمام العادل عليه ، ونفوذ الأحكام الإسلامية فيه .

لقد كان الإمام عمر الذي اختبره الله باتساع سلطان الدولة الإسلامية يكتفي من فرض سلطانه بتنفيذ الأحكام الشرعية وهو عليه الرقيب الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تتبعها ، ليعرف مقدار تنفيذ أحكام الشريعة في العدل والمساواة والاخاء بين المسلمين ، وقرب الحاكم من المحكوم ،

ويترك للوالي الذي ينفذه ما يراه مصلحة في بلده ، بحيث لا يخرج عن المبادئ الإسلامية المقررة وبحيث يمكن أن يكون موافقاً للنظم الاجتماعية في بلده التي لا تخالف الإسلام ولا تجافيه ، ولا تتنافى مع المقاصد المقررة في الشريعة الإسلامية .

وكان يحمل في كل إقليم ثلاث ولايات ، قد تجتمع اثنتان منها في شخص

واحد ، ولكن واحدة يجب أن تكون منفردة ، الولاية الاولى ولاية القتال والجهاد في سبيل الدعوة الإسلامية من غير رهق ، ولا اعنات للناس ، ولا اكراه في دين الله تعالى .

والثانية : ولاية الخراج والجزية ، وقد تكون تابعة لوالي الجهاد الذي يعد أمير البلاد ، وله فيها الولاية العامة ، وقد اتبع عمرو بن العاص في جمع الخراج نظاماً يكاد يكون تعاونياً جماعياً .

فقد كانت عدة قرى تتجمع وتجمع خراجها ، وتتولى كل قرية نظام الزراعة فيها فتوزع الأراضي الزراعية على القادرين عليها ومن يعجز أو يموت يتكفل القادرون زراعة أرضه له أو لورثته .

ويوزع خير الأرض بعد سداد الخراج ، وحجز مقدار للفقراء على المزارعين بنسبة ما تحت أيديهم .

وكان أمير المؤمنين يتعرف أخبار الذين يتولون الخراج ، حتى لا يرهقوا الأرض بأكثر مما تحتمل ويرهقوا الناس بأكثر مما ينتجون .

وإذا تكاثر جمع المسلمين في بلد كان والي الصدقات يجمع الزكوات ، وينفقها في مصارف ، وعين عمر تراقبه ، والغنائم والفبيء تعود إلى بيت المال .

والولاية الثالثة ولاية القضاء ، وهذه كان يتولاها قاض من قبل الامام الأعظم ، وهو الذي يشرف على من دونه ، وكان الإمام يعطي القضاء عناية خاصة ، لأنه الميزان والقسطاس الذي يوزع العدالة بين الناس ، وجعل القاضي مستقلاً يستمد السلطان من الشرع فقط ، ويستمد الفصل بين الناس من الامام الأعظم ، لكيلا يتحكم والي الجهاد أو والي العام في النصفة بين الناس .

ولذلك نقول انه مع سيادة الدولة الاسلامية على كل الاقاليم التي سيطر عليها الإسلام سواء أدخلوا في الإسلام أم بقوا على دينهم مع أنهم يعيشون في ظل الدولة الإسلامية ، لم تمح الأقاليم .

بل كان في كل اقليم حكومته ، وان كانت تابعة للدولة الكبرى ، وتوحيدها الدولة الكبرى ، ولذلك نقول : إن لكل اقليم حكومته ، ولكن القائمين عليها يستمدون الولاية من الامام الأعظم صاحب الولاية الكبرى التي وحدت الدولة .

وكانت الحكومات كلها لها قانون واحد هو القرآن والسنة ، والأمير الأعظم هو المقيم بالمدينة ومنه يستمد كل الولاية ولا يتهم ، ويصدرون عنه فيما لم يترك لهم ، وهو يتتبع أعمالهم .

سيطرة عمر على الولاية :

٦٣ - كان عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه الإمام ، وعصره هو العصر الذي استبان فيه سلطان الكتاب والسنة وتطبيقها تطبيقاً سليماً على مقتضى العصر ، وحكومته هي الحكومة الإسلامية التي تعدها حكومة الرسول وخليفته المثال الذي يتبع ، وكان فيها جمع للمسلمين ، على الخير والعدل .

وكان يراقب عماله بالاستماع إلى الشكوى منهم ، وما شكى من عامل وأهل الشكوى ، بل إنه في بعض الأحيان كان يثبت له كذب الشكوى ولكنه يخشى من تحامل الوالي العادل البريء على من شكاه لأن الافتراء يحدث شيئاً في نفس من افتري عليه كما فعل مع الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة سعد بن أبي وقاص فإنه كانت ثمة شكوى منه ، وأحضره وبين له كذب الشكوى وترضاه عمر ولكنه عزله مع ذلك ، خشية أن يكون ألمه ممن شكوه دافعاً لما لا يريد .

وكان رضي الله عنه يصرح بأنه يؤثر أن يعزل كل يوم والياً عن أن يبقى والياً يظن منه الظلم أو يشتبه في ظلمه . وكان يسأل في موسم الحج وفود الأقاليم عن حال الولاية ويتعرف معاملتهم لرعيته فإن تبين له أن الوالي يحتجب عن الناس عزله ، وإن تبين له أنه يسكن بعيداً عن الناس نهاه .

وأول من يسأل عن حاله معهم حاله مع أهل الذمة (الذميين) أينصفهم أم لا وذلك لأن هؤلاء مظنة أن يظلموا فإن تبين له أنه يحسن معاملتهم ، ويحفظ لهم حريتهم في تدينهم أبقاه .

ولقد كان يجتمع بولاته ، ويحثهم على العدل ، وألا يرهقوا الرعية ، ومن ذلك قوله لهم في إحدى مرات الحج .

إني أرسلتكم لتعلموا الناس دينهم ، وما أرسلتكم لتضربوا إبادهم . والله لا أوتى بوال ضرب من غير حد لأقصن منه .

فقال عمرو بن العاص ، أتقتص منه ولو ضرب تأديباً ، فقال الفاروق مكرراً ، والله لأقصنه منه ، ولقد حدث أن عمرو بن العاص قال لبعض الناس يامناق أمام ملأ من الناس في المسجد .

فشد الرجل رحاله وذهب إلى امير المؤمنين الفاروق في المدينة وقال :

يا امير المؤمنين ، ان الأمير نفقي ، وما نافقت منذ أسلمت .

فكتب عمر رضي الله تعالى عنه كتاباً ، وأعطاه الشاكي ، وفي هذا الكتاب :

« من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاص .

إن فلانا (صاحب الشكوى) يقول إنك نفقت ، وما نافق منذ أسلم ، فإن كان ما يقول صدقاً ، فكنه من أن يضربك عشرة أسواط .

فجاء الرجل أمام الملأ ، وقال من منكم سمع الأمير نفقي ، قالوا كلنا سمع فأعطى الرجل الكتاب عمرأ .

فقال الملأ أوتضرب الأمير ، فصاح الرجل ليس لأمير المؤمنين هنا أمر ، فأعطاه عمر السوط ، وطلب إليه أن يضربه ، فقال العربي الأبي الآن عفوت .

٦٤ - لا يجب أن نطيل في أخبار عمر رضي الله عنه ، وإنما لنور ، ولكن يجب أن نقرر أن عهد عمر رضي الله عنه هو الذي كان فيه دخول الامصار

من غير العرب ، وهو الذي جمع بأمر الله ونهيه العربي والأعجمي في ظل العدل الإسلامي ، وهو الذي ابتدأ بتنظيم العلاقة بين دار الخلافة الجامعة والأمصار المتفرقة ، بحيث يتحد الحكم ، ويبقى لكل مصر طبيعته التي لا تخالف المقررات الإسلامية ، بل تسايرها ولا تجافها .

ونشير هنا إلى أن الذي جمع هو العدالة الظاهرة مع الرعايا جميعاً ، لا يقرب في الحكم قريباً ولا يحافي بعيداً ، ولقد كان إذا نهى عن أمر أو أمر أمراً ، أحضر آل الخطاب ، وقال : لقد عزمت على المؤمنين أمراً ، والله لا أوتى بخالف إلا ضاعفت له العقاب .

وإن العدالة الظاهرة المنبثقة في كل الأقاليم هي التي منعت العصبية المفرقة من أن تظهر .

ولندكر له خطبة وبعض كتبه يكشفان عن منهاجه القويم في جمع المال وتوزيعه ، ومعاملته للرعية ، ومحاربته للعصبية .

الخطبة :

جاء في كتاب الخراج للإمام أبي يوسف عن طلحة بن سعدان ما نصه :
« خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي ﷺ ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال :

أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، وينع من الباطل ، وإنما أنا ومالك ، كولي اليتيم ، ان استغثت استعفت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف ...

ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويعتدي عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للعق ولكم علي أيها الناس خصال

أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم عليّ ألا أجبي شيئاً من خراجكم ، ولا بما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم عليّ ألا ألقىكم في المهالك ، ولا أجركم ^(١) في ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان ، كثير القراء ، قليل الفقهاء ، يعمل به أقبام للآخرة ، وآخرون يطلبون دنيا عريضة تأكل دين صاحبها ، كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك منكم فليتنق الله ربه وليصبر .

يا أيها الناس ، إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال تعالى فيما عظم به من حقه ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بمشكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فادوا إلى المسلمين حقوقهم ولا تعذبوهم فتذلّوهم ، ولا تجمروهم فتفتنّوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فبأكل قوتهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم ، وقاتلوا بهم الكفار طاعتهم ، فإذا رأيتم بهم كلالاً ، فكفوا عن ذلك فإنه أبلغ في جهاد عدوكم .

أيها الناس ، إني أشهدكم على أمراء الأمصار ، إني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأثم ، ويحكموا بينهم بالعدل ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ .

هذه خطبة جامعة مبيّنة لمنهاج عمر في المال بأبلغ قول وأوجزه ، ومنهاجه مع أمراء الأمصار ، ومنهاجه في بث روح العزة ، ومنع الذلة بأي صورة من صورها .

وهكذا كان يربي الأمراء ، ويربي الشعوب ، وبذلك اجتمعنا في عهده

(١) التجبير البقاء مدة طويلة في الجيش لا يعود الى أهله .

على وحدة إسلامية لا فرقة فيها امتداداً للوحدة الإسلامية التي كونها محمد ،
واتباعاً لأوامره .

بعض كتبه :

٦٥ - وان كتب الفاروق إلى عماله تكشف عن سياسته وإقامته للعدل ،
ومحاربته للعصية ، ولتتخذ منها ثلاثة كاشفة عما وراءها مما لم نذكر .

١ - كتاب له إلى أبي موسى الأشعري في أعماله في الولاية ، وهو غير كتابه
في القضاء .

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ
بالله أن تدركني وإياك عمية مجهولة وضغائن محمولة ، ودنيا مؤثرة فأقم الحدود
ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله ، والآخر للدنيا
فأثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تنفذ
والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل وأخف الفساد .. وإذا كانت
بين القبائل ثائرة ^(١) وتداعوا : يا آل فلان ، فانما تلك : نجوى الشيطان ،
فاضربهم بالسيف حتى يفيثوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله ، وإلى
الإمام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بالضبة وإني والله ما أعلم
أن ضبة ما ساق الله بها خيراً قط ، ولا منع بها من سوء قط ، فإذا جاءك
كتابي هذا ، فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا ^(٢) إن لم يفقهوا ، وعد مرضى
المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح بابك ، وباشر أمرهم بنفسك ، فانما أنت
امرؤ منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا
لك ولأهل بيتك هيئة لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ليس للمسلمين مثلها ،
فاياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب ، فلم يكن

(١) الثائرة : العداوة

(٢) يفرقوا بفتح الراء من غير تشديد معناها يخافوا من العرب .

لها همة إلا السمن ، وانما حتفها في السمن ، واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته وإن أشقى الناس من شقيته به رعيته والسلام .

٢ - وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فلإني لم آ لك في كتابي اليك ونفسي إلا خيراً ، إياك والاحتجاب وأذن للضعيف وأذن له ، حتى تبسط لسانه ، وتجري قلبه ، وتبعد الغريب ، فانه إذا ضاق حبسه ، وضاق اذنه ترك حقه ، وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه ، واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستب لك القضاء ، وإذا حضرك الحصان بالبيئة العادلة والايان القاطعة فاحكم .

٣ - عهده لأهل اللد :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لـد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أملاً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا أموالهم ولا يكرهون على دين غير دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لـد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية ، كما يعطي أهل مدائن الشام ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط .

ومن هذه الكتب يتبين ثلاثة أمور :

أولها : كيف كان تشدده في محاربة العصبية لأنها هي التي تفرق الجمع ، وتمزق الوحدة ، وكيف قرر العقوبات لمن ينادي بها من غير أن تأخذ الوالي هوادة فيهم ، حتى يخافوا ويفزعوا ، ولا يعودوا إليها .

ثانياً : تشدده في اقامة العدل ، وفي سبيل ذلك حث الوالي على ألا يحتجب عن الرعية ، حتى لا ييأس الضعيف من عدله ، ولا يجبس الغريب الذي يشكوى فلا يأذن له ، فيجب أن يسارع إلى سماع شكواه .

ثالثها : عنايته بأهل ذمة رسول الله ﷺ ، وحماية تدينهم ، وحماية
كنائسهم وهو بذلك سن القاعدة المقررة : أمرنا بتركهم وما يدينون .

عناية عمر بالقضاء :

٦٦ - كان يعنى بالولاة ومراقبة حكمهم ، وصلاتهم بالرعايا، ولا يضمن
بالنصيحة ، ومعها بعض الانذار ، كما لا يضمن بالعزل ، إن وجدت مقتضياته ،
وكان يكتفي في العزل بالشبهات كما ذكرنا .

كذلك كان يعنى بالقضاء ، فكان لا يختار إلا ذا دين وعقل ، وقوة
فراصة ، وإدراك للنفوس ، وكان لا يضمن على القضاة بالارشاد إلى أمثل
الطرق للقضاء .

وقد حفظ التاريخ كتباً له في القضاء تعد دستور القضاء .

ولنذكر لك خبرين من عنايته بالقضاء :

أولهما : عن الشعبي قال : أخذ عمر فرساً من رجل على سوم (أي على
سوم الشراء) فحمل عليه ، فعطب الفرس ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر :
اجعل بيني وبينك رجلاً ، فقال الرجل اني أرضى بشريح ، فقال
شريح : أخذته صحيحاً سليماً فانت له ضامن ، حتى ترده صحيحاً سليماً . فأعجب
الحكم عمر رضي الله عنه ، فعيّنه قاضياً .

وقال له مينا ما يقضي به :

ما استبان لك من كتاب ، فلا تسأل عنه ، فإن لم يستب في كتاب الله
فمن السنة ، فإن لم تجده في السنة ، فاجتهد رأيك .

هذا ما أمر به شريحاً ، وهو بهذا يشير إلى المصادر التي يقضي بها القاضي ،
الكتاب فالسنة ، فان لم يجد فيها كان الرأي المبني عليها ، وهناك كتاب كان
في القضاء بين فيه المصادر ، والاجراء الذي يتبعه في مجلس القضاء .

وهذا نص ذلك الكتاب

قال بعد حمد الله والصلاة على رسوله .

أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي اليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له - آس بين الناس في مجلسك ، وفي وجهك ، وفي قضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراماً أو حرم حلالاً ومن ادعى حقاً غائباً أو بينه ، فاضرب له أمدا ينتهي اليه فإن بينه أعطيته حقه ، وإن أعجزه ذلك ، استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعالم ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن يراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور ، أو مجلوداً في حد ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإن الله تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود ، إلا بالبينات والایمان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلي اليك مما ورد عليك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيها إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة ، فإن القضاء في موطن الحق مما يوجب الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين بما ليس في نفسه شانه الله ، لأن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام عليك ورحمة الله.

هذه توجيهات عمر بن الخطاب إلى القضاة ونراها إرشادية توجيهية ، وليس فيها تهديد بمقاب ذلك لأنه يختار القضاة من ذوي العلم والدين ، فحاجتهم إلى العناية والعمل بالعدل .

أما الولاة فقد كان يختارهم على القدرة والادارة ، وكان يخشى على الإدارة

من الضعيف ذي الدين والقوي الذي لا دين ، ويختار ما بين ذلك قواما ، فكانت القدرة الادارية عنصراً من عناصر الاختيار ، وكان الدين هو العنصر الآخر ، ولأن الادارة هي المحتكة بالرعية بريثها وسقيمها ، وهي التي تتنازع فيها الأهواء وتضطرع فيها المآرب . ولذلك فصل القضاء عنها . ولذلك كان شديد الرقابة عليها ، كثير العزل للولاة قليل العزل للقضاة .

دولة واحدة وأقاليم متعددة :

كانت الدولة واحدة مع تعدد الأقاليم ، ولا نستطيع أن نقول إن الحكومة كانت واحدة كما أشرنا ، فلكل اقليم حكومته التي تنفذ أحكام القرآن والسنة وما يكون مصلحة متفقة مع عادات ذلك الاقليم ، من غير المتجانفة لاثم بالخالفه لأحكام الاسلام ، وعين الأمير الأعظم ساهرة متبعية ، بحيث لا تخفى عليه من أمر الرعية خافية ولا يخفى عليه من أمر الولاة أمر ، بل الجميع يشعرون بأن وراءهم بعمد الله محاسباً لا يغفر الهنات بل يعزل عند الشبهة .

وبهذا التنسيق العمري كانت للأقاليم شخصيتها غير الخارجة على الاسلام ، والدولة هي المنظمة لعلاقات الجميع في معاملات الوالي للرعية ، وفي علاقة كل اقليم بغيره .

وكانت الوحدة بادية في شؤون الحرب ، فالإمام الأعظم هو الذي يعين قواد الحروب ، وهو الذي يمد الجيش بالعتاد ، والعدد ، فليس لأي اقليم جيش منفصل عن سلطان الإمام الأعظم ، وهو في هذا الوقت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ومن بعده ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنها .

وكانت ولايته الكبرى بادية في العلاقات الخارجية ، فأمر المؤمنين هو الذي يتولى بشوراه العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، والمعاهدات التي تعقد بينه وبين المحالفين الذين يختارون العهد ، كما رأيناه في عهده لأهل - لد - وكما رأينا

في معاهدته لأهل ايليا التي كان فيها النص على ألا يدخل عليهم أحداً من اليهود .

وما كان يعقده الولاة ، إنما كان بالنيابة عنه وبتفويض منه .

وكانت الوحدة بادية في نظم الخراج والجزية ، فالنظام كان واحداً ، وأمير المؤمنين أو الامام الأعظم هو الذي يفرضه بحكم القرآن وعمل النبي ﷺ ، وما يراه مصلحة تتفق مع مقاصد الإسلام ، ولا تخرج عن غاياته وأهدافه .

وكذلك كان نظام الصدقات وجمعها ، فإنه ينفذ ، كما ورد في السنة ، وتحت إشراف الإمام الأعظم وكذلك الموارد المالية التي تفيض بها الأقاليم بعضها على بعض من غير أي محاجزات اقليمية .

وفي عام الرمادة عندما اشتدت الحاجة الى القوات أرسل إلى الأقاليم ذوات الغلات الزراعية ، يطلب المعونة منها ، فأرسل إلى عمرو بن العاص وإلى مصر ، يقول له : « الغوث ، الغوث » فرد عمرو يقول : سأرسل إليك عيرا يكون أولها عندك وآخرها عندي .

وقد فكر في حفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ليسهل وصول المدد إلى البلاد العربية وكانت الوحدة تتمثل في أمرين معنويين :

أحدهما وحدة اللغة ، فقد كانت اللغة العربية لغة الدولة ، وكانت رباطاً بين الأقاليم يربط بعضها ببعض ، وكان على كل مسلم أن يتعلم قدراً منها ، ويقول الإمام الشافعي انه من المفروض أن يتعلم كل مسلم قدراً من اللغة العربية يصحح دينه .

ثانيها - الثقافة الإسلامية ، فقد صرح أمير المؤمنين عمر بأنه أرسل الولاة ليعلموا المسلمين أمر دينهم ، كما نقلنا من خطبه ، وكتبه .

وننتهي من هذا إلى أن الوحدة يمكن أن تتحقق مع تعدد حكومات

الأقاليم بشرط أن تكون هناك دولة جامعة ، أو جماعة موحدة إن تعذر وجود الدولة الجامعة وقتاً ، وإن كان ذلك هو الدعامة المفضلة على غيرها من الدعائم .

وإنه يكتفى في تحقق الوحدة ، بوحدة اللغة والثقافة ، والجهاد والعلاقات الدولية والوحدة الاقتصادية ، وأن توال المحاجزات الجمركية بين الدول الإسلامية ، بحيث يكون الاكتفاء الذاتي في الأراضي الإسلامية ، وبحيث يكون التعاون على استغلال أراضي المسلمين وصناعاتهم بأقصى ما يمكن ، وبالبداية لا يرفع اقليم على آخر السلاح قط .

٦٨ - وقد يعترض الذين لا يفقهون وقائع الأحكام ، ولا غايتها ومرادها بأن عمر رضي الله تعالى عنه وضع نظاماً سمي في الفقه الإسلامي ، بأعمال العاشر ، وفهم بعض الفقهاء خطأ بأن ذلك من قبيل الجمارك على التصدير والاستيراد .

وذلك خطأ في الفهم ، وإنما سرى ذلك الى الكاتب من حب الرغبة في التقريب بين تفكير علماء المسلمين وما يجري في العصر الحاضر من كلمات ، فانحرفت به هذه الرغبة عن المعنى الأصلي لنظام العاشر .

وفقه الموضوع في نظام العاشر الذي وضعه الإمام العظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه انه عندما فتحت الأقاليم ، كان بعض الناس يخرج من اقليم اسلامي ، أو من مدينة الى أخرى ، وقد وجبت عليه زكوات ، وجزية ، فكان يخشى الفاروق ألا يكون قد أداها ، ففرض نظام العاشر احتياطاً للمحافظة على أموال الدولة ، فقرر رضي الله تبارك وتعالى عنه أن يأخذ العاشر من المسلم نصف عشر المال الذي يحمله من مدينته أو اقليمه إلى المدينة أو الاقليم الآخر ، وعلى الذممي العشر .

ولقد صرحت كتب الفقه بأن ذلك يؤخذ ما لم يثبت المار أنه قد سدد

الزكوات وما يجب عليه من مال الجزية ، ويذكر في ذلك الكاساني صاحب بدائع الصنائع في الفقه الحنفي أن المار إذا قدم ما يدل على أنه أدى ما عليه من فرائض مالية لا يأخذ منه العاشر شيئاً .

فنظام العاشر ليس في معنى قرض جارك ، ولا ما يشبه ذلك ، ومن قال ذلك ، فقد أخطأ .

عصر عثمان وما بعده :

٦٩ - كان ما سنه عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه هو المتبع في عهد ذي النورين عثمان رضي الله عنه وعهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ، والعهد الأموي ، وصدر الدولة العباسية كان على شاكلة نظام عمر في علاقة الدولة الإسلامية بالأقاليم الإسلامية وكانت الوحدة القوية بادية في الأمور التي ذكرناها .

وأما الفرق والرحمة بالرعية فقد كانت صفات المتقين منهم كعثمان وعلي ، وعمر بن عبدالعزيز ، ولكن النظام كان واحداً في جميعها .

وكانت السنوات الست الأولى من عهد سيدنا ذي النورين عثمان رضي الله عنه هي امتداد لعهد الفاروق رضي الله تعالى عنه .

وكان ذلك الامتداد لصلاح الراعي والرعية ، فما خرج سيدنا عثمان رضي الله عنه عن سنة الشيخين أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ ، وعمر الفاروق ، وخصوصاً أنه عندما أعطى على نفسه عهداً بأن يعمل بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله عليه السلام ، وسنة الشيخين أبي بكر وعمر . وما كان لمثل عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه أن ينكث في عهد أخذه على نفسه . والحد بست سنين كانت الأمور فيها تجري على سنة الشيخين أبي بكر وعمر ، حد تقريبي فقد تريد على ذلك وقد تكون في بعض الأقاليم أكثر من ذلك بكثير .

وإن التغيير الذي حدث بعد ذلك لم يكن من عمل الإمام الأعظم إنما كان من عمل قوم أثاروا الفتن وحاولوا أن يفسدوا أمر المؤمنين بشق الوحدة الإسلامية .

ولعل الشعبية الدفينة في النفوس قد عملت عملها، وإن لم تظهر بدعاية ؛ أو بمفاضلة بين الشعوب المحكومة بالإسلام وبين العرب ، على ما هو مدون في التاريخ الإسلامي من بعد ذلك في الحركات المسماة الشعبية .

وانه بلا شك تحركت العصبية الجاهلية ، كما سنبين، ونمت ، وفرقت المجتمع ، وقطعت الوحدة التي أقامها رسول الله ﷺ ، وقام على رعايتها الشيخان من بعده ووسع أمرها عمر الذي لم يفر فريه في الإسلام أحد ، كما روي عن رسول الله ﷺ . فقد ابتدأت الفتنة المفرقة بأن ذكروا عن عثمان رضي الله عنه أموراً خالف فيها رسول الله في زعمهم وحسبوا أنه قرب بالقرابة ، وأعطى الولاية من بني أمية من لا يستحقها، ولم يكن لهم في الإسلام سبق يبرر تقديمهم ، بل أخذوا عليه جمع القرآن ، وهو إحدى حسناته ، وزكاه علي بن أبي طالب وقال لو لم يفعل عثمان لفعلته ، وأخذوا عليه أنه حمى من المراعي لإبل الصدقة ، ولننقل لك ما رواه الطبري :

جاء جماعة من الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان ، فجمعهم رضي الله تبارك وتعالى عنه في المسجد وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال عثمان بعد كلام لهم :

« ان هؤلاء قد ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها عليّ عند من لا يعلم ، وقالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تم ، ألا واني قدمت بلداً فيه أهلي أو كذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا حميت حمى (أي منعت مرعى من رعي الناس) وإني والله ما حميت حمى قبلي ، والله ما حوا شيئاً لأحد ، ما حوا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها ، لكيلا يكون

بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ، ولا نحوا أحدا ، ومالي من
بعير غير راحلتين ، ومالي ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت ، وأنا أكثر العرب
بعيرا وشاة ، فمالي اليوم شاة ، ولا بعير غير بعيرين لحجي أكذلك ؟ قالوا
اللهم نعم .

قالوا كان القرآن كتبنا ، فتركناها إلا واحدة ألا وإن القرآن واحد جاء
من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع أكذلك ؟ قالوا نعم .

قالوا اني وليت الحكم (وهو الحكم بن العاص قريبه) ، وقد سيره رسول الله
ﷺ أكذلك قالوا: اللهم نعم ، وقالوا إني استعملت الأحداث : ولم استعمل
إلا مجتمعا محتلا مرضيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل أصل
بلدهم ، ولقد ولي من قبلي أحدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد
مما قيل لي في استعماله أسامة أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا
يفسرون وقالوا إني أعطيت ابن أبي السرح ما أفاء الله عليه ، وإنما نقلته
خمس ما أفاء الله عليه فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر
رضي الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فردوه عليهم ، وليس
ذاك لهم ، أكذلك ؟ قالوا نعم ، وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم ، فأما
حي فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم ،
فإني أعطيتهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من
الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالي أزمان
رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأنا يومئذ حريص شحيح ،
أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ،
قال الملحدون في ما قالوا ، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا ،
فيجوز ذلك ممن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم علي إلا الأخماس ، ولا
يحل لي منهم شيء ، فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني ، وما آكل إلا
من مالي :

٧٠ - هذا دفاع سيدنا ذي النورين عثمان رضي الله عنه أمام جمع من الصحابة شهدوا له بالصدق ولا شك أنه صادق من غير شهادة أحد ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن أوائل الناس إسلاما وهاجر الهجرتين مرة إلى الحبشة ، والأخرى المباركة إلى المدينة وجهاز جيش المسلمين في ساعة العسرة ، ووزع البر الذي استورده على أهل المدينة زمن النبي ﷺ ، لأنهم كانوا في شدة ورفض السّوم في العير .

ولكن بلا شك نلح في رده ، وما قد روى من اعتراضهم أنه ولّى ابن أبي السرح ، وكان قد كتب للوحي ، ثم ارتد ، وأخذ يضل الناس في دينهم ، فزعم أنه كان يغير فيما يلي عليه النبي ﷺ ، ولقد أباح عليه الصلاة والسلام دمه ، وأنه ان كان تاب ، وعفا عنه الرؤوف الرحيم فهو متهم في دينه ، فكيف يولى بعد عمرو بن العاص .

ولكن يظهر أن دعاة الفتنة لم يسكنوا ، بل استمروا يلجون في الشكوى ، حتى طم السيل ، فاجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، فكلّموا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ، فدخل على أمير المؤمنين ذي النورين عثمان ، رضي الله عنه ، وقال له :

الناس ورائي ، وقد كلموني فيك ، والله ما أدري ما أقول ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شيء لتخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغك ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ، ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بالحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله رحما ، ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا ، ولا سبقاك إلى شيء فالله الله في نفسك ، فانك والله لا تبصّر من عمي ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيّن ، وإن أعلام الدين لواضحة تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل هدي وهدي ، وأقام سنة معلومة ، وأمات

بدعة ، فوالله ، إن كُلاًّ لبين وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله من ضَلَّ وُضِلَّ به ، فأما سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر ، وليس معه نصير ، ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور فيها ، كما تدور الرحى ، ثم يرتطم في غمرة جهنم ، إني أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال يقتل في هذه الأمة إمام ، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعة ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يمجون فيها موجاً ويرجون فيها مرجاً .

فقال عثمان ، أما والله لو كنت مكاني ما عفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكراً إن وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي ، أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم ، قال فتعلم أن عمر ولاه ! قال نعم ، قال فلم تلومني أني وليت ابن عامر (أحد ولاته) وقرابته ؟

قال علي سأخبرك : إن عمر بن الخطاب ، كان كل من ولي فإنما يظأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقاربك ، قال عثمان : هم أقاربك أيضاً .

فقال علي : لعمرى إن رحمهم مني قريبة ، ولكن الفضل في غيرهم .

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولي معاوية خلافته كلها فقد وليته .

فقال علي : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من (يرفأ غلام عمر) منه .

قال عثمان نعم .

قال علي : فإن معاوية يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول

للناس : هذا أمر عثمان ثم يبلغك ولا تغير على معاوية ، ثم خرج علي من عنده . (١)

٧١ - لم ينم دعاة الفتنة ، بل إنهم ساوروا المدينة وكان المصريون منهم يلهجون باسم علي كرم الله وجهه في الآخرة على أنه الأولى بالخلافة منه ، وأحاطوا ببית عثمان :

فأرسل عثمان إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الآخرة يستدعيه ، وجاء في كتابه :

« لقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطيين ، »

فإن أك ما كولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق .

خرج إليه علي رضي الله عنه ليهدي الأمور ، فيصرف المصريين الذين كانوا يلهجون باسمه ، كما ذكرنا .

وتقدم إلى عثمان لإنقاذ الموقف ، فأشار عليه بأن يكلم الناس بكلام يسمعون ، يشهد الله على ما في قلبه من النزوع والانبأ فتكلم بكلام في هذا ، فرق الناس ، وارتفعت الأصوات ، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة ، وكادت القضب ترجع إلى أجفانها ، وتموت نوازع الشر في خلاياها .

ولكن مروان بن الحكم الأموي جاء إليه يقول له لائماً له أو عاتباً ،

بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقاتلك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ، فكنت أول من رضي بها ، واعان ، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطيين ، وحلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطبة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة تستغفر منها أجل من توبة تخوف عليها ، وإنك إن شئت تقربت

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٧ الطبعة القديمة .

بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة وقد اجتمع اليك على الباب مثل الجبال من الناس .

فقال عثمان : فاخرج اليهم فكلهم ، فإني لاستحيي أن أكلهم .

فخرج مروان إلى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا .

فقال : ما شأنكم كأنكم اجتمعتم لنهب ، شامت الوجوه ، كل إنسان أخذ بأذن صاحبه ، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا أما والله لئن رمتونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم ، والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا .^(١)

هذه مساجلات كلامية جرت بين اثنين من أكبر أصحاب رسول الله ﷺ ، أثرت أن ننقلها ، بدل أن نلخصها ، أو أن نعلق على الأحداث التي دفعت إلى تلك المساجلات وإن كان قد تدخل فيها بغير منطق الإسلام من لم يكن مكانة الصاحبين الجليلين الذين نالا صهر رسول الله ﷺ والمبشرين بالجنة .

ولا نبلغ مبلغ من يوجه لوماً لمثل عثمان في تقواه ، وعلي في جهاده ، ولكننا نقول في مروان انه كان يلهب الفتنة ، ويضع فيها الوقود الذي يلهبها ، ويذكىها في أسلوب جاهلي ، ويسمي الخلافة في عثمان ملكاً له ، والخلافة والملك يختلفان في سببها وفي السيطرة وفي ثمراتها .

الفتنة التي فرقّت القلوب ولم تمزق الوحدة :

وقعت الفتنة التي فرقّت القلوب وإن كانت الوحدة الإسلامية لم تمزق ،

لقد كانت بعد موت عثمان فئتان إحداهما عادلة ، والأخرى باغية ونازعت الباغية صاحب الحق ، واقتتل الطائفتان ، وقد قال تعالى :

(١) الطبري ج ٥ ص ١١٢ .

﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينها فإن بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التي تبغي حق تقيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينها بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ ، وإن خروج البغاة لا يعد نقضاً للوحدة ، لأن المعنى الأخوي لا يزال قائماً ، ولو كان النصر الديني للبغاة ، وإن كانوا في البغي الذي أعقب مقتل الإمام عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه ، لم ينتصروا ، بل كان الجمع بعد ذلك في عهد أحد سبطي رسول الله ﷺ ، وهو الحسن رضي الله عنه ، وكرم الله تعالى وجه أبيه في الجنة ، وصلى الله تعالى على جده وسلم :

ولو كان الحكم الذي انتهى إليه الأمر لم يكن قد انتهى إلى من هو خير المؤمنين ، ومن كان حكمه عدلاً ومن كان هو من أهل السبق في الإسلام لكان خيراً ، ولكن الوحدة بهذه الفتنة وذلك البغي قد اهتزت ولم تزل ، بل استمرت قائمة ، والفتوح الإسلامية قد استمرت باسم كلمة الإسلام والسلام الحق ،

فقد كانت الجيوش الإسلامية بقيادة قتبية بن مسلم قد وصلت إلى الصين شرقاً ، ووصلت غرباً بقيادة موسى بن نصير إلى الأندلس غصن الإسلام الرطيب ، وفتحته ، وزادت الغصن حياة بروح الإسلام ، واستمر المسلمون سائرين ، حتى تجاوزوا جنوب فرنسا .

ولا نستطيع أن نقول إن الحكم كان عدلاً في كل نواحيه ، ومن كل الولاة ، وحسبنا أن نرى الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي لكي نقرر أن العدل لم يكن شاملاً .

ولكن يجب أن نقول إن الوحدة الإسلامية كانت قائمة ، وإن كانت على دَخْنٍ ، بخروج الخوارج الفينة بعد الأخرى ، ولكن كانت تزول بالحروب الجزئية التي كانت بين مقر الحكم وبينهم .

ومها تكن حروب الخوارج في أثناء ملوك بني أمية الذين تسماوا بالخلفاء ،
وسمى حكمهم ابن تيمية خلافة ملكية ، وليست خلافة نبوية ، لأنه لم تكن
ثمةبيعة اختيارية ، بل كانت ملكاً وراثياً يتلقاه خلف الحاكم أو ولي عهده
عمن سبقه .

وإن الوحدة ، وإن كانت ، فقد ضمت في ثناياها أسباب الفرقة التي
أخذت تنمو جيلاً بعد جيل حتى أتت من بعد بأشأم الثمرات ، ذلك بأن
العدل لم يكن سائداً ، ولم تكن الروح الدينية سائدة ، وإن كانت الألسنة
تردها ، فالوحدة كانت تضم في حشاها ما يهدمها بعد حين .

وإنه مع ذلك بدت العصبية العربية تأخذ طريقها إلى الحياة ، وإنها إن
لم تفرق الدولة الإسلامية وتجعلها أجزاء فقد أوجدت ثغرة في القلوب وثغرة
القلوب تؤدي إلى الإنقسام ، وإن طال الزمان ، وبعد المدى .

تنبؤ النبي ﷺ بالفتن :

٧٣ - تنبأ النبي ﷺ بهذه الفتن وذكرها عليه السلام في أحاديث صحيحة
وردت عن رسول الله ﷺ ، منها ما رواه البخاري عن زينب بنت جحش
أنها قالت استيقظ النبي ﷺ محمراً وجهه يقول : « لا إله إلا الله ، ويل
للعرب من شر قد اقترب » .

ولقد جاء في صحيح البخاري « عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ
ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الساعي من تشرف لها
تستشرفه فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به .

روى البخاري ومسلم والترمذي بأسنادهم عن حذيفة بن اليان قال :

كنا عند عمر رضي الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ
في الفتنة فقلت أنا ، قال : إنك لحريّ وكيف سمعته يقول فتنة الرجل في أهله
وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة ، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال عمر رضي الله عنه : ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر فقلت مالك ولها يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، قال فيكسر الباب أو يفتح قلت بل يكسر ، قال ذلك احري ألا يغلق أبدا .

هذه أحاديث من شمائل النبوة تثبت علم النبي ﷺ بوحي من الله تعالى بأمر هذه الفتن التي وقعت من بعده ، واستمرت تحجى فتنه بعد فتنه ، وتتولد واحدة من أخرى .

وإن النفوس المؤمنة تقاوم الفتن ولكن قد تحط في غيرها خطوطاً سوداء ، تؤثر فيها ، ولقد روى مسلم عن حذيفة أيضاً . « تعرض الفتن على القلوب كالخصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ^(١) ، وأى قلب أنكرها نكتت نكتة بيضاء حتى يصير قلب أبيض مثل الصفا ، فلا يضره فتنه ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد ^(٢) كالكوز مجخياً ^(٣) لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً ، إلا ما أشرب من هواه ، وفي هذا الحديث كما قال حذيفة مخاطباً أمير المؤمنين عمر : « إن بينك وبينها باباً مغلقاً ، يوشك أن يكسر ، فقال عمر أكسراً لا أبا لك ، فلو أنه فتح كان لعله يعاد .

هذه نبوءات النبي ﷺ وهذه من شمائل النبوة .

وهنا يسأل سائل ، لماذا كانت هذه الفتن ؟ ، ولماذا أخبر النبي ﷺ .

أما الإجابة عن السؤال الأول ، فإنه يتعلق بإرادة الله تعالى ، والله لا يسأل عما يفعل ، كما قال تبارك وتعالى لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

(١) النكتة : الأثر .

(٢) المرباد الذي يكون لونه بين البياض والسواد .

(٣) والمجخني المائل عن الاستقامة ، أو هو المنكوس .

ولكن يجب علينا أن نعلم أن ذلك لحكمة أرادها ، وهو العليم الحكيم الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، وهو السميع البصير .

وانا نحاول أن نتعرف هذه الحكمة ، كما نتعرفها في الادواء التي تصيب المؤمن اختباراً لإيمانه وكشفاً ليقينه وكما تختبر الأمم بالبأساء والضراء ، كما قال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، حتى يقول الرسول ، والذين آمنوا معه ، متى نصر الله الا إن نصر الله قريب ﴾ فهي نوع من ابتلاء الله تعالى لتصل النفوس ، وتعود المجاهدة ، وتتعرف الخير ، فتأمر به والشر فتنتهى عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ .

ولا شك أن الفتن تكشف المنافقين ، وتصل قلوب المؤمنين ، فيزدادوا إيماناً ، ويتحفزون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يفوضون الأمور لله ، إذا كان شح مطاع ، وهوى متبع ، والزمان يجعل الفتنة يأكل بعضها بعضاً وتخبو نارها ، وماذا بعد ذلك إلا الحق يقام ، والعدل يستقر .

وأما الإجابة عن السؤال الثاني ، وهو السبب في اخبار النبي ﷺ ، فإنما هو لبيان علاجها في أوقاتها وفيها إشارات إلى من يثيرونها ، وأنها أحياناً تكون من قوم ظاهري الإيمان والتشدد ولكن عقولهم منحرفة ، وقلوبهم ملتوية ، وهم في جملة حالهم غير مدركين ، ولا فاقهين .

ولقد كان الناس كثيراً ما يسألون عن قابل الأمور فيجيبهم النبي ﷺ ، أخرج الشيخان: البخاري ومسلم — وأبو داود عن حذيفة بن اليمان: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله تعالى بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم قلت فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، فقلت وما الدخن ؟ قال قوم يستنون بغير

سنقي ، ويهتدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجاهم إليها قذفوه فيها ، قلت يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم تكن جماعة ولا إمام ، قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .
وترى من هذا أن النبي ﷺ كان يحيب ، ويكشف عما يكون ، وما ينبغي للمؤمن في هذه الفتن .

ولقد روي عن علي كرم الله وجهه في الجنة أنه قال : « قال رسول الله ﷺ : كيف بكم : إذا فسق فتيانكم ، وطفى نساؤكم ، قالوا يا رسول الله ، وإن ذلك لكائن ! قال نعم وأشد ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ، قالوا يا رسول الله : وإن ذلك لكائن ، قال نعم وأشد ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا يا رسول الله ، وإن ذلك لكائن ، قال نعم وأشد ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفاً قالوا يا رسول الله ، وإن ذلك لكائن ، قال نعم ، وهنا نرى أن رسول الله ﷺ لم يذكر الأشد في الحال الأخيرة ، لأنه لا يوجد أشد من ذلك في أحوال الأمم ، إذ تفسد الأخلاق وتفسد النفوس ، وتفسد المدارك حتى يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وبذلك تصل الحال إلى أبعد اغوار الجاهلية والله هو المنجي .

وقد أدركنا ذلك الزمان الذي تنبأ به رسول الله ﷺ ، صرنا نرى كل أمر معكوساً ، وكل حق منكوساً ، وقد فسدت الأمور ، وشامت العقول ، وطمس النور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الخلافة والوحدة :

٧٤ - رأينا أن الجماعة الإسلامية خرجت من الفتن موحدة القوى ، قد

اتجهت شرقاً وغرباً في الفتوح حتى وصلت شرقاً إلى الصين، وغرباً إلى المحيط، بل إلى جنوب فرنسا، وإذا خرجت خارجة، فقد كانت كاللبثور في الجسم لا تصيب منه الإحساس بل تمس السطح، ولا تتجاوز الظاهر، وتصل إلى الباطن.

ولعل الفضل في بقاء الوحدة هو ما سمي في التاريخ الإسلامي الجماعة، وقد كانت الجماعة تلتف حول من تسميه خليفة أو تسميه أمير المؤمنين، سواء أكان قد تولى بشروط الخلافة النبوية، كما سماها ابن تيمية أم تولاها باسم الملك والسلطان، ووجبت طاعته، إذ أن جمهور الفقهاء قرروا أن كل من تغلب، ورضيته الجماعة وجبت طاعته وقد سمي ابن تيمية من تولى من غير أن يستوفي الشروط النبوية في الخلافة سمي ذلك خلافة ملوك.

ومها تكن الأسماء، فإن اسم الخلافة كان له دخل كبير في بقاء الوحدة الإسلامية، ولو لم يكن العدل هو الذي يحكمها، ويسيطر عليها، وقد وجب علينا أن نتكلم في الخلافة وأسباب الحكم.

لقد تكلم ابن خلدون فيلسوف الإسلام الاجتماعي في الفرق بين الخلافة، والملك الفاسد، والملك الصالح فقال: «إن الملك الطبعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار،

والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين، وسياسة الدنيا».

هذه تفرقة ابن خلدون بين الملك الفاسد، والملك الصالح، والخلافة ولا تكون إلا حكماً صالحاً، ما دام القائم عليها محققاً لمقاصدها وأغراضها.

وان الخلافة كانت حقيقة تتحقق فيها الخواص التي ذكرها ابن خلدون في عهد الراشدين جميعا ، فقد كانوا منفذين لأحكام الشريعة ، يحملون الناس عليها ، ويقيمون الحدود ، وكان ذلك شأن الخلافة حتى انقلبت ملكا عضوضا في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وتحقق الأثر الصحيح عن النبي ﷺ ، إذ قال فيها يروى عنه ﷺ : « الخلافة بعدي ثلاثون » ، ثم تصير ملكا عضوضا ، ولما للخلافة النبوية من هذه المنزلة في حراسة الدين ، وإقامة حدود الله والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية يجب على الكافة إقامة خليفة ، بحيث يأثرون ، إن لم يعملوا على إقامته أو لم يقيم .

قال ابن حزم في كتابه الفصل

« اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة ، وإن الأمة عليها واجب الانقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله تعالى ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ حاشا النجيدات من الخوارج ، فانهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الإمامة ، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وهذه فرقة ما نرى بقي منهم من أحد وهم المنسوبون الى نجدة بن عويمر الحنفي باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفي في الرد عليه وإبطاله إجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الإمامة ، من ذلك قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ، مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة ، وإيجاب الإمامة .

وقد تكلم بعد ذلك في وجوب إقامة إمام واحد لعامة المسلمين ، وقال إنه جمع عليه ، وهو معقول المعنى ، لكي تتحقق الوحدة الإسلامية في الحكم ، كما هي واجبة ، ولكن أجاز بعض الزيدية إقامة إمامين إذا اقتضت المصلحة ولكنه لم يذكر مخالفة هؤلاء لأنه لا يرى لهذا الرأي اتباعا .

ويقول في ذلك « ثم اتفق من ذكرنا من يرى فرض الإمامة على أنه لا يجوز كون إمامين في وقت واحد في العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد ، إلا محمد بن كرام السجستاني وأبا الصباح السمرقندي وأصحابهما ، فإنها أجازا كون إمامين وأكثر في وقت واحد .

واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين منا أمير ، ومنكم أمير ، واحتجوا أيضاً بأمر عليّ والحسن مع معاوية رضي الله عنهم .

وكل هذا لا حجة لهم فيه ، لأن قول الأنصار رضي الله عنهم ذلك كما ذكرنا لم يكن صواباً ، بل كان خطأ أدام إليه الاجتهاد ، وخالفهم فيه المهاجرون ، ولا بد إذا اختلف القائلان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقاً ، والآخر خطأ ، وإذا كان ذلك كذلك ، فواجب رد ما تنازعوا فيه إلى ما افترض الله عز وجل الرد إليه عند التنازع ، إذ يقول سبحانه : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فنظرنا في ذلك فوجدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال : « إذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منهما » ، وقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

وإذا كان إمامان فقد حصل التفرق المحرم ، ووجد التنازع ، ووقعت المعصية - فصح أن قول الأنصار رضي الله عنهم - خطأ . رجعوا عنه إلى الحق ، وعصمهم الله تعالى من التماذي عليه .

وأما أمر عليّ والحسن ، ومعاوية ، فقد صح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أئذّر بخارجة تخرج من طائفتين ، وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة عليّ « السابق إلى الإمامة فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أئذّر عليه السلام بأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، فصح بعد أنه

صاحبها وأن من نازعه فيها فهو مخطيء ، فمعاوية . مخطيء !! لأنه مجتهد ، ولا حجة في خطأ المجتهد ، فبطل قول هذه الطائفة أيضا .
ونحن مع جمهور الفقهاء والمحدثين في أنه لا يصح إقامة إمامين في عصر واحد ، لأن الخلافة جامعة للوحدة الإسلامية ، ولا يمكن أن تكون جامعة وثمة إمامان ، وإن اختيار سيدنا عمر لنفسه ولمن بعده لقب أمير المؤمنين يرمي إلى الإمامة تكون عامة ، لا تختص بجزء من الأرض الإسلامية ، بل تعمها لتكون الوحدة الجامعة ، وليتحقق قول النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

شروط الخلافة النبوية :

٧٥ - ذكر الفقهاء شروطاً فيمن يتولى هذا المنصب بعضها متفق عليه ، وبعضها قد جرى الخلاف في لزومه ، ولقد ذكر ابن خلدون شروط هذا المنصب ، وأشار إلى المختلف فيه منها ، فقال :

« وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس ، واختلف في شرط خامس ، وهو النسب القرشي » .

وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلاً لقول النبي ﷺ : « لا يفلح قوم أسند أمرهم إلى امرأة » .

وأحسب أن ذلك الشرط متفق عليه بين علماء المسلمين ، ولم يذكره لبدايته ، ولكن نص عليه ابن حزم من بينهم ، فكان تصريحاً ، بما هو مفهوم عند الجميع ، وما استقر عليه رأي الجميع .

أما الخلاف الذي ذكره ابن خلدون في النسب القرشي ، فهو خلاف مترامي الأطراف مختلف النواحي قال فيه ابن حزم : « اختلف القائلون على وجوب الإمامة في قريش ، فذهب أهل السنة وجميع الشيعة وبعض المعتزلة ،

وجمهور المرجئة إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش عامة من ولد فهر بن مالك ، ولا تجوز فيمن كان أبوه من غير بني فهر بن مالك ، وإن كانت أمه من قريش ، ولا في حليف ولا في مولى ، وذهب الخوارج كلهم وجمهور المعتزلة ، وبعض المرجئة إلى أنها جائزة في كل من قام بالكتاب والسنة ، والواجب أن يقدم الحبشي لأنه أسهل لخلعه إذا حاد عن الطريق .

وكانه لا يصح عند هؤلاء أن يكون للإمام عصبية تدافع عنه ، ولذلك استحسنوا أن يكون ممن لا عصبية له وإن ابن حزم ليسترسل في بيان الاختلاف في اشتراط القرشية ، فبعد أن يذكر الخلاف في أصل الشرط ، يذكر الخلاف بين من اشتراطوه ، فقال رضي الله تبارك وتعالى عنه :

واختلف القائلون إن الإمامة لا تجوز إلا في قريش ، فقالت طائفة هي جائزة في كل ولد فهر وهذا قول أهل السنة وجمهور المرجئة ، وبعض المعتزلة ، وقالت طائفة لا تجوز إلا في ولد علي بن أبي طالب ... وبلغنا عن بعض بني الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة إلا في بني عبد المطلب خاصة ، ويرأها في جميع ولد عبد المطلب ، وهم أبو طالب وأبو لهب ، والحارث والعباس وبلغنا عن رجل كان بالأردن أنه يقول : لا تجوز الخلافة إلا في بني أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتاباً مؤلفاً لرجل من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحتج بأن الخلافة لا تجوز إلا لولد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ومع هذا التفريع والتفصيل الذي ذكره ابن حزم رضي الله عنه لا يذكر الخلاف عند من يرون أنها في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد اختلفوا ، ففريق قال : كل ولد لعلي يجوز أن يكون خليفة ، ولو كان من غير فاطمة فمحمد بن الحنفية نودي له بالخلافة ، وهو ليس من أولاد فاطمة .

ومنهم من قال : إن الخلافة من ولد علي من فاطمة من أولاد الحسن أو الحسين ، وأولئك هم الزيدية ، ومنهم من قرر أن تكون الخلافة من أولاد علي من الحسين ، وأولئك هم الإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية

٧٦-ومها يكن أمر الخلاف بين الذين لم يحوزوا الإمامة إلا في القرشيين، فمن الثابت أن جمهور علماء المسلمين يرون أن الخليفة من قريش، ومن عداهم أقل عدداً وأضعف ناصراً .

٧٧ - وحجة هؤلاء الكثرة من العلماء حديث «الأئمة من قريش» وفي رواية «الأمراء في قريش» .

هذا الحديث يحتمل أن يكون تنبؤاً بأمر يكون في المستقبل، مثل «الخليفة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً» فيكون مؤداه أن الإمامة الجديرة بأن تكون امامة المسلمين الذين ترعى مصالحهم، وتقيم حدود الله تعالى هي في قريش، ولقد صدقت نبوءة النبي ﷺ، فإن الراشدين كانوا الأئمة حقاً، وأربعتهم من قريش .

ويحتمل ان يكون بياناً لحكم شرعي بإثبات أن الخلافة أو الإمامة لا تكون إلا في قريش .

ونقول إن المفسرين للحديث اتجهوا هذين الاتجاهين، واستمع إلى ما يقوله ابن حجر العسقلاني في شرح حديث ابن عمر عن النبي ﷺ «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان» التقدير لا يزال هذا الأمر فلا يسمى بالخليفة إلا من يكون من قريش إلا أن يسمى أحد من غيرهم غلبة وقهراً، وأما أن يكون المراد به الأمر، وإن لفظه لفظ الخبر ثم قال ابن حجر .

قال النووي حكم حديث ابن عمر الى يوم القيامة ما بقي من الناس اثنان، وقد ظهر ما قاله ﷺ فمن زمنه إلى الآن لم تزل الخلافة في قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ومن تغلب على الملك بطريق الشوك لا ينكر أن الخلافة في قريش، يدعي أن ذلك بالنبابة عنهم .

ثم قال ابن حجر : «هذا الحديث خبر عن الشروعية، أي لا تتعقد الإمامة الكبرى إلا لقرشي مها وجد منهم أحد، وكأنه جنح الى أنه خبر بمعنى الأمر .

هذا، وإفنا ننتهي من ذلك التفسير إلى أن الحديث يحتمل أن يكون

تنبؤاً ، وأنه لصادق ، ويحتمل أن يكون تكليفاً فيه أمر بالألا يكون إمام في الإمامة الكبرى إلا من قريش .

وانه مع هذا الاحتمال لا يمكن الاستدلال به على أنه لا تنعقد الخلافة أو الإمامة الكبرى إلا لقرشي .

وانه على فرض أن الحديث فيه تكليف أو أمر ، فإنه من المؤكد أن الروايات تضافرت على أن أولوية قريش مقيدة بعمدهم ، واقامتهم الحق ، بل ان طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك قوله ﷺ مخاطباً قريشاً : وأنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق الا أن تعدلوا عنه فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة ، ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يستقيموا فضموا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » .

وإن الأخبار يفهم منها أن القرشي أولى من غيره إذا تساوى مع غيره كفاية وعدلاً ، فإن لم يكن في كفاية غيره وعدالته ، فغيره أولى ، ويؤيد ذلك ما روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال إن أدركني أجلي ، وأبو عبيدة حي استخلفته ، فإن أدركني وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل ، ومعاذ بن جبل غير قرشي ، وما كان لعمر الفاروق أن يخالف أمراً أمر به الرسول ﷺ ، إذا كان خبر الأئمة في قريش قصد به الأمر والتكليف .

ولقد قال ﷺ : « إسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة » ، هذا وإن أبا بكر رضي الله عنه عندما ناقش الأنصار في أمر الخلافة لم يستدل بخبر « الأمراء في قريش أو الأئمة في قريش » ، إنما استدل بالمصلحة ، فقال رضي الله عنه لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش .

ولو كان هذا الخبر المروي قاطعاً في الدلالة على أولوية قريش بالخلافة ، ما ترك الخبر وأخذ بالرأي القائم على المصلحة العامة لجاهير المسلمين .

وننتهي من هذا إلى أن شرط القرشية ليس ثابتاً في دلالته على وجه القطع لأن الاحتمال دخل الدليل ، وإذا دخل الاحتمال يبطل الاستدلال ، كما ذكرنا من قبل .

أما الكفاية والعدالة فشرطان لازمان لا ريب في ذلك ، لأن الإمامة ، وإن كانت أمراً دينياً هي في ذاتها أمر مصلحي أقيم لمصلحة الكافة ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور مع الظلم ، ولا أن يحقق مصلحة العباد من ليس ذا كفاية ، فلا يمكن أن تتحقق الخلافة النبوية بدونها .

وهنا شرط قد أغفل في أكثر عصور التاريخ الإسلامية وهو الاختيار بالشورى والمبايعة فإن ذلك الشرط أغفل في غير عهد الراشدين .

وإن المبايعة عقد يقوم بين الإمام ، وبين المسلمين على أن يلتزم القيام بتنفيذ الشرع ، ويلتزموا بطاعته ، ويتمثل تنفيذ هذا العقد في قول الإمام عمر : أعينوني ما أطعت الله فيكم ، وقد كان اختيار أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ، وتمت المبايعة عندما سارع إليها عمر حسماً لمادة الخلاف وقطعاً للنزاع أو إنهاء ، وأبو بكر عندما عهد إلى عمر رضي الله تبارك وتعالى عنها أخذ البيعة له ، حتى لا يتفرق أمر المؤمنين .

وإن عمر بن الخطاب يشترط قبل المبايعة أن يكون ثمة شورى للمسلمين تنتهي باختيار من يسرون في مبايعته ، وذلك ليتحقق قوله تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فلا يباغت الناس بالمبايعة بل تكون مجاورة ومشاورة ينتهون فيها إلى مبايعة من يرونه أهلاً ، فالمبايعة ثمرة الاختيار ، ولا تكون الثمرة قبل أصلها ، ولقد قال عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه « من بايع رجلاً بغير شورى المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه » .

الوحدة مع الولاية والعصاة :

٧٨ - إن الوحدة الإسلامية غاية تستهدف ، والخلافة العادلة التي تعد

الإمامة من ذرائع وجودها ، وإقامتها على قسطاس مستقيم ، ولذلك أجمع العلماء على اشتراط العدالة ، وليس العصاة من أهل العدالة ، فهم بلا ريب ليسوا أهلاً للإمامة العظمى ، وإذا تولوا وهم عدول ثم فسقوا عن أمر ربهم أتسقط توليتهم من تلقاء نفسها ، أم يبقون ولاية في تلك الولاية الكبرى ، ولو سادهم الفسق والفجور .

ولقد اختلف في ولاية الفاسق بأن تأمر ابتداء وهو فاسق وهو غير خليفة ولكنه تغلب وحكم أو تحكم أو ولي على أنه عدل ، فأنكشف أمره ، فظهر فاسقاً ، أو كان عدلاً ، وحاد عن منهاج العدل وسبحان مقلب القلوب ، ومهما يكن وصف فسقه أو عصيانه .

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة آراء :

أولها : أن يرد جميع أمره بأن ترفض ولايته ، فلا يطاع في طاعة ، ولا معصية لأن توليه ظلم وطاعته ولو في عدل إقرار للظلم .

وثانيها : وهو أقواها وأبعدها نظراً وعليه الأكثرون أن يطاع في الحق ولا يطاع في معصية لقول النبي ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »

وثالثها : إن الفاسق إذا كان هو الإمام الأعظم يطاع في الطاعة ، ولا يطاع في المعصية وإن كان الفاسق ليس هو الإمام الأعظم ، بل أحد ولاته في الأقاليم ، أو من دون ذلك ، فإنه ترد طاعته في عدل أو ظلم لأن الإمام الأعظم لا يمكن تغييره إلا بفتنة ، والفتنة تمزق الوحدة الإسلامية ، ومن دونه يمكن تغييره بدون فتنة .

فلا بد من حماية العدالة والوحدة معاً .

ويختار الأكثرون من العلماء الرأي الوسط ، ومنهم ابن تيمية (١) .
وان ذلك يدفع إلى النظر في أمرين :

أولهما : حال ما إذا لم تتوافر في الامام الأعظم الطاعة في أمر اهتز سلطانه وكانت الفتنة ، ولا ضير في ذلك بالنسبة لما فيه من تنفيذ لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن الطاعة - في الحقيقة - للكتاب والسنة ، وأما حيث يأمر بمعصية فإن المخالفة تكون للكتاب والسنة وطاعتها أولى من طاعة الرجال مهما يكن شأنهم .

والثاني : الفتنة التي تترتب على رد كل ما يأمر به الإمام الأعظم ، أضرارها أعظم من طاعته في غير معصية ، وترتيب الأمور لتغييره ، ولهذا رجح رأي الجمهور وابن تيمية .

إذا لم يكن من هو أهل للإمامة :

٧٩ - قد تبين أن الإمامة لها شروط شرعية بعضها متفق عليه ، وبعضها يختلف فيه ، فأما المتفق عليه فهو العدالة ، والكفاية ، وأن يكون ذلك باختيار الأمة ، وقد تبين أن شرط القرشية يختلف فيه .

فإذا لم تتوافر الشروط كاملة ، أيكون أمر المسلمين فوضى من غير حاكم ، ولا شك أن شرط الخلافة لم يعد محققا ؟

يشير ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » ، ويقرر أن الذين يستوفون الشروط المؤهلة للخلافة هم الذين يسمون خلفاء ، وأما الذين يتولون فإنهم يسمون ملوكا ، ولا يسمون خلفاء ، ولكن يكون الرضا بحكمهم للضرورة لأن الحكم بين المسلمين خير من أن يتركوا في فوضى ، وان الطاعة واجبة لهؤلاء

(١) « منهاج السنة » ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٨٧ .

فما يقومون به من أداء أوامر الدين واجتناب نواهيه لأن هذه الولاية خير من الفوضى على أي صورة كانت ويعد من سمي أميراً أو خليفة من حكام الأمويين والعباسيين ملوكاً ، ويقول في ذلك :

« والذي في السنن ، الخلافة بالنبوة ثلاثون (سنة) ثم يصير ملكاً » .

ويقول في حكم يزيد بن معاوية الذي استباح حرقات أهل المدينة ، وقتل الإمام الحسين أفجر قتلة : يعتقد أهل السنة أنه ملك المسلمين ، وخليفتهم في زمانهم ، وصاحب السيف ، كما كان أمثاله من خلفاء بني أمية ، وبني العباس فيزيد في ولايته هو واحد من هؤلاء الملوك المستخلفين في الأرض » .

وهو يرى كجمهور أهل السنة أنه تجب طاعة هؤلاء الملوك المستخلفين ، وإن لم يكونوا خلفاء نبوة لعدم استيفائهم شروط الخلافة النبوية الصحيحة ، فيجب طاعتهم والخضوع لحكمهم لأنهم ولاة الأمر

وان الرأي الغالب في الفقه الإسلامي أن كل متغلب تجب طاعته ، حتى يغير من غير فتنة ولكن لا يطاع في معصية ، وان أولئك مهما يكن أمرهم يعدون ملوك المسلمين ما داموا الحاكمين ، ولا ينازعهم عدل أمين قد استوفى شروط الخلافة النبوية ، ولأنهم يقيمون الجمع والأعياد ، ويقيمون الحدود وينظمون الولايات ويفزون أعداء المسلمين ، ويدافعون عن أرض الإسلام .

وكونهم - أو بعضهم - فجاراً لا يمنع تقديم الطاعة لهم ، ما دامت الطاعة لا معصية فيها ، أو ليست الطاعة في ذات المعصية والفجور .

ويقول ابن تيمية في هذا « والصواب الجامع في هذا الباب أن من حكم أو قسم بعدل نفذ حكمه وقسمته ومن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أعين على ذلك إذا لم يكن في ذلك مفسدة راجحة ، وانه لا بد من إقامة الجمعة والجماعة ، فإن أمكن تولية إمام بر لم يحز تولية فاجر ، ولا مبتدع يظهر بدعته ، فإن هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الإمكان ، ولا تجوز توليتهم ، فإن لم يمكن

إلا تولية أحد رجلين : أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد ، والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له ، كانت تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين - خيراً من تولية من ولايته أضر على المسلمين ، وإذا لم تكن صلاة الجمعة والجماعة وغيرها إلا خلف الفاجر ، والمبتدع صليت خلفه .

وقبل أن نترك كلام ابن تيمية في هذا المقام نذكر حوله أموراً ثلاثة

الأمر الأول: أنه أشار إلى أنه يجب اتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يكن في الاتباع مفسدة راجحة؟ ونجيب عن ذلك بأن المفسدة تكون حيث يترتب على الاتباع فتنة وحيث يترتب على اتباع الداعي تحذيل عن الجهاد باضعاف الثقة في القائد ، أو الحاكم الذي يجابه الأعداء ، والحق أن الاستنكار في هذه الحال لا يكون من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل يكون من قبيل الدعوة إلى فتنة .

الأمر الثاني: أنه ينظر في الولاية والتردد فيمن يختار لها إلى نفع المسلمين فمن يكون أكثر نفعاً يطاع في غير معصية ولو كانت له ذنوب ، ومن يكون ضعيفاً فإنه لا يولى لأن ضعفه على المؤمنين .

ولقد سئل الإمام أحمد عن أميرين في الجهاد أحدهما قوي يرتكب وزراً والآخر ضعيف تقى ، مع أيهما يعمل المؤمن فقال رضي الله عنه : « مع القوي الموزور لأن فسقه على نفسه . وقوته للمسلمين ، ولا يعمل مع الضعيف التقى ، لأن تقواه لنفسه وضعفه على المؤمنين .

الأمر الثالث : أن ابن تيمية وغيره من جمهور الفقهاء يرون أن قيام الوحدة الإسلامية من غير تمزيق هي في ذاتها مقصد قائم بذاته ، وأن إقامة الدولة الموحدة للأمة الإسلامية وحمايتها من أعدائها ، وسد الثغور وتنفيذ النظم التي لا تجانف لإثم ، وتثبيت دعائمها -

غرض مقصود من إقامة الدولة الإسلامية ، فإن أمكن أن يقوم بذلك العدل التقي القوي كان ذلك هو الدين في لبه وصميه ، وإن لم يمكن إقامة التقي الذي يحمي الذمار ويحسن التدبير ، ووجد الأمير الحسن الرأي والتدبير ، وإن لم يكن تقياً يجب طاعته في غير معصية ، لأن الطاعة في هذا الحال أداء لواجب ديني . وإن ابن تيمية في هذا يتبع رأي الإمام أحمد الذي ذكرناه آنفاً . ويقول ابن تيمية في تأصيل فكرة الطاعة لمن يتولى أمر المؤمنين ، ولو لم يكن مستوفياً شروط الإمامة ومنها القرشية في نظره ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ، وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : « إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن ولي عليكم عبد حبشي مجدع الأنف » .

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال . « اسمعوا وأطيعوا ، وإن ولي عليكم عبد حبشي مجدع الأنف » وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « اسمعوا واطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » . وفي صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يبنى أو بعرفات في حجة الوداع يقول : « إن استعمل عليكم أسود مجدع الأنف يعمل بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا » (١) .

وهذا يتبين أن فقهاء المسلمين الذين يحكي تفكيرهم ابن تيمية كانوا حريصين على الوحدة الإسلامية من أن تتمزق بسبب عدم تولى من لا يستوفي شروط الولاية كاملة .

الفتنة والوحدة :

٨٠ - لم ينظر جمهور الفقهاء الى الثورات التي تقوم ، ولو كان الحكم ظالمين ، نظرة راضية إلا ما أثر عن أبي حنيفة من رضاه على ثورة زيد بن علي

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ٨٧ .

رضي الله عنه ، وإبراهيم بن عبد الله بن حسن أخي محمد النفس الزكية فقد أثر عنه رضي الله عنه أنه لم يستنكر الثورة من هذين الإمامين ، والمشهور في تاريخه أنه أيدهما ، ولعل ذلك لمحبه لآل البيت ، وللمظالم التي نزلت بهم ، وقام بها الأمويون من قتل يزيد وجيشه للحسين بن علي واستباحته مدينة رسول الله ﷺ ، ثم قام بها من بعدهم العباسيون وقد كانت دعوتهم ابتداء تقوم على الانتصاف من بني أمية ، إذ ظلموا آل البيت ، إلا أن جمهور الفقهاء كانوا يقفون موقف الحياد في الفتن ، ما لم ينهوا عن أمر مقرر في الشريعة ، ولما خرج محمد النفس الزكية على أبي جعفر المنصور ، سئل الإمام مالك أنناصر هؤلاء أم جند أبي جعفر ، فقال رضي الله عنه : « إن خرجوا على مثل عمر ابن عبد العزيز فقاتلهم ، وإن لم يكن مثل عمر بن عبد العزيز ، فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » .

وفي الواقع ان الفتن تقطع أوصال الدولة ، وتؤثر الاحن ، ولا تقيم حقاً ، ولا تحفض باطلاً ، وانه يقع في الفوضى التي تنشأ الفتنة من المفاصد ، ما لا يقع من حاكم مفسد في استبداد سنين .

إن الحكم المنتظم على أي صورة من صوره خير من الفوضى ، ولا عدل مع الفوضى كما قررنا ، ولا خير قط في فوضى ، وقد يكون خير في حكم الفاسقين .

وان الاستقراء في التاريخ يثبت لنا أنه لم تكن فتنة أقامت عدلاً ، أو خفضت ظلماً ، بل انها تفتح الباب لدعاة البغي والعدوان والفساد .

وان السعي في التغيير واجب ، ولكن يكون بالإرشاد والموعظة الحسنة وكلمة الحق تقال للحكام الظالمين مها يترتب عليها لشخص القائل من تعذيب أو سجن .

وان كلمة الحق في هذه الحال جهاد ، ولقد قال النبي ﷺ : « أفضل الجهاد

كلمة حق لسلطان جائر ، ، وروي أنه قال ﷺ : « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » .

وان كلمات الحق إن تضافر عليها أهل الايمان كان الحاكم مضطراً لأن يغير من حاله إن كان ظالماً ، فإن أصوات الاستنكار تجعل الظالم يتردد في ظلمه ، أو يستخفي في فسقه ، فإن الحكام يريدون الحمد دائماً ، فإن يجدوا من يحدوهم بالمحمدة ويضن بالملامة استمرؤوا ما يصنعون ، وإن وجدوا من لا يضمن بالملامة ضعفوا عن الاسترسال في غيهم ، وخافوا على حكمهم .

ويقول ابن تيمية حاكياً رأي أئمة السنة في الفتن والثورات : المشهور عن مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وإن كان فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ ، لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ، ولعلنا لا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذي السلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته ، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم ، وكل باغ كيفما كان ، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء ، بل قال تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حق تقيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء ، وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ، ولكن من رضي وتابع أثم ، قالوا : أفلا نقاتلهم ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا ، مطلقاً » فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتالهم مع أنهم يأتون أموراً منكراً .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : « انكم سترون بعدي

أثرة وأموراً تتكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم وتسالون الله الذي لكم » .

وقد قال ﷺ : « من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً منكراً لمعصية الله فليكره ما يأتي من معصية ، ولا ينزعن يداً عن طاعة » (١) .

٨١ - وهنا نجد علماء المسلمين ، وخصوصاً علماء الجماعة مقتبسين من أوامر النبي ﷺ ووصاياه كانوا يتجهون الى تحقيق الغاية الاولى وهي الوحدة الاسلامية ، فكانوا يقررون وجوب طاعة الحكام ولو تولوا بغير المنهاج الشرعي وبغير الشورى التي أمر بها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ، بل كانوا يأمرهم بطاعة الولاة ، ولو كانوا عصاة ، على ألا يطيعوا ما يأمرهم به من المعاصي ، فكانوا يرون الطاعة فيما لا معصية فيه ويردون ما فيه معصية .

وكانوا إلا الأقلين منهم يكرهون الثورة على الحكام ، لأنها تؤدي إلى الفتنة ، والفتنة تؤدي إلى التفرق ، والفرقة في أي صورة من صورها لا تجوز فكل ما يؤدي إليها لا يجوز .

وان ذلك الذي قالوه هو صريح ما دعا إليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روينا بعض أقوال الرسول الكريم الذي ما كان ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

وإن الفقهاء إذ يقررون الطاعة المطلقة في غير معصية يرون وجوب تغيير الحاكم الظالم ولكن من غير فتنة ، بل يرون ان ذلك يتم بالارشاد والكلمة المجاهدة ، فعلى العلماء جهاد بالسنتهم كجهاد المحاربين بسيفهم ، وقد قلنا في غير هذا المقام : « إن ألسنة العلماء وهم يفضبون للحق ، تعمل ما لا تعمل السيوف المضاب » .

(١) « منهاج السنة » ج ٢ ، ص ٨٧ .

فهي جهادهم ، وهي أمر الله تعالى ، اذ قال تعالى فيما أخذه سبحانه
وتعالى على العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه . فكانوا يبينون ويدعون إلى الحق
ويقولون كلمته ، لا يخافون في الله لومة لائم .

ونقصد بالعلماء الذين يقولون الحق لذات الحق ، لا ييغون اتجاراً في دين
الله ولا علواً في الأرض ولا فساداً .

الفرقة بعد الوحدة

٨٢ - هذا هو الباب الثالث من بحثنا، وقد تكلمنا في تكوين محمد ﷺ للوحدة ثم تكلمنا على استمرارها في عهد الراشدين وأشرنا إلى بعض الفتن التي أصابت النفس العربية ، ولم تصب الوحدة الاسلامية التي كونها محمد ﷺ على أسس من التآلف والتقوى .

ثم كيف استمرت الوحدة في عهد ملوك بني أمية وملوك بني العباس على تعرضها للوهن ، وكيف لم يؤثر فيها عصاة الملوك ما دامت قلوب أهل الايمان مطمئنة راضية بحكم الله ، نافرة عن حكم الطاغوت .

والآن نتكلم عما أصاب الأمة من وهن في النفوس استمكن ، حتى تفرق المسلمون بعد الاجتماع ، وقد يقول قائل : إن الموضوع هو الوحدة الاسلامية فكيف نجعل الفرقة عنصراً من عناصر القول فيه ، والوحدة والفرقة نقيضان لا يجتمعان ، ونجيب عن ذلك بأن المسلمين متفرقون قد توزعتهم الارض ، وحمل بعضهم السيف على بعض ، ونريد أن تعود الوحدة جذعا كما بدأت .

ولا يمكن أن نذكر مقومات الاعادة من غير أن نعرف أسباب التفرقة حتى نتلافها في وحدتنا التي نرجو أن يوفق الله تعالى المسلمين لاعادتها فإن المسلمين لا يصلح آخرهم إلا بما صلح به أولهم ، وحدة في غير انقسام وائتلاف في غير انفصام ، وجمع لا تفرق فيه بل يكونون كما قال النبي ﷺ : « مثل

المؤمنين في توأدهم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، ويتحقق قوله ﷺ : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسله ولا يخذله » .

ولذلك وجب أن نذكر أسباب الانقسام ، ولن نحصى هذه الاسباب في ذلك البحث الموجز ، كما لا نستطيع أن نعرف متى ابتدأت تلك الاسباب .

إن الظواهر الاجتماعية نراها واضحة جلية ، ولكن إن أردنا أن نعرف متى وجدت تعصى علينا الأمر ، ولا يكون البحث فيه هيناً ليناً ، كمن يرى شجرة عالية متدلية الاغصان فإنه يراها عالية شاحخة تهتز وتتايل، ولكن لا يعرف امتداد جذورها ، وإن أحصى فروعها .

ونحن إذا نظرنا إلى أسباب الفرقة الإسلامية التي هي ناتئة ظاهرة مشؤومة فاننا نرجع إلى بروز أول الفتن فإنها وإن كانت لم تؤثر في الوحدة ، كأمر ظاهر فإنها بلا شك ، كانت أساساً .

وفي الجملة إن تعرف الاسباب لأمر ظاهر من أصعب ما يكون ، فبادئ الأمور حلها صعب ، حتى نرى آثارها بارزة للعيان ، إذ أن هذه الأسباب تتفاعل حتى تكون مزيجاً يظهر أثره ، ثم لا يكون اختفاء بعد ظهور الأثر .

الاسباب المعنوية :

٨٣ - إن الوحدة ائتلاف فكل ما ينافي الائتلاف ، ويوجد النفور إنما هو سير في طريق الفرقة ، والاسباب المعنوية كثيرة متضافرة ، تكاثفت حتى اعتكرت بها النفس الإسلامية ، فاستعدت للافتراق بعد الاجتماع ، والاعمال التي قام بها الحكماء في الفرقة فانما حرثت أرضها لهم الامور المعنوية .

وقد ظن الكثيرون أن السبب الأكبر هو قيام العصبية العربية من سباتها وانبعائها من مرقدتها ، ولا شك أن ذلك جزء من الاسباب ، ولكنها جاءت

في هذه المرة ليست تنازعاً بين مضرية وربعية ، وان ظهر شيء من ذلك في الفرق الإسلامية .

انما كانت العصبية العربية ، ومعها الشعوبية غير العربية ، فانبعثت من وراء ذلك ، ومن وراء الفرق الإسلامية ، الملوك وشهواتهم ، واتخاذ كل ملك حيزاً من الارض يذود دونه حتى أكلوا جميعاً ، وتفرق المسلمون وجاء التناحر فما أبقوا ملكاً على ملكه ، وأبادوا كل الملوك ولم يبقوا منهم دياراً ولا نافخ نار .

١ - العرب والموالي :

٨٤ - نقصد بالموالي غير العرب الذين دخلوا في الإسلام وسموا موالي لما ذكرنا من أن الذين يسمون من غير العرب كانوا بعقد موالاة ، وهو يشبه عقد الاخاء مع عربي ، بحيث يكون في ضمن أسرة هذا العربي وتعقل عنه تلك الاسرة العربية ، وعند الحنفية ترثه إذا مات عن غير وارث من الاقارب ، على خلاف بينهم وبين بعض من الفقهاء على ما ذكرنا عند الكلام على عقد الموالاة .

وليس المراد من الموالي العتقاء أو نحو ذلك ، انما فهم ذلك من لا يعرف التاريخ الإسلامي على وجهه ، ولا يعرف أحكام الفقه المأخوذة من الهدي النبوي في هذا .

وقد قلنا في موضعه إن الموالاة بين المسلم غير العربي ، والعربي ، كالاخاء بين المهاجري ، والانصاري .

ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة النعمان من موالي بني تيم ، ولذلك كان يقال عنه أبو حنيفة التيمي ، ولقد روي أن بعض التيميين الذين ينتمي اليهم أبو حنيفة . قال للامام الأعظم : أنت مولاي ، فقال له الامام المعتز بالله

وعلمه : « أنا والله أشرف لك منك لي » أي أن ذلك التيمي يتشرف بعقد الموالاة هذا أكثر مما يتشرف به أبو حنيفة رضي الله عنه .

وإن الإسلام سوى بين الناس في الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، كما صرح القرآن الكريم وكما قرر النبي الأمين ، وقد تلونا فيما مضى الآيات الواردة في ذلك ، وروينا الأحاديث الموضحة التي كانت توجه أهل الإسلام لأن يندمجوا في الإسلام ، ولا يكون فارق إلا بالتقوى .

وكان الناس كذلك في عهد الراشدين ، وإن كانت بقايا العصبية تبدو أحياناً في تفاخر لا ينفع وقد يضر . يروى في هذا أن سلمان الفارسي كان يجلس مع قوم يذكرون شرف نسبهم العربي ، فقال له بعض الحاضرين : ابن من أنت ؟ فقال المؤمن التقي سلمان : « أنا ابن الإسلام » فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب ، فبكى وقال : وأنا ابن الإسلام .

وبذلك كان الاندماج ، وكانت الوحدة ، أو السير في طريقها حتى يبلغ الإسلام غايته .

٨٥ - ولكن ما إن جاءت الدولة الأموية ، وقد كانت عربية ، وكانت شديدة التعصب للعرب ، ولم تغط الموالي حقهم الكامل في الإسلام ، وأرادت الإسلام عربياً ، ولم تفهم أنه دين الكافة ، لأن الله بعث محمداً بشيراً ونذيراً للكافة ، لا لقوم دون قوم ، ولا جيل دون جيل ، بل هو دين الخليقة إلى يوم الدين .

ولشدة التعصب للعرب من الدولة الأموية روي أنه في الجيش ما كان يقسم لغير العربي إذا اشترك في الجهاد ، مع أن حكمه على غير العربي ، كالعربي على سواء ، بل كان يرضخ له إذا جاهد مع المجاهدين أي يعطى عطاء غير مقدور من غير أن يقتسم من العرب .

وتلك في حكم الإسلام قسمة ضيزى ، ما كانت عدلاً لأن الجهاد على الجميع

والفتائم للجميع لكل فيها سهم معلوم وحظ مقسوم ، وتلك جاهلية في الإسلام وما كانت لتجوز في ظل خليفة أو من هو قائم مقام الخليفة .

وإن غير العرب لبعدهم عن السلطان في العهد الأموي انصرفوا إلى الفقه والعلوم بشكل عام ، ولما ابتدأت الترجمة في آخر العصر الأموي ، واخذ الفكر الفارسي يغزو الفكر العربي كان الموالي هم الذين يحملون عبء ذلك ويسيروا به .

ومع ذلك كان الأمويون ينفسون عليهم ذلك ويتبرمون به .

جاء في كتاب مناقب أبي حنيفة للمكي ، من حديث جرى بين عطاء التابعي وهشام بن عبد الملك الذي كان يسمى نفسه امير المؤمنين ، ولا يقول امير العرب وخدم وهذا الحديث هو :

قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار . قلت بلى يا أمير المؤمنين فقال فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت نافع مولى عبد الله بن عمر قال : فمن فقيه مكة ، قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : أمولى هو أم عربي ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاروس بن كيسان . قال : مولى هو أم عربي ؟ قلت : بل هو مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن كثير . قال : مولى أم عربي ؟ قلت لا بل هو مولى ، قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربي ؟ قلت : لا بل هو مولى ، قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : مولى أم عربي ؟ قلت لا بل مولى . قال : فمن فقيه خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربي ؟ قلت لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن وابن سيرين . قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : لا بل موليان . قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعي ، قال : مولى أم عربي ؟ قلت : عربي . قال هشام : كادت تخرج نفسي ، ولا تقول واحد عربي ، »

وكان التعصب ضدّ غير العرب من المسلمين يبدو نفسياً لا من الحكام

والأمراء فقط كما رأيت من هشام بن عبد الملك بل كان من الشعوب والولاة الذين دون الأمير ، فقد كانوا ينفسون كهشام على اخوانهم غير العرب مكانتهم العلمية ، وسيطرتهم على العلوم الإسلامية ، إذ أنهم قد فقدوا السلطان السياسي ، فاستعاضوا عنه بالسلطان العلمي ، وهو أبعد أثراً ، وأقوى تأثيراً وقد امتدت العصبية العربية الى أول العصر العباسي ، فاستمرت حتى كان عصر المأمون .

روى صاحب العقد الفريد : « قال لي ابن أبي ليلى . قال لي عيسى بن موسى شديد العصبية ، من كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن . قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وسلمان بن يسار قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالٍ ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟ فقلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح . قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : موالٍ ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أفقه أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأي . وابن أبي الزناد قال : فما كانا ؟ قلت من الموالي فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه ، وابن منبه . قال : ومن هؤلاء ؟ قلت : من الموالي ، فانتفخت أوداجه وانتصب قائماً . قال : فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبدالله الخراساني . قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تربداً ، واسود اسوداداً حتى خشيته . ثم قال : فمن فقيه الشام ؟ قلت : مكحول قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى فتنفس الصعداء . ثم قال : فمن فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة ، وحامد بن أبي سليمان ، ولكني رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم النخعي والشعي ، قال فما هما ؟ فقلت عربيان . فقال : الله اكبر وسكن جأشه (١) .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه - ج ٢ ص ٢٦٢ طبع الازهرية .

٨٦ - ولا شك أن تلك الصورة التي رويت عن حاكم المسلمين الأكبر ، وعن أمراء المسلمين ، تصور المأ نفسياً لكثيرين من العرب ، لأنهم تخلفوا في العلم ، وخصوصاً علم الإسلام ، وبالأخص علم الفقه الذي هو ذاته تتبع لآثار النبي ﷺ ، وإنه إذ كان التخلف في جانب العرب كان التقدم العلمي في جانب غير العرب

ولعل الأمر العظيم الذي كان يخشى على الإسلام منه ليس هو أن يكون العلم في غير العرب لأنه لا يزال علم الإسلام في المسلمين وإن كانوا غير عرب ، وإنما الذي كان يخشى منه على الإسلام ، هو أن العقول غير العربية معها دراسات أخرى وتقاليد موروثة ، وأكثر أولئك من غير العرب متأثرون بها ، وتسري في اقوالهم وكتبهم ، شاعرين بها أو غير شاعرين ، وبذلك يشيرون في الإسلام أموراً ليست من جوهره بل تنافيه ، وليست من دعائه ، بل ربما تهدمه ، ولذلك كانوا ، أو على الأقل المخلصون المدركون منهم ، يخافون على الحقائق الإسلامية . أن تشوهها عجمة أولئك الأعاجم .

ولا شك أننا إن فرضنا حسن النية في أولئك العلماء من غير العرب - ولا بد أن نفرض ذلك - فإن عقولهم قد تكون مأخوذة بماضيهم ، وتسري اليها بحكم التقاليد والعادات الموروثة وبحكم الثقافة الثابتة ، وإن الأفكار الراكزة لا تخلع خلماً .

وإنه بلا ريب كان يجوار أولئك الذين تأثروا بحضاراتهم نوعان قد يكونان متباينين :

أولهما - أولئك الذين أخلصوا دينهم لله ، وقدموا في الإسلام علماً غزيراً وفكراً قوياً كأبي حنيفة النعمان ، ومثل كثيرين من المحدثين ، وعلماء السلف كالحسن البصري ، وابن سيرين ، ونافع مولى عبدالله بن عمر . وغيرهم كثير .

والفريق الثاني - أولئك الذين حنقوا على الإسلام ، لأنه أزال ملكهم ، وقوض

دولتهم ، وجعلهم تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ولم ينظروا
إلى الإسلام إلا من هذه النظرة غير الهادية بل الغاوية .

ولقد ذكر ابن حزم أن أسباب الفرقة حقد أهل فارس على الإسلام ، فقد
قال : رضي الله تبارك وتعالى عنه في خروج طوائف عن الإسلام ، والأصل
في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك
وعلو اليد على جميع العرب وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون
أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون جميع الناس عبيداً لهم فلما امتحنوا
بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم
خطراً تماظمت الأمور وتضاعفت لها المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالحاربة
في أوقات كثيرة ففي كل ذلك كان يظهر الله الحق فأظهر قوم منهم الاسلام ،
واستألوا أهل التشيع باظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم علي رضي الله
عنه ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ... »

من أجل ذلك كان يتخوف كثيرون من أن يكون قادة الفكر في الفقه
والعقيدة ، والخلافة من غير العرب وإن كان الصادقون في إيمانهم منهم على
سواء فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى .. »
وفي الحق ان غير العرب خدموا الإسلام في جملة أحوالهم والذين دخلوا
في الإسلام ظاهراً وأخفوا الكفر باطناً ظهر أمرهم كالمقنع الخراساني ، وغيره
من حاربوا المسلمين في صدر الدولة العباسية .

ومها يكن أمر هؤلاء من غير العرب ، فانه بلا شك كان لهم دخل عظيم في
الفرق الإسلامية حاشا الخوارج ، وان الفرق الإسلامية ما عدا من ذكرنا كان
حماتها ودعاتها من غير العرب ، ولا يعد من الفرق الإسلامية الجماعة الذين
اعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يخوضوا مع الخائضين .

الفرق الإسلامية

من اسباب الفرقة

٨٧ - إن الفرق الإسلامية وانقسامها كانت من ذرائع الفرقة وفك الوحدة الإسلامية ، وهي وغيرها من الاسباب الممنوعة تصيب الجسم الجماعي ، كما تصيب الأمراض جسم الحي تكمن فيه ، وما دام الجسم قوياً ، فان حيويته تخفيها ، فإذا كان الضعف ، ووهن العظم وعرق اللحم فانه حينئذ تظهر الأمراض ، ويتضاعف الوهن ، ويمتد التخاذل ، وتتقطع الأوصال ، وكذلك قد كان على ما سنين إن شاء الله تعالى :

روي أن النبي ﷺ قال : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وفي بعض الروايات عدم ذكر النصارى ، وفي بعضها زيادة كلها في النار إلا واحدة .

وقال القسبي في كتابه « العلم الشامخ » حديث افترق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً ، بحيث لا تبقى ربيعة في حاصل معناه .

وإن ذلك الحديث الذي تركى رواياته بعضها ببعض لا نرى أن كلمة سبعين للاحصاء ، وإن كان التتبع والاستقراء قد يصل بها إلى ذلك العدد ، ولكن نقول إن العدد للكثرة ، وقد تكون فوق السبعين ، فان عدد السبعين يذكر في اللغة للتكثير . قال تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

وإن نشأة الفرق الإسلامية ابتدأت غير عربية ، واننا اذ نرجع إلى الوراثة قليلاً نجدها كذلك ، والوقائع تؤيد ما نقول .

إن الدعوة لعلي كرم الله تعالى وجهه في عهد ذي النورين عثمان رضي الله

تبارك وتعالى عنه ابتدأت في الامصار باشاعة السوء عن ولاة سيدنا عثمان رضي الله عنه ، ومن أظهر من تولوا كبر هذا عبد الله بن سبأ اليهودي فقد أخذ هو ومن معه يشيعون قالة السوء عن عثمان وشيعته ويذكرون بالخير علياً وآله .

ومن هذا المنبت غير العربي نبتت نابذة الشيعة .

وإن من الشيعة من يرجع بتاريخ ابتداء التشيع إلى وفاة النبي ﷺ ، إذ أن فريقاً من الصحابة كانوا يرون علياً أولى بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنهما ، وذكروا أن من هؤلاء الزبير بن العوام ، وعمار بن ياسر ويعبد ابن أبي الحديد في شرحه لمنهج البلاغة عدداً كبيراً .

ويزعمون بذلك أن منبت التشيع عربي قرشي ، وليس فارسياً كما يذكر الكثيرون من المؤرخين ، وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فإنه من المؤكد الواقع أن التشيع لم يظهر كفرقة قائمة بذاتها إلا في آخر عهد علي كرم الله وجهه في الجنة وكان الغلو معه وعلى كل حال هو لم يظهر على أشده إلا بعد مقتله كرم الله وجهه في الجنة ، واشتد وتزايد بعد مقتل الحسين رضي الله عنه وصلى الله تعالى على جده وسلم ، وبكته الأمة كلها .

وإنما يعون الله تعالى نتعرض في بحثنا هذا إلى الفرق السياسية ، فإنها هي التي كانت تثير الفتن ابتداء ، ثم صارت من بعد ذلك جرحاً في جنب الدولة ، حتى تمزقت مزقاً وتفرقت دولاً ، أو جزيئات من دول وأظهر الفرق السياسية التي ظهرت .

الشيعة والخوارج :

٨٨ — نبتت نابذة الفرقتين في وقت واحد وهو خلافة علي كرم الله وجهه ، وفي حربه مع البغاة عقب واقعة صفين التي أثار بها معاوية الفتنة في جيش علي كرم الله وجهه في الجنة وجزى الله الذين وضعوا أول ثلثة في الإسلام ، وإن هاتين الفرقتين وغيرهما من الفرق التي تجعل جزءاً من عملها سياسياً

تجعل الدين أساساً فيها تدور حول محوره ، فتبعد عن لب الدين أو تقترب ، ولكنها في حالي القرب والبعد تجعل الدين هو الأساس الذي تبني عليه قولها في السياسة .

ولذلك كان يفترون بآرائها في السياسة الدينية آراء في الاعتقاد ، فكثرة الشيعة تنحو نحو المعتزلة في آرائهم في الاعتقاد ومنهم من يدرسون الفروع دراسة علمية مبناها مذهبهم الذي يعتنقونه ، ولذلك وجدت آراء للشيعة نسبوا أصولها الى الإمامين زيد بن علي زين العابدين ، وأبي عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين وقد أثر عن الخوارج الإباضية آراء في الفروع تابعوا فيها إمامهم عبدالله بن إياض .

الشيعة والدولة التي قامت بأسمها :

٨٩ - الشيعة كما ذكرنا ، وكما يقرر علماء تاريخ الفرق أقدم الفرق الإسلامية وقد أشرنا الى أنهم ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان رضي الله عنه ، ونما وترعرع في عهد علي كرم الله وجهه في الجنة ، إذ كان كلما اختلط رضي الله عنه بالناس وخاطبهم ازدادوا إعجاباً به .

ولما جاء العصر الأموي وقعت المظالم على العلويين واشتد نزول أذى الأمويين بهم فتأثرت دقاتن المحبة لهم ، ورأى الناس في علي وأولاده شهداء هذا الظلم فاتسع نطاق التشيع وكثر انصاره .

وقوام هذا المذهب المبادئ الآتية :

أولها - أن الإمامة لا تفوض الى نظر الأمة ، لأنها ليست من المصالح التي تفوض للناس ، ويتمين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يمكن اغفالها بل يجب تعيين الإمام لهم من النبي ﷺ ويكون معصوماً من الكبائر (١)

(١) مقدمة ابن خلدون .

ثانيها - أن علي بن أبي طالب كانت هو الخليفة المختار من النبي ﷺ ، ويدعي الشيعة أنهم ليسوا وخدم الذين قالوا ذلك بل ادعوا أنه كان يقول ذلك عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي وجابر بن عبدالله ، وأبي بن كعب ، وحذيفة بن اليمان ، وبريدة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن النبتان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير بن العوام من القائلين ذلك ، ثم رجع ومن بني أمية سعيد بن العاص .

المبدأ الثالث : تفضيل علي على كل الصحابة :

والشيعة ليسوا على رأي واحد بعد اتفاقهم على المبادئ السابقة ، بل منهم الغالون في تقدير علي وبنيه ، وروي عنهم أنهم يكفرون الشيخين أبابكر وعمر . ومنهم المعتدلون المقتصدون ، وقد حكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة تحلة المعتدلين الذين يعد نفسه منهم ، قال : « كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلاص والفوز في هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقاً مقتصدة .

قالوا : هو (أي علي) أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلام منزلة في الدنيا وأكثرهم خصائص ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو الله سبحانه وتعالى ، خالد في النار مع الكفار والمنافقين إلا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توبته وحببه ، فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين أوتوا الأمانة قبله ، فلو أنكر إمامتهم ، وسخط فعلهم ، فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله ﷺ ، لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ وآله قال : « حريك حربي وسلمك سلمي » ، وأنه قال : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، وقال له : « لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » ، ولكننا رأيناه رضي إمامتهم وبايعهم ، وصلى خلفهم ، وانكحهم وأكل فيهم ، فلم

يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، الا ترى انه لما برىء من معاوية برئنا منه ولما لعنه لعناه ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبدالله ابنه ، وغيرهما حكنا أيضاً بضلالهم ، والحاصل اننا لم نجعل بينه وبين النبي ﷺ وآله إلا رتبة النبوة وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ، ولم نطعن في أكبر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم به عليه السلام (١) ..

وإن هذا الذي ذكره ابن أبي الحديد هو مذهب الإمام زيد رضي الله عنه الذي ذكر عنه، بيد أن الإمام زيداً رضي الله تبارك وتعالى عنه صرح بأمرين لم يصرح بهما ابن أبي الحديد أولهما أنه تجوز امامة المفضول ، ولذلك جوز امامة أبي بكر وعمر وإن كان علي أفضل منها في نظر الشيعة جميعاً ، وهذا فهم ضمننا من كلام ابن أبي الحديد ، وإن لم يصرح به لانه ذكر أن علياً كرم الله وجهه في الجنة بايعها بإمامتها .

وثانها - أن الزيدية يشترطون أن يطالب من يكون إماماً بالدعوة لنفسه، فليست الإمامة بوصاية من النبي ﷺ ، ولكنها بالاختيار من أولاد علي من فاطمة وذريتهم .

هذا وإن الشيعة كان لهم أثر في وحدة الأمة وكان منهم أمراء في بعض البلاد الإسلامية فكان منهم ببلاد المغرب ، وكان منهم بمصر ، وكان منهم باليمن، وقد امتد تاريخهم في اليمن إلى الإمام أحمد بن يحيى الذي ينسب إلى الإمام الهادي ، وكان يأخذ بمذهب الشيعة الزيدية ، وهو من أئمتهم .

وكان منهم من كان له أثر في أيام التتار مما قد نعرض له في عصر الفرقة وآثارها ومن أجل هذا وجب ذكرهم ببعض من التفصيل الموجز المناسب .

(١) شرح منهج البلاغة لابن أبي الحديد .

ولسنا نتعرض لفرق الخوارج ، لأنسه قضي على دعواتهم ، ولم يكن لهم من بعد ذلك إلا فرقة في جنوب الجزائر تنسب الى عبدالله بن إباح ، لأن لها مذهباً فقهياً فهي باقية ببقائه .

فرق الشيعة :

٩٠ - تعددت فرق الشيعة على نحل مختلفة ، منهم الغلاة ، ومنهم أمة مقتصدة ، كما ذكرنا ومنهم من خرجوا بتشيعهم عن الإسلام ، لانهم ألهوا علياً رضي الله عنه واعتقدوا بجلول الألوهية فيه وفي الأوصياء من بعده ومنهم من قال إن النبوة كانت لعلي ثم أخطأ جبريل ، ونزل على محمد ، لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب ؟ .

ولكن الشيعة في العصر الحاضر ينكرون أن أولئك منهم ونحن نضرب صفحاً عن ذكرهم ما داموا ينكرون أنهم منهم ، ولنقتصر على ذكر من لا يجدون محيصاً عن الاعتراف بهم .

وإن الذين يعتبرونهم ليسوا أمة واحدة ، بل منهم غلاة ، وإن لم يخرجوا عن نطاق الإسلام ، ومنهم مقتصدون يقربون من الجماعة الإسلامية .

وانا نذكر الذين لم يخلعوا الرتبة ويعدون من أهل القبلة .

الكيسانية :

٩١ - وهم أتباع المختار بن عبيد الثقفي ، وقد كان خارجياً ثم صار من شيعة علي كرم الله وجهه وقد قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل الذي أرسله الحسين بن علي رضي الله عنهما ليعلم حالها ، ويُعلم ابن عمه بأمورها .

ولكن قبض عليه عبيد الله بن زياد والي الكوفة من قبل يزيد بن معاوية وضربه وحبسه ، إلى أن استشهد الحسين وارتكب كبر هذا عبيد الله بن زياد ولذا قال الحسن البصري باكياً . « ماذا دهمى هذه الأمة قتل ابن دعيها ابن نبيها ، والداعي هو زياد ابن أبيه ، وابن النبي الحسين .

وقد شفع للمختار زوج أخته عبدالله بن عمر ، فأطلق سراحه ومنذ ذلك الوقت ، أخذ يعمل على الأخذ بثأر الحسين إما انتقاماً لنفسه لحبسه ، وإما غضبة لله ولقد أثر عنه أنه قال وهو عائد الى الحجاز .

« سأطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن علي ، فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل علي دم يحيى بن زكريا » .

ثم لحق بابن الزبير وبايعه-على أن يوليه أعماله إذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام الى أن مات يزيد ثم عاد إلى الكوفة .

عاد الى الكوفة على أنه مبعوث من محمد بن الحنفية الذي سماه المهدي ، وقال للناس : المهدي الوصي بعثني إليكم أميناً ووزيراً، وأمرني بقتل الملحدين، والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، وقد ذكر محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب لأنه ولي دم الحسين إذ هو كان أقرب آل البيت الراشدين إليه من الرجال ولأن ابن الحنفية كان ذا منزلة بين الناس وكان كما قال الشهرستاني في الملل والنحل : « كثير العلم غزير المعرفة رواد الفكر ، مصيب النظر في العواقب ، وقد أخبره أبوه أمير المؤمنين علي أبي طالب رضي الله عنه أخبار الملاحم » .

ولكن المختار لم يلتزم بعد ذلك الجادة والاعتدال في دين الله تعالى وأخذ يتكهن ويسجع سجع الكهان ولذلك أعلن محمد بن الحنفية البراءة منه على الملأ من الأمة ، إذ عرف خبيثة نفسه .

ومما قال المختار : « أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، ومهند بتار » .

وقد أخذ المختار يحارب أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع فيهم ، ولم يعلم أن أحداً اشترك في الجيش الذي استشهد فيه الحسين إلا قتله ، فحبيه ذلك في نفوس الناس ، فالتفوا حوله ، وقاتلوا معه .

ولكن أرسل إليه عبدالله بن الزبير أخاه مصعب لما تفاقم أمره ، وقاتله وقتله بعد أن انتصر عليه وخلاصة مذهب المختار هذا الذي هو مذهب الكيسانية .

وخلاصة المبادئ التي يؤمن بها الكيسانية ما يأتي :

أولها - أنهم يؤمنون برجعة الإمام الذي اختير من النبي ﷺ ، ثم كان الاختيار على من بعده ، فكان الأول علياً والثاني الحسن والثالث الحسين ، والرابع محمد بن الحنفية .

ويقول في ذلك شعراً :

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يتبعه اللواء
تقيب لا يرى عنهم زماناً	برضوى عنده غسل وماء

وثانيها - البداء ، وهو أن الله سبحانه يغير إرادته تبعاً لتغير علمه ، وقد أخذ بهذا غيره من الشيعة لأنه كان يدعي الاخبار عن المغيب في المستقبل فيخبر فتجيء الوقائع بغير ما أخبر ، فيقول قد بدا لربكم .

والمبدأ الثالث :

أنهم قالوا بتناسخ الأرواح كالهنود، وهو خروج الروح من جسد ، وحلولها في جسد آخر ..

ونكتفي من الكيسانية بهذا القدر ، لأنهم طائفة انقرضت ، ولم يكن لها شأن من بعد في تاريخ الوحدة الإسلامية سلباً أو إيجاباً، وقد غرهم التاريخ، فلم يعرف لهم في ثناياه أتباع .

الزيدية :

٩٢ - وهم الذين ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين الذي خرج على هشام بن عبد الملك ، وخذله أهل العراق ، فقتل في سنة ١٢٢ هـ .

وقد كان خروجه على أثر مشادة عنيفة بينه وبين هشام بن عبد الملك .

وإن مذهب الإمام زيد رضي الله تبارك وتعالى عنه أقرب المذاهب إلى الجماعة في الإمامة ، وهو مختلط في الفروع بمذهب الجماعة ، وقوام المذهب الزيدي كما روي عن الإمام زيد يتلخص في المبادئ الآتية

أولها : أن الإمام معرف من النبي ﷺ بوصفه ، لا باسمه وأوصاف الإمام التي قالوها : انه لا بد أن يخرج للناس ، ويباعوه ، وأن يكون علويًا فاطميًا ، ورعًا ، عادلاً ، سخيًا ، يخرج داعيًا الناس لنفسه وقد خالفه في شرط الخروج داعيًا بعض الشيعة ، وناقشه في ذلك أخوه محمد الباقر ، على قضية مذهبك والدك ليس إماماً فإنه لم يخرج .

ثانيها : أن هذه عندهم هي للإمام الأمثل الذي لا يتصور في الإمامة أعلى منه .

ثالثها : انه تجوز امامة المفضول ، إذا اختار أهل الحل والعقد ذلك ، فإذا اختاروا إماماً لم يستوف بعض هذه الشروط وباعوه صحت إمامته ، ووجبت طاعته ، ولزمت العامة بيعته ، ولذا لم يكفر ولم يفسق الإمامين أبا بكر وعمر

وكان زيد يرى أن علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبي بكر ، لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطبيب قلوب العامة فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً وسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام من دماء المشركين لم يحف ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون انقياد بهذا من عرف

باللين والتودد والتقدم بالسَّنْ ، والسبق في الإسلام ، والقرب من رسول الله ﷺ (١) .

ولكن الذي ظل راکزاً في نفس شيعة العراق هو ألا يقر شيعة بامامة الشيخين

قال البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق

« لما استمر القتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمر الثقفي ، قالوا إننا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب قال زيد « إني لا أقول فيها إلا خيراً ، وإنما خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ففارقوه عند ذلك .

وكان الامام زيد رضي الله تبارك وتعالى عنه يرى جواز اقامة امامين إذا تباعدت الاقاليم ، ونحن نرى أن ذلك يتنافى مع الوحدة الإسلامية التي ندعو إليها ، إذ أنه يجب أن يكون الراعي للمؤمنين واحداً ، ولا تتحقق الوحدة ، إذا توزعت الإمامة .

ونحن نرى أنه لا يجوز النزاع بينها حرصاً على الوحدة . لأنه أول إمام بارز بين أئمة الشيعة بل بين علماء المسلمين ، دعا الى الوحدة الإسلامية أو بعبارة أدق دعا الى ألا تفترق الأمة الإسلامية وكان يقول رضي الله تعالى عنه وعن آبائه الكرام « لو أني علقت في الثريا ، وقطعت جزءاً جزءاً على أن تجتمع أمة محمد ﷺ ، لرضيت » فكيف يقال إنه يجوز الفرقة ، وقد كانت نبئت نابقتها ولم تكن قد تجاوزت كل معقول إسلامي والأحاديث النبوية تمنع ذلك منعاً باتاً .

٩٣ - ولقد كان أتباع المذهب الزيدي قليلين ، ولكنهم كانوا يعملون

(١) الملل والنحل للشهرستاني عند الكلام في فرقة الزيدية .

ويظهرون بناء على مذهبه من وجوب أن يظهر الإمام معلناً نفسه داعياً .
وقد ظهر من بعد مقتل زيد ابنه يحيى ، خرج على الأمويين ولكن قتل
في آخر عهد الأمويين كما قتل أبوه من قبل .

والمذهب يجعل أولى الناس بالخلافة أبناء علي من فاطمة ، سواء أكانوا من
ذرية الحسين أم كانوا من ذرية الحسن ، ولذا خرج ولدا عبد الله بن حسن ، علي
المنصور وخرج عليه بالمدينة محمد النفس الزكية ، وقيل إن دعوته كانت مبنية
على أحقيته أولاً ، وعلى ظلم أبي جعفر المنصور ثانياً ، وأن بيعته أخذت
بإكراه ثالثاً .

ولقد كان الإمام مالك بالمدينة يروي أحاديث رسول الله ﷺ ويدرس
مسائل الفقه ، فروى حديث : ليس لمستكره يمين ، فكان يعتمد على ذلك
محمد النفس الزكية ، وقد نهى مالك عن روايته ، فلم ينته ، وكيف يتمنع
إمام دار الهجرة عن رواية حديث الرسول .

ولذلك أنزل أبو جعفر المنصور بالإمام مالك أشد الأذى بعد مقتل محمد
النفس الزكية . أما أخوه إبراهيم فقد خرج بالكوفة ، وكان الإمام أبو حنيفة
يؤيده في مجالسه العلمية ، وقد أخذها عليه أيضاً أبو جعفر المنصور ، وكان
يتربص به حتى أنزل به أذى ، إذ سجنه سجنًا اتصل بموته ، وكان يضربه
أعوان أبي جعفر في محبسه ، ولم يرحموا شيخوخته .

وهكذا نجد أن ذلك المذهب كان له أثر في استنكار ظلم الخلفاء ، وكانت
الدعوة العملية التي اشتهر بها تجمله واضح الحركات ، ولم يكن كل عمل أتباعه
في بث النحل الهادمة في نفس الشعب ، كما نسب إلى غيره من دعاة التشيع
الآخرين وإن كانت قد ظهرت من بعد ذلك ، ففي دول منفصلة ، لا في
انتفاضات تذهب بعد الهزيمة ، وإن كان للمذهب الزيدي دولة من بعد ، كما
سنشير .

الجارودية :

٩٤ - وان المذهب ، وإن كانت له بعض تلك المظاهر العملية ، فإنه أخذ بعد مقتل عبد الله بن حسن يتغير عند بعض أتباعه بالأخذ من الشيعة الإمامية كما سنين .

فقد ظهرت فيهم فرقة الجارودية وهم أصحاب أبي الجارود بن المنذر العبدي ، وقد خرجوا عن آراء الإمام زيد ، وإن قالوا بإمامته ، فقد قالوا إن الرسول نص على الإمام بالوصف ، وقالوا إن إمامة غيره لا تجوز ، لأن الوصف كان واضحاً لا ينطبق على غير علي ، وحكموا بأن الصحابة ضلوا إذ اختاروا غيره ، وبذلك رفضوا إمامة الشيخين ، وكانوا بذلك من الرافضة ، والإمام زيد لم يقرر أن هناك مهدياً من العلويين وسيظهر في آخر الزمان ، فزاد هؤلاء ذلك ، ويقولون برجة الإمام كالإمامية .

والجارودية قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كثيراً . ويقول النوبختي فيهم : سموا كلهم في الجملة زيديّة إلا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام ^(١) .

السليمانية :

٩٥ - وهؤلاء أشد استمساكاً بآراء الإمام زيد من الجارودية، وإن خالفوه في بعض الأمور ، وهم أصحاب سليمان بن جرير ، وكان يقول : « ان الإمامة شوري فيما بين الخلق » (ويصح أن تعقد الخلافة يعقد رجلين من الأمة على أن يكونا من خيار المسلمين) .

وإمامة المفضول تصح عند هؤلاء كالإمام زيد مع وجود الأفضل ، وان الامامين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان لاختيارهما اجتهداً منهما ومن

(١) فرق الشيعة للنوبختي ص ٥٠ طبع استانبول .

بايعوها ، وهو خطأ لا يصل إلى درجة الفسق ، وأنهم لذلك ينزهون أنفسهم عن الطعن فيها ولكنهم يتناولون بالطعن ذا النورين عثمان بن عفان ، ويكفرانه ويندب بهم الغلو المذهبي إلى أن يكفروا أم المؤمنين عائشة ، وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » .
وقد استنكروا على الإمامية والكيسانية القول بالبداء ، كما استنكره الإمام زيد .

واستنكروا مبدأ التقية بغير ضرورة ملجئة ، لأنهم وجدوا الذين يدعون الاخذ بالتقية ، يقولون ما يكون مما لآلة للظالمين ، وليس بحق ، ولا ضرورة تدعو إلى القول ، فإذا أقيم الدليل على بطلانه ادعوا أنهم قالوا ما قالوا تقية .
وأن القول بمالأة انما كان من المدعين للتشيع لا من آل البيت أنفسهم ، رضوان الله تبارك وتعالى عنهم .

البترية :

٩٦ - وهم أتباع كثير النووي الأبر ، وقد وافقه على رأيه الحسن بن صالح ابن حي ، ولذا يقال لهذه الفرقة البترية والصاحية .

وهم في آرائهم كالسليمانية ، ولكنهم لم يكفروا سيدنا عثمان رضي الله عنه ، بل توقفوا في شأنه ، وقالوا إن ماضيه يجعله من أهل الجنة فهو من العشرة المبشرين بالجنة . وكان له فضل في نصره الإسلام بما له من مواقف سامية .

ولكنه في خلافته ولي الظالمين من بني أمية ، وترك شوري عمر ، فتحيروا بين ماضيه قبل الخلافة وحاله في نظرهم بعدها فتوقفوا واكلوا أمره إلى أحكم الحاكمين .

وجوزوا إمامة المفضول وترك الأفضل ولكنهم اشتراطوا رضا الأفضل ، وقد يكون اختلاف بين نظرهم ، وما روي عن الإمام ، فالإمام زيد نظر

إلى المصلحة ، لا إلى رضا الإمام على المجرد ، وإن كان كلامه قد يفيد أنه أقر إمامة الشيخين لرضا من علي كرم الله وجهه . ولقد اشترطوا في ولاية الامام صباحة وجهه ، وهو شرط أولوية ، فاذا دعا اثنان لأنفسهما بالخلافة وقد تساويا في كل شيء ، ولكن أحدهما أصبح من الآخر ، كان أولى . وقد جوزوا أن يكون ثمة إمامان من أولاد فاطمة ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ويقولون قولاً غريباً ، وهو أنه يجوز أن يفتي أو يحكم أحدهما بغير ما يحكم الآخر ، وكل منهما يصيب في اجتهاده ، وإن أفتى باستحلال دم الآخر (١) .

وهذا رأي غريب ، وهذا يؤدي الى أن يستحل فريق من المسلمين دم الآخرين وكيف يستباح دم مسلم بالرأي ، ثم ان هذا الرأي يؤدي الى الفقرة التي لا يقبلها الامام زيد الذي كان يود جمع المسلمين ، ولو كان بتعليقه في الثريا وتقطيعه جزءاً جزءاً .

وان الذي يتصور مع الوحدة الاسلامية بالنسبة لوجود امامين هو أن يكون كل واحد منهما في اقليم من الارض ويتعارفان ولا يتنافران ، كما حدث في تاريخ الزيدية في الحكم على ما سنبين ، إن شاء الله تعالى .

ولقد وصف الشهرستاني رأي هذه الطائفة من الزيديين في قولهم في الامامين بأنه « خبط »

تقام دول على أساس المذهب الزيدي

٩٧- في القرن الثالث الهجري أخذت يد العباسيين تهن عن أن تدبر دولة الاسلام التي صارت تمتد من بحر الظلمات غرباً الى الصين شرقاً ، فكانت الاجزاء المتطرفة تتناثر من قبضتها جزءاً جزءاً .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٢١٨ هامش الفصل .

وفي ذلك العصر (القرن الثالث الهجري) . كانت الدولة معرضة لمذهبين أحدهما يبني والآخر غير ذلك ، أما المذهب الذي يبني فهو المذهب الزيدي ، وأما المذهب الآخر فهو مذهب بعض الغلاة من القرامطة .

والمذهب ظهر منه إمامان جليلان امتازا بالعلم وقوة الدين - أولهما - أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن ، وينتهي الى الحسن رضي الله عنهم جميعاً ، ويلقب في التاريخ الزيدي بالأطروش ، لطرش أصيب به ويسمى الناصر الكبير تمييزاً له عن جاء بعده باسم الناصر .

ولد سنة ٢٠٣ من بعد الهجرة وتوفي سنة ٣٠٤هـ، وقد كان الذين يظهرون ويعلمون أنفسهم من الزيدية ، يقاتلون ويقتلون أما هو فقد اتخذ العلم سبيله ، ولم يظهر بنحلة سياسية ، وان كان علمه في العقائد والفروع على مقتضى المذهب الزيدي . وقد تتبعه العباسيون ليقتلوه ، وخصوصاً المتوكل الذي كان ناصبياً ، ناصب آل علي العداء ، ففر الى أرض الجبل والديلم ، وكان أهل هذه البلاد غير مسلمين ، فاتخذها مستقراً لدعايته إلى الاسلام ، وتعليمهم فروعه على أساس المذهب الزيدي ، فكان بذلك ينشر الاسلام ، وينشر العلم الزيدي معه ، واستقر له الحكم بالخلافة الاسلامية وبهذا يعد الناصر محيي الامامة الزيدية وأول إمام استقامت له الامامة في بقعة من الارض وان كانت نائية . ولقد قال في ذلك الشهرستاني « لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر في خراسان ناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل فاختفى ، واعتزل الى بلاد الديلم والجبل وهم لم يتحلوا بدين الاسلام ، فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن علي ، فدانوا بذلك ونشؤوا عليه ، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرة ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الائمة ، ويولي أمرهم ^(١) »

إذن هؤلاء الزيدية اضافوا إلى الاسلام بلاداً ، ولكنها مستقلة عن الدولة

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢١١ على هامش الفصل .

العباسية التي كانت تتبع الزيدية ، وتقتلهم . فأنشؤوا لأنفسهم إمامة ، وتولوا
اماماً بعد امام .

ولا نستطيع أن نقول ان إنشاء هذا الإقليم وقيام دولة شيعية زيدية فيه
اقتطاع جزء من الدولة الكبرى للإسلام ، ولكن بلا ريب يتنافى مع الوحدة
الإسلامية الجامعة التي لا تختلف فيها النزعات الدينية ، وإن كان ذلك لم
يصحبه تناحر أو تنازع مع الدولة العباسية التي كانت تضم الجماعة الكبرى
الإسلامية ، قبل أن تتفرق عنها الاقاليم .

الهادي :

٩٨ - في الوقت الذي كان ناصر الأطروش ينشئ ملكاً سماه إمامة زيدية
في الديلم ولم يكن تابعاً لبني العباس كان الهادي ينشئ دولة في اليمن ، والهادي
ينتهي في نسبه الى الحسن بن علي ، وقد ولد في سنة ٢٤٥هـ وتوفي سنة ٢٩٨هـ
أي أنه عاش نحو ثلاث وخمسين سنة ، أنشأ دولة أو إمامة كانت باقية آثارها
الى سنة ١٣٨٠ هـ . وقد ولد بالمدينة ، وقام هادياً مرشداً يدعو الى الله والى
طريق مستقيم ، وكان فقيهاً باحثاً يرجع اليه العلماء من كل الطوائف الإسلامية
يسألونه ، فيجيبهم ، ويستفتونه فيفتيهم ، وكان يرد برسائل قيمة أثرت عنه ^(١) .

وقد ذهب الى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ، فوجد فيها أرضاً خصبة ، فبذر فيها
بذراً طيباً نقياً من العلم السلفي الصالح وكان يبيت المذهب الزيدي النقي في لبابه .
وقد عاد الى الحجاز بعد أن تعلقت به القلوب ، وصار له اتباع من
أهل اليمن .

واليمن في هذه الأيام لم تكن محل عناية ملوك بني العباس ، وقد استغل
ذلك قوم ، اشتهروا في التاريخ الإسلامي باسم القرامطة ، فكانوا يساورون

(١) راجع بعض هذه الرسائل في كتاب الإمام زيد لعمد أبي زهرة .

اليمن ، ويريدون أن يقتلعوه من الحكومة العباسية ، والأهالي يتبرمون بالقرامطة وما يفعلون .

لذلك اتجهوا الى الهادي وأرادوه إماماً لهم ، فذهبوا اليه في بلاد الحجاز ، وأخرجوه من محرابه في المدينة الطاهرة - وفاء إليهم . فبايعوه على الامامة ، فعاهدهم عهداً سلفياً وقال فيه :

« أيها الناس اني اشترط لكم أربعاً على نفسي . الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله بيني وبينكم ، أوثركم فلا أفضل عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلي ، وأتقدم عليكم عند لقاء عدوي وعدوكم وأشترط لنفسي عليكم اثنتين : النصيحة لله في السر والعلانية ، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله تعالى فيكم فان خالفت فلا طاعة لي عليكم وإن ملت وعدلت عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فلا حجة لي عليكم فهذه سبيلي أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعني . »

بهذه البيعة تقدم ، وأخذ على نفسه ما أخذ من العهود ، ووفى ، وحاول أن يجمع بين المسلمين ، وكان يقول « لوددت أن الله اصلح هذه الأمة ، وأني جُعنت يوماً وشبعت يوماً » .

وبهذا يتبين أنه ما أراد ملكاً ، إنما أراد إصلاح الأمة ، وإرادة اصلاحها جمع كلمتها ، وتحقيق وحدتها ، كما تركها النبي ﷺ والراشدون من بعده .

وان الإصلاح لا يكون إلا بالعدل ، وتوزيعه بالقسطاس بين الناس ، ليطمئنوا ، وإذا اطمأنوا ائتملوا وإذا ائتملوا كانت الوحدة قريبة ، ولا تكون بعيدة غير دانية .

وعلى رأس العدالة - العدالة الاجتماعية ، فنظم بيت المال وجمع الزكوات وبعد أن أقام العدل عمل على وحدة اليمن ، وما يحاورها من البلدان ، وضم نجران إلى اليمن .

وأقام الحدود كلها ، ولم يعف منها كبيراً لكبره ، بل نفذها في غير هواة وبعد أن جمع القلوب ، وأقام العدل ، ونفذ الشرع اتجه إلى الجهاد فجاهد القرامطة ، وقد أخذوا يعيشون في الأرض فساداً .

ولقد وقّع الإسلام بين الغلاة في الشرق والغرب ، ففي الغرب كان القرامطة ، يساورون حدود اليمن ويريدون أن يقنصوها من حاكم بغداد الذي كان لا يزال يسمى نفسه خليفة ، وإن وهنت يده عن أن تقبض على ناصية في أرضه .

وفي المغرب كان الباطنية الذين أنشأوا الدولة الفاطمية ، واستولوا على مصر ، وشرق ملكهم وغرب ، تقدم الهادي للقرامطة ، وحاربهم خمس سنين دأباً .

وقد جرح سنة ٢٩٨ ، ومات من بعد ذلك راضياً مرضياً .

دولتان منفصلتان عن حكم بغداد :

٩٩ - ونلاحظ هنا أن الزيدية أقاموا دولتين : إحداهما دولة الناصر الأطروش ، وأقامها في الديلم والجل وتعاقب فيها من بعده خلفاؤه ، ولا نقول انه انتزعها من ملك العباسيين ببغداد ، ولكن نقول انهم أقاموها في مكان لا سلطان لأحد من المسلمين عليه ، ولم يكن بينهم وبين الحكم العباسي مغالبة .

والثانية في اليمن : وقد أقامها الهادي ، واستمرت قائمة الى حوالي سنة ١٣٨٠ هـ وآخرهم أحمد بن يحيى وقد تخلفت في آخر عهدهم .

ولا يقال انهم انتزعوها من أيدي العباسيين ، لأن القرامطة قد غلبوا على ما حولها وكانوا يقصدون أن يغلبوا عليها ، فجاء الهادي وخلفاؤه فأزالوهم ، حتى كانت جهودهم من بعد في المغرب . ونلاحظ هنا أيضاً أن الأطروش ، والهادي ، كلاهما كان يلقب بلقب الإمامة ، ولم يكن له تبعية للدولة العباسية في العراق .

وكلا إمامي الزيدية كان يعترف لصاحبه ، وان ذلك فيه تطبيق للمذهب الزيدي الذي يميز إقامة إمامين في قطرين متباعدين .

وإن الأسباب قد توافرت لاقامة هاتين الدولتين ، فالناصر أدخل الإسلام في اقليم لم تمتد اليه يد الدولة العباسية التي قصرت في ذلك الإبان والهادي نشر راية العدل والاصلاح في وسط التخاذل والفساد ، وأزال القرامطة من حكمه .

فلم يمكنهم من أن يقطعوا البلاد لغالبية الشيعة كما كان حكم الباطنية في الغرب الذي انحدر الى مصر ، ثم اجتازها إلى الشام وبذلك تقطعت الدولة الإسلامية وذهبت الوحدة .

الامامية من الشيعة

١٠٠ - هذه الطائفة التي تحمل اسم الشيعة الإمامية يدخل في عمومها أكثر المذاهب الشيعية التي سارت في التاريخ ، ولا يزال كثيرون منها إلى الآن في العالم الاسلامي في ايران والعراق ، وما وراءها من باكستان واندونيسيا والهند .

ويدخل في حكمها طوائف لم تنحرف في اعتقادها إلى درجة أن تخالف نصاً من نصوص القرآن ، إلى أي أمر علم من الدين بالضرورة . وتشمل طوائف أخرى فيها انحراف شديد .

والجامع لهؤلاء المقتصد منهم في الاعتقاد والقول ، وغير المقتصد هو اسم الامامية .

وأنهم يقولون أن الأئمة عينوا من النبي ﷺ بالشخص ، لا بالوصف ، فعين النبي ﷺ علياً وهو يعين من بعده بوصية من النبي ﷺ ، وكذلك من بعده الخ . وقد أجمع الامامية على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وأنها

قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي ﷺ نصاً ظاهراً وبقيناً صادقاً من غير تعريف بالوصف ، بل بالعين .

قالوا : « وما كان في الدين أمر أهم من تعيين الإمام ، حتى يفارق عليه السلام الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فانه إذا كان قد بعث لرفع الخلاف ، وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويترك الناس هملًا ، يرى كل واحد منهم طريقاً ، ولا يوافق عليه غيره ... بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعمول عليه ^(١) . وعلي هو الذي عين بنص نبوي .

ويستدلون على ذلك بأدلة من السنة ، يعتقدون صدق سندها ، وباستنباطات من أعمال النبي ﷺ ، اختص علياً كرم الله تعالى وجهه في الآخرة .

وليس هذا المقام مقام توضيح المذهب ، فليرجع اليه في مواضعه ^(٢) .

وكما اتفق الإمامية فيما بينهم على أن الامام علياً كرم الله وجهه وصي النبي ﷺ بالنص قرروا أن الأوصياء من بعد علي هم أولاده من فاطمة : الحسن ، ثم الحسين رضي الله عنهما ، ثم اختلفوا من بعد ذلك على فرق مختلفة في الائمة بعد هؤلاء ، بل قيل انهم اختلفوا من بعد ذلك على أكثر من سبعين فرقة . وأظهرها فرقتان ، وهما الباقيتان الاثنا عشرية ، والاسماعيلية .

الاثنا عشرية :

١٠١ - ترى الاثنا عشرية ان الاوصياء اثنا عشر وصياً ، وأن الوصي أو الإمام بعد الحسين ابنه علي زين العابدين ومن بعد علي زين العابدين محمد الباقر ابنه ، ومن بعد محمد الباقر ، جعفر بن محمد الباقر .

(١) الملل والنحل للشهرستاني .

(٢) راجع في هذا كتاب الفرق بين الفرق وكتاب تاريخ المذاهب الاعتقاد والسياسة لمحمد

ابي زهرة .

ومن بعد جعفر ابنه موسى الكاظم ، ثم علي الرضا ثم محمد الجواد ، ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري ثم محمد ابنه وهو الإمام الثاني عشر . ويعتقدون أنه دخل سرداباً في دار أبيه بسرّاً من رأى ، ولم يعد إلى الآن ، وقد اختلفوا في سنه عند اختفائه ، ف قيل كانت سنه أربع سنين ، وقيل كانت ثلثي سنين ، وقال بعضهم أو أكثرهم : كان في هذه السن عالماً ما يجب أن يعطه الإمام ، وان ذلك يتفق مع أصل المذهب في علم الأوصياء لأنهم يقولون : ان علمهم إلهامي لا كسبي .

وقال آخرون كان الحكم لأهل مذهبه .

والاثنا عشرية يوجدون الآن في العراق وعددهم كثير يقارب النصف وهم يسرون على مقتضى المذهب الاثنا عشري في عقائدهم ، ونظمهم في أحكام الأسرة من الزواج وأحكام الأولاد والموارث والوصايا والأوقاف والزكوات والعبادات كلها .

وكذلك أكثر أهل إيران على المذهب الاثنا عشري .

ومنهم من يقيمون في لبنان وسوريا وكثير من البلاد الاسلامية ، وهم على ود مع إخوانهم من أهل الجماعة ولا ينافرونهم .

وان الامامية الاثنا عشرية كغيرهم من الامامية يفرضون في الامام سلطاناً مقدساً يأخذه بإيضاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكما أن ولايته للامة كانت بوصاية تنتهي إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتصرفاته كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية .

ونكتفي من بيان المذهب بذلك وليرجع الى بقية البحث في مصادره .

الاسماعيلية :

١٠٢ - والاسماعيلية طائفة من الامامية كما ذكرنا ، وهي منبثة في أقاليم

متفرقة من البلاد الاسلامية ، وبعضها في جنوب افريقية ووسطها ، وبعضها في بلاد الشام ، وكثير منها في الهند ، وباكستان ، وكان لها دولة الفاطميين التي كانت من المغرب إلى مصر ، وحكمت معها الشام .

والقرامطة الذين سيطروا وقتاً ما على عدة أقاليم اسلامية كانوا منهم وإن لم تكن لهم دولة قائمة بذاتها وهذا المذهب ينتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وعند اسماعيل يفترقون عن الاثنا عشرية ، إذ يعدون الوصي بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم ، ثم تكون الوصاية من بعده في أولاده ، أما الاسماعيلية فيعدون اسماعيل هو الوصي بعد أبيه جعفر بن محمد .

ويلاحظ أن اسماعيل مات قبل أبيه جعفر ، ولكنهم قالوا ان جعفرأ نص عليه ، فكان إعمال النص بأن تبقى الامامة في عقبه ، فان النص الذي يقوله الامام إعماله أولى من إعماله إذ أن أقوال الامام عندهم كنصوص الشارع تماماً فلا عجب في قولهم هذا .

وقد انتقلت الامامة عن طريق اسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهذا أول الائمة المكتومين أو المستورين اذ هم يقولون إن الامام يصح أن يكون مستوراً ، ولا يمنع ذلك من امامته وتجب طاعته ومن بعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه الحبيب وبعده ابنه عبدالله المهدي الذي ظهر في شمال افريقيا وملك المغرب ثم كان من عقبه من انشأ الدولة الفاطمية في مصر .

وقد نشأ مذهب الاسماعيلية بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية ، واضطهد فيه كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية أو بالأحرى الرجال الذين كانوا يظهرون دعاة له .

وخرج المعتنقون له تحت تأثير الاضطهاد إلى بلاد فارس وخراسان ، وما وراء ذلك كالهند وتركستان وان هؤلاء الاسماعيلية قد اتصلوا بأهل المذاهب القديمة ، فاتصلوا بالكلدان والبراهمة والفلاسفة الاشرافيين ومنهم من أوغل في دراسة هذه المناهج ، ومنهم من أخذ منها وكان بمقدار إيغاله وأخذه يكون

بعده عن الاسلام أو قربه منه ، فبعضهم أخذ بقدر لم يفارق به الاسلام ، وبعضهم أخذ بمقادير جرتة الى الخروج عن الاسلام .

وانهم قد أحاطوا أنفسهم بالسرية في تفكيرهم ، ومبادلتهم الآراء ، وكانت تظهر أحيانا كما كان من القرامطة وغيرهم ، ولكنهم يبيتون ما يبيتون فما كانوا يستأنسون بالناس .

وانه بلغ لهم من الكتمان حد أن كانوا يكتبون الرسائل ، ولا يعلنون أسماء كاتبها ، كما ترى في رسائل اخوان الصفا التي اشتملت على علم غزير وفلسفة عميقة ، فقد ذكر المؤرخون انهم هم الذين كتبوها ، ولم يعرف العلماء الذين كتبوها ، وهي تشرفهم لو ظهوروا ، ولعلمهم معروفون عندهم ^(١) .

وقد سماوا الباطنية أو الباطنيين ، وذلك لاتجاههم الى الاستخفاء ، عن الناس وقد ابتدأ الاستخفاء بسبب الاضطهاد ، أو خشية الاضطهاد ، ولكنهم من بعد ذلك استمرؤوه وألفوه ، واتخذوه سبيلا للتدبير المحكم ومنهم طائفة سماوا في التاريخ باسم الحشاشين ، وقد ظهرت أعمالهم في إبان الحروب الصليبية وإبان حروب التتار وكان بعضها سوءاً على الاسلام والمسلمين ، وقد لاقى منهم صلاح الدين الأيوبي العنت الكبير .

ومن أسباب تسميتهم بالباطنية انهم قالوا بالإمام المستور ، وقد استمر امامهم مستوراً ، الى ان ظهر متغلبا في المغرب ، ثم اجتاز شمال افريقيا الى مصر .

ومن الاسباب أيضاً أنهم يقولون إن للقرآن ظاهراً ، وباطناً ، وان للباطن باطناً حتى نصل إلى سبعة بواطن وما عند الإمام من اسرار علم باطن . وقد شاركهم في هذا الاثنا عشرية ، وهو الجزء الخاص بعلم الباطن بجوار علم الظاهر .

(١) راجع في اخبار الاسماعيلية كتاب أصول الشيعة ، وكتاب تاريخ المذهب والاعتقادية السياسية لمحمد أبي أمين زهره ، والشافي للشريف المرتضى .

١٠٣ - وقد بنيت الآراء التي يعتنقونها على ثلاثة مبادئ ، شاركهم في بعضها الاثنا عشرية أولها - الفيض الالهي من المعرفة الذي يفيض الله تعالى به على الائمة فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس علماً واحتساباً ، وقرباً من النبي ﷺ ، وربه ، فعندهم علم الشريعة قد أوتوه دون الناس .

والثاني - ان الإمام لا يلزم أن يكون ظاهراً معروفاً ، بل يصح أن يكون خفياً مستوراً ، ومع ذلك تجب طاعته . وإن المهدي الذي يهدي الناس في قابل الأيام ، وان لم يظهر في جيل من الاجيال ، فانه لا بد ظاهراً من بعد ، ولن تقوم القيامة ، حتى يظهر ، ويملا الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً .

الثالثة - ان الإمام ليس مسؤولاً أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه فيما يقول من اقوال ، وفيما يأتي من افعال ، ففعله دائماً خير لا شرف فيه ، لأن عنده من العلم ما ليس عند غيره ومن هذا المبدأ قرروا أن الائمة معصومون ، لا بمعنى انهم لا يرتكبون خطايا فقط ، بل بمعنى أعمق من ذلك ، وهو ان ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه ويكون سائفاً بالنسبة لهم ، وليس سائفاً لغيرهم من الناس .

وليس في هذه المبادئ التي ذكرناها ما يخرجهم من إطار الاسلام الى غيره ، فليس فيها ما يصح أنه خالف أمراً صريحاً في الكتاب أو السنة .

ولا شك أن بعض نواحي التفكير التي عند الباطنية ليس فيها ما يصح أن يكون كفراً صريحاً ، وأقصى ما نقول فيها اننا لا نعرف بها كتاباً ولا سنة .

ولكن في أهل هذا التفكير وجدنا من خلعوا الرتبة ، وكانت السرية التي اتخذتها هذه الفرقة مدرجة لهذا الخروج ففي ظلها فرضت آراؤهم ، وكانت سبباً في أن وجد الحاكمية ، وهم أولئك الغلاة الذين تجاوزوا حدود الاسلام ،

ولقد غالى بعضهم في معنى الاشراق الروحي الالهي ، حتى زعم أن الاله يحل في نفس ، ودعا إلى عبادته (أي الامام) .

الحاكمية

١٠٤ - وانه كان على رأس هؤلاء الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تنسب اليه الطائفة الحاكمية وقد ادعى أن الاله حل فيه .

وقد اختفى الحاكم ، ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة ، وان الراجح أنه قتله بعض أقاربه ، ولكن أنكر مريدوه واتباع مذهبه الذي ظهر بعد موته - أنه مات ، وزعموا أنه يعيش مستوراً عن الناس ، وانه سيرجع وقد سميت الطائفة التي تتبعه بالحاكمية ، والدروز الذين يكثرون بלבنان وسوريا لهم صلة وثيقة بالحاكمية ، وان كنا نظن ان كثيرين منهم لا يقولون ما يقول الحاكم في الحاكم .

وان بعض المؤرخين يقول إن الذي وسوس إلى الحاكم أن يخرج على الناس بهذه الآراء الغالية رجل فارسي اسمه حمزة الدرزي .

ومهما يكن من أثر الحاكم ، فإن بعض الدروز يعلنون آراءهم ، ولا نجد فيها ما ينافي الإسلام ومنهم من كانت له مواقف مشهورة مذكورة في الدفاع عن الإسلام مثل المرحوم شكيب ارسلان ، وكثيرون يستخفون بأرائهم واعمالهم والله أعلم بحالهم :

ويجوار الحاكمية والدروز فرقة تسمى النصيرية لا تنسب نفسها للإسماعيلية ، والكلام في هذه الطائفة كثير ، ونضرب الآن صفحا عن ذكره ، وليرجع إلى الكلام فيها في مصادره (١) .

(١) مراجعة تاريخ المذاهب الاعتقادية والسياسية في الإسلام وكتاب ابن تيمية وكلاما لمحمد ابي زهرة .

نتائج الطائفية :

١٠٥ - كان يبدو بادي الرأي أن الاختلاف الطائفي اختلاف علمي ونظري فقط، والاختلاف النظري أو العلمي ليس من شأنه أن يفرق الجماعات، ولا يمزق الوحدة ، ولا يجعل بأسها بينها شديداً ، لأن الاختلاف العلمي لا يتجاوز مواطن التفكير ، ومواضع النظر .

ولكن الاختلاف الطائفي الشيعي أدى الى أن تنشأ دول تفك الوحدة التي عقدها النبي ﷺ . ووثقها عليه السلام ، بالاخاء ، وبالموالة ، كما أشرنا من قبل .

ولم تكن تبعة هذا الاختلاف أو الافتراق تقع على الشيعة وحدهم ، بل على العباسيين لأنهم لم يعالجوا الأمر بالتلاقي على أحكام القرآن والسنة ، بل عالجوه كما يعالج الملوك الخارجين عليهم بالقتال والقتل وبث العيون ، وتبعية الناس بالسعاية ونحوها .

فمهرروا في الاستتار والاستخفاء ودبروا مادبروا في ظل الكتمان ، واتخذوا من ظلامه درقة اتقوا بها سيف القتال ودبروا أمرهم ، وأحكموا التدبير . وصارت دعوى الإمامة متنازعة بين ثلاث دول متفرقة .

أولاهما : إمامة الناصر الأطروش في بلاد الديلم والجبل ، وهو يدعي أنه إمام ، وإن كان لا ينازع إمامة بني العباس ، لأنه في أرض ثانية عنهم ، وله فيها فضل الانشاء .

والثانية : إمامة الهادي ، وهي في اليمن ، وامتدت الى ما يحاوره ، ولم تكن لتنقص الأرض من أطرافها على بني العباس ، بل كان لها الفضل في القضاء على القرامطة الذين كانوا يقضون مضاجع العباسيين .

وما كان الامامتان ظهرتا في القرن الثالث الهجري ، وتوطدت دعائم الهادي ، حتى بقي ما سمي الإمامة الى بضع سنين خلت .

وفي القرن الرابع الهجري ظهر إمام الفاطميين الذي انبعث من بين الباطنيين أو الاسماعيليين وابتدأ حكمه في المغرب ثم انتقل إلى مصر ، وأخذ الشام ، واستمر حكمهم الى أن قضى عليهم الأيوبيون في القرن السادس الهجري .

وبذلك صارت الإمامة الى القرن السادس الهجري مضطرباً بين أربعة أئمة هم أمير المؤمنين العباسي والإمام الناصر الأطروش وذريته ، والإمام الهادي وذريته ، والمعز لدين الله وأولاده الى أن أдал الله منهم بالدولة الأيوبية .

وكان سلطان الخليفة العباسي اسماً ، وليس حقيقة يتبع في الحكم والسلطان .

تقطع الدولة في العهد العباسي

كانت الطائفية لها الأثر في تفريق الوحدة من الناحية العملية ، على النحو الذي ذكرناه ، فقامت دول وانفكت الوحدة الاسلامية التي كانت تمثلها الخلافة ، ولو اسماً ، ولم تكن للخلافة النبوية حقيقة قائمة بل كانت الملكية هي المتحكمة ، وان تسمت بالخلافة وامرة المؤمنين .

ولقد قلت ان الوحدة كانت قائمة في عهد ملوك بني أمية ، وان كانت على دخن ، لأنه لم يكن حكم الاسلام قائماً على الوجه الاكمل ، ولأنها لم تقم على أصول الاختيار بالشورى الاسلامية .

فلما آل الأمر إلى بني العباس ، وكانوا أقرب رحماً بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان يكونوا في حكمهم أعدل وأشمل ، ولكن كانوا أقل تعصباً للعرب ، ثم آل الأمر إلى العنصر الفارسي ثم العنصر التركي ، ثم كان استبداد هؤلاء ، وأولاء بمن تسموا بالخلفاء من بني العباس .

الحكم الأموي بالأندلس :

١٠٦ - والدولة العباسية في إبان قوتها ، ونشأتها القوية الفتية ، وفي عهد

أبي جعفر المنصور الذي يعد أقوى منشىء للدولة العباسية نشأت دولة بني مروان بالأندلس .

ذلك أنه عندما نزل الاضطهاد العباسي بالأمويين ، وتبعوهم قتلاً وتشريداً ، جزاء ما قدمت أيديهم بالنسبة لآل علي كرم الله وجهه في الجنة وان كان العباسيون ساروا على مثل منهجهم .

في هذا الوقت ، وفي عصر أبي جعفر المنصور ، فر عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الى الأندلس ولم يكن العرب الذين بها ، قد اقتنعوا بالتغيير والتبديل في العراق والشام والمدينة ، فدانوا لعبد الرحمن بالطاعة وارتضوه حاكماً عليهم ، وسمي في التاريخ بعبد الرحمن الداخل ، وسماه أبو جعفر المنصور تقديراً لعمته وإعجاباً به صقر قريش .

ظهر صقر قريش في الأندلس فاستولى عليها وضبط الأمور وجمعها تحت سلطان واحد .

واقترنت الحضارة الأندلسية بالدولة المروانية هذه في ذلك الوادي الخصيب ، حتى لقد قال ابن حزم إن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام ، وأنكأها في العدو ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا زيادة عليه ^(١) . ولم يكن الملوك الأمويون المروانيون بالأندلس يدعون أنفسهم باسم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بل كانوا ملوكاً ، ولم يدعوا الخلافة حتى لا يكون بين جماعة المسلمين خليفتان ، ولم يكن قد انقضى الخرق ، فلم يريدوا أن يكونوا المبتدعين للافتراق .

ولكن ضعف أمر الخلافة العباسية ، واستبد بالخلفاء منهم الفرس ، ثم الأتراك وضعف شأنهم وخرج بالامامة أو الامرة عليهم الناصر الأطروش والهادي في القرن الثالث ، ثم نشأت الدولة الفاطمية على يدي المهدي الذي انتقل أحفاده من بعده إلى مصر .

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٧١ .

رأى هذا عبد الرحمن الناصر في مطلع المائة الرابعة من التاريخ الهجري ،
فعندئذ ادعى الخلافة لنفسه ، ولقب نفسه بلقب أمير المؤمنين ، ثم صار ذلك
اسماً لمن جاء بعده من ملوك بني أمية في ذلك الإقليم الخصب .

وفي عهد عبد الرحمن الناصر هذا بلغ ذلك الإقليم الإسلامي الذروة في
العز والسؤدد والرفعة ، وأخاف الفرنجة وأرهبهم ، وامتد سلطانه في البلاد
الإسلامية إلى المغرب ونازع المهدي من الإسماعيلية ، فيمم وجهه شطر مصر .
ولكن ما بعد ارتفاع الشمس في كبد السماء إلا زوالها ، فإنه قد سار على
الأمر من بعده ابنه الحكم على منهاجه وسياسته ، فلم تضعف الأندلس .

ولكن لم يدم ملكه طويلاً كآبيه ، إذ أن أباه عاش ملكاً وخليفة نحو
خمسین سنة ، أما الحكم فقد عاش خليفة ست عشرة سنة فقط .

ولقد اعتري الحكم بعد ذلك ضعف إذ تولى غلام كالشأن في كل الحكم
الوراثي ، إذ قد يتولاه الضعفاء كما يتولاه الأقوياء .

ولنترك هذا إلى موضعه في دراسة تاريخ الأندلس .

وإن المقصود بذلك السياق الذي سقناه كيف ابتدأ تفرق الوحدة الإسلامية
بعد العصر الأموي مباشرة وفي عصر فتوة العصر العباسي وازدهاره .

ولقد ضعف بعد ذلك الخليفة العباسي وكانت تتساقط أجزاء دولته ،
حتى آل الأمر إلى الافتراق الذي نعاني منه الآن تفرق كلمة المسلمين ، وأن
يكون بعضهم حرباً على بعض أو على الأقل لا يشعر كل إقليم منهم بما يعانيه
الإقليم الآخر أو يشعر ولكن ينظر إليه نظر من لا يهمه الأمر فيه ، والنبي
ﷺ يقول « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

الدولة الطولونية ثم الأخشيديّة :

١٠٧ - أخذت الاقاليم بعض الاستقلال عن دولة العباسيين ، فأحمد بن

طولون تولى مصر ومن بعده أولاده ، وكان خاضعاً للدولة العباسية ينادي بالتبعية لها ويعمل على حفظ ما تحت يده ويقدم الخراج والهدايا الى الدولة ، وكانت دولته وراثية ، ثم جاء الاخشيدي كذلك ، ومؤسس الدولة الأولى أحمد بن طولون ، كان ابوه مملوكاً تركياً ، أهدى الى المأمون بن الرشيد وكان من الجنود الاتراك الاكفاء وولد له أحمد سنة ٢٣٠ وقد تولى حكم مصر من قبل المسيطرين في الدولة العباسية سنة ٢٥٤ فتولى ادارة الدولة والأعمال الخارجية . وقد استقل بها أحمد سنة ٢٥٨ ، ودعي له بها بعد الدعاء للخليفة . وكانت وراثية لمن بعده ، حتى أخذها كافور الأخشيدي .

وكان الأمر قد اضطرب بعض الاضطراب ، حتى اقتنصتها الدولة الفاطمية . وناولت العباسية التي لم يكن لها من الخلافة إلا الاسم .

الحال في الدولة العباسية :

١٠٨- وجدت الدولة العباسية ، وهي تحمل في نفسها عوامل انهيارها واضطرابها . لقد قامت على التأييد الفارسي ، والدعوة الفارسية كانت هي التي تقوم بالدعاية لتلك الدولة . وقد ابتدأت الدعوة علوية ، ثم حولت من علوية إلى عباسية .

فكانت بسبب ذلك مربوطة بالعلويين والفارسيين معاً ، فالعلويون كانوا لا يسكتون عنهم ، ولا ينون عن الخروج عليهم والقرامطة الذين اتخذوا العلوية مظهراً أقضوا مضجهم الوقت بعد الآخر ، وهكذا .

والفارسيون كان يخشى بأسهم من وقت أن قامت الدولة ، فأبوا مسلم الخراساني الذي انتزع الملك من الامويين ، وأعطاه للسفاح ثم للمنصور ، كان أخشى من يخشاه أبو جعفر حتى بادر بقتله ، فتغداه قبل أن يتعشاه ، وجاء المنقع الخراساني فثار على حكم المهدي ، وتولى نشر الزندقة ، فتلقاه المهدي بالمقاومة الشديدة ، وحاربه في ميدان الحرب ، وميدان القلم .

حاربه حتى هزمه وقضى على قوته .

ودفع المعتزلة اليه يحاربون الزندقة التي كان يبثها المقتنع الخراساني وانتصر في الميدانين ، ولكن بقي أصل الداء لم يستأصله .

وجاء من بعد ذلك عهد الرشيد ، فتقرب اليه البرامكة زلفى ثم اكتشف أنهم يعملون لفارس لا للعرب ، ولما تكشف له ذلك نكبهم ، ولكن بعد أن نصرخوا الشعوبية على العربية .

ولما عهد الى الأمين ثم المأمون ، وقد كان الثاني أسن من الاول ، وقعت المعركة سافرة بين العرب والفرس ، إذ أيد العرب الأمين وقد كان ذا نزعة عربية ، وأيد الفرس المأمون ، عندما تنازعا وانتهى الأمر بمقتل الأمين وهزيمة الجيش العربي ، وإشاعة قالة السوء عن الأمين .

وهكذا كان العنصر العربي يضعف ، وغير العربي يقوى ، وقد اتخذ المأمون من الفرس الحجاب والوزراء والقواد وكانت دولته في حقيقتها فارسية وان كانت في زيّ عربي .

ثم جاء المعتصم ، فأضاف إلى العنصر الفارسي العنصر التركي ، وهكذا توالى العناصر غير العربية على السيطرة على الحكم .

وقد يقول قائل وما الذي في هذا والاسلام دين عام خالده لكل الاجناس ، ولكل الأجيال ، فاذا كان المتغلب عربياً أو المتغلب فارسياً أو تركياً ، فهم على سواء ، لأن الإسلام سوى بينهم .

وان ذلك الكلام ظاهره الحق ولكن عند فحصه يتبين أنه بعيد عنه ، ذلك أن الذي نأخذه على نظام الحكم المغالبة ، فكما انا أخذنا على الحكم الأموي التعصب العربي ، فانا نأخذ على التغلب الفارسي وغيره التعصب والمغالبة ولو كان الأمر معاونة بين العرب والاعاجم لكان الخير المتفق مع حقائق الإسلام . إن الوحدة الإسلامية تقتضي مزجاً يشبه المزج الكيميائي ، ولا تكون

خطأ وإن المزج يوجب أن تحتفي كل الخواص الجزئية الخاصة بعناصر أجزاء المركب ، بحيث لا يتغلب عنصر على عنصر بل يكون البارز هو صفات المزيج وحده وكذلك الأمر في الوحدات الاجتماعية عامة ، وفي الوحدة الإسلامية خاصة .

السامانية :

١٠٩ - أخذ كل الدولة العباسية تحتفي من الحكم ، ففي المغرب ، كانت دولة الأدارسة ثم دولة المهدي الفاطمي وأولاده الذين أنشؤوا الدولة الفاطمية بمصر ، وأزالت كل أثر للعباسيين في مصر والشام .

وفي الشرق كان يتنازع الحكم كثيرون من أولاد فارس ، وغيرهم ، وكان منهم ، الذين استبدوا بملك خراسان وتوارثوه أكثر من سبعين ومائة سنة وكان الملك فيهم وراثياً ، وقد قضاوا على كل سلطان للخليفة في التنفيذ ، ولم يبق له من الخلافة إلا الاسم .

ويقول استاذنا المرحوم الحضري المؤرخ الأول في هذا العصر للإسلام :

تنسب هذه الاسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهي أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية ، كان في عهد المأمون من تلك الاسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرممة لبعض البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم ، وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان ، فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في قرغانه ، ويحيى بن أسد في الشاس ، وأشروسنة ، والباس بن أسد في هراة ، وكان أحمد بن أسد عفيف النفس ، رضي السيرة ، لا يأخذ رشوة ، ولا أحد من أصحابه ، ولما توفي استخلف ابنه نصرأ على أعمال سمرقند وما وراءها فبقي عاملاً بها...^(١).

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ص ٣١٠ ،

وهكذا كما قررنا ان الدولة العباسية كانت تحمل في نفسها عوامل هدمها ،
وتفريق الناس عن الوحدة الإسلامية الجامعة . فإن أولاد سامان توارثوا
الملك ، وصاروا دولة داخل الدولة العباسية .

والنتيجة الطبيعية لهذه السياسة أن يستضعف الخلفاء ، وأن يقتلوا خليفة
بعد خليفة ، أو بالآخرى ملكاً ضعيفاً بعد ملك ، ويتساقط نفوذهم تساقط
الذباب على موائد من ولوهم .

ولقد ذكر أستاذنا الحضري النتيجة الحتمية لذلك وهو تفرق الوحدة
الإسلامية وتقطع أجزاء الدولة التي كان يرجى أن تكون جامعة لأمرها ، مهما
يكن نوع حكمها ، ومن أي طريق كان سلطان ملوكها .

مما تقدم يفهم أن البلاد الشرقية تقلص عنها ظل الدولة العباسية فعلاً ،
وإن كان يدعى لهم ببعضها اسماً .

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان ، وكانت
الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر . وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية
وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة .

أما بالغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر ،
وسوريا وهي دولة أحمد بن طولون^(١) ، وإنه خلف ابن طولون وأولاده
الأخشيديون ، وخلف من بعدهم دولة الفاطميين ، وقد جاؤوا من المغرب ،
وهؤلاء ساوروا ملك العباسيين ولم يدينوا لهم بطاعة ، بل أغرَى بينهم
بالعداوة والبغضاء .

بنو بويه :

١١٠ - وقد انقبض سلطان بني العباس ، وصار نفوذهم العملي والاداري
مقصوراً على بغداد وما حولها من العراق وأما بقية الدولة فقد خرج من

(١) محاضرات تاريخ الامم الإسلامية العباسية ص ٣١٠

من أيديهم ، وصارت الولاية الحقيقية للسلطين والولاة الذين استقلوا بهذه البلاد القاصي منها والداني .

حتى جاء بنو بويه ، وأزالوا ما بقي لهم من سلطان في إدارة بغداد والعراق ، ولم يبق لهم إلا السلطان الاسمي وصاروا لا يملكون من أمورهم الشخصية أكثرها ، وذلك على أيدي بني بويه .

وقد ظهرت هذه الأسرة في وقت اضطرب فيه الأمر بين الحكام الذين استلبوا النفوذ في بلاد المشرق من دولة بني العباس ، وصار الحكم فيه لمن غلب .

ولقد أصاب بعضهم الترف والطغيان ، حتى أنه جعل له سريراً من ذهب كان يجلس عليه وسريراً من فضة كان يجلس عليه أكبر قواده .

واتخذ شارة الملك الفارسي وما يمثله ، فكان إذا جلس على سريره الذهبي يقف الجند صفاً ، صفّاً بعيدين عنه رهبة أو ليصوروه للناس مرهوباً .

لا يصل اليه أحد إلا الحجاب الذين جعلهم رتباً ، رتبة فوق رتبة ، واتخذ لمل الناس على طاعته السبيل الذي يتخذه كل جبار طاغية ، وهو مكمون من أمرين أحدهما الخوف الشديد ، وبذلك لا يفكر أحد في مقاومته أو مجابهته أو لومه أو نقده ، أو أن يقول له اتق ، وكان لسان حاله يقول « من قال لي اتق الله قطعت عنقه » .

والعنصر الثاني : البذل والعطاء ، وإن كان من مال الدولة ، وكان بذله لمن يعاونه في سلطانه ويقدمون له مظاهر الطاعة العمياء .

وهذا الحاكم الطاغية اسمه مرداويج من الديلم ، وقد غلب على حكام كانوا على شاكلته ، وسلكوا مثل طريقه ، وأخذ منهم السلطان بحمد السيف ، وما كان منه كان صورة للمغالبات في داخل الدولة الاسلامية الكبرى التي فرقت وحدة المسلمين ، وقسمتهم فرقاً ، ودولاً ، أو جزيئات من دول .

انضم إلى نصرة هذا الطاغية أولاد بني بويه وهم علي والحسن وأحمد ، والطامعون دائماً يلجؤون إلى الركن الشديد ، ذي الغلب والقوة ويقول في شأنهم أستاذنا الحضري .

«ولما استقر قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم .. وهم علي والحسن وأحمد أولاد بويه .. وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق ، وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية » .

والادوار التي يشير إليها المؤرخ العظيم ، دور قوة الخلفاء وهو العصر العباسي الاول ، عصر الازدهار ، والدور الثاني بقاء الخلافة اسماً ، وتحكم موالي العباسيين من الفارسيين ، والأتراك ، مع بقاء نوع من النفوذ والسلطان ويظهر ذلك في العزل والتولية أحياناً ، أما الدور الثالث وهو الاخير ، فهو الذي أخذ الحكم والسلطان فيه بنو بويه ولم يبقوا للخليفة فيه شيئاً .

وبنو بويه ، قبل أن يؤول اليهم السلطان ، لم يكن لهم نسب معروف ولكن بعد أن آل كتب لهم تاريخ ونسب ينتهي إلى بهرام جور الملك ، ولكن أبا الريحان البيروني يرجح أن هذا النسب جاء به سلطانهم بعد أن صار لهم سلطان وقوة ، والذي درنه هو أبو اسحاق بن هلال الصابي ، وقد أثر عنه ان بعض الأدباء دخل على ابراهيم الصابي ، وقد اعتكف لكتابة تاريخ تلك الدولة فسأله ماذا تكتب فقال له «أباطيل أنقها وأكاذيب ألفقها» .

استطاع علي بن بويه أكبرهم أن يصل إلى قلب الطاغية مرداويج حتى عينه والياً على الكرج ، وكتب له بذلك العهود والمواثيق . وقد استطاع علي أن يعمل لنفسه ، لا لمن ولاء الذي أوجس منه خيفة ، بعد أن فصل عنه ، وأحس بذلك علي بن مرداويج ، فتألب عليه ، وانتهى الأمر بينها بموت مرداويج قتله جنوده من الترك اذ كان فظاً غليظاً ، وكان يؤثر قومه من الديلم على الترك فناروا عليه .

وانتهى أمر كل المنافسين لعلي بن بويه ، فكان في يده ما كان تحت سلطان

مرداويج من الأرض ، وسير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ، ومعه جند قوي .
وعين أخاه أحمد وسيره إلى الاهواز ، فاستولى عليه ، ثم سار إلى واسط
واستطاع الاتصال بقواد بغداد فدعوه إليها .

فدخلها دخول الظافر القوي في ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ ، والخليفة
هو المكتفي ، فبايع أحمد على أن ينادى بالمكتفي على أنه الخليفة وينادى
بأحمد بن بويه على أنه السلطان .

وإن الخليفة لم يكتف بما خلعه على أحمد من لقب السلطان ، بل شرف
كل بني بويه بالألقاب الفخمة ، فلقب علياً أخاهم الأكبر بلقب عماد الدولة
وهو صاحب بلاد فارس ، ولقب الحسن صاحب الري والجبل بلقب ركن
الدولة ولقب أحمد صاحب العراق بلقب معز الدولة .

ويقول استاذنا الخصري « وهذا هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية
وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم ، وصيرورة الخليفة منهم رئيساً
دينياً ، لا أمر له ولا وزير ، وإنما له كاتب يدير اقطاعاته ، واخراجاته ،
وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء » (١) .

تمزقت الدولة العباسية ذلك التمزق ، وزالت الخلافة حقيقة ، وإن بقيت
حكماً على حد تعبير الفقهاء .

ولم يكن للمسلمين جامعة سياسية أو دينية تجمعهم ، بل تفرقت وحدتهم ،
ولم يعودوا في الوجود شيئاً قائماً بذاته ، ومن الحق علينا أن نترك الكلمة
لأستاذنا شيخ مؤرخي الاسلام في هذا العصر الخصري اذ يقول رضي الله عنه :
« كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الاندلس لبني أمية ، والقائم بالأمر منهم
عبدالرحمن الناصر ، وقد لقب بأمر المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما
وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديالة الذين سال سيلهم ببغداد .

(١) الكتاب المذكور بهامش ص ٢٠٠ - ص ٣٧٨ .

وبلاد افريقية للعبيدين الذين تأسست دولتهم على انقراض الأغلبية ،
والادارسة والقائم بالأمر منهم اسماعيل بن منصور ، وهو ثاني خلفائهم ، وكان
يلقب بأمير المؤمنين .

وبمصر والشام الاخشيديون وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي .
وبجلب والثغور سيف الدولة علي بن عبدالله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم
الخليفة العباسي « ثم يحصي رضي الله تبارك وتعالى عنه الأقسام التي كانت في
القرن الرابع الهجري ، وبذلك تجزأت الوحدة وتقطعت اسبابها ثم يختم قوله
بقوله :

هذه هي القوى الكبرى التي كانت لأسر ملوكية في الرقعة الاسلامية ،
فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متماسكاً الأعصر
كلها ، حاضرة كبرى تجمع شتاته ، ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق
له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة الحمداني
فانها من عنصر عربي ، ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليان من البلاد
للقواد الاتراك ولم يكن لها استقلال سياسي ، بل كان امر بني بويه فوقها ،
وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي ^(١) .

آل سلجوق

١١١ - نذكر آل سلجوق بكلمة لأنهم ورثوا بني بويه ، وقاموا من
بعدهم ، ولأن استيلائهم على بغداد يصور كيف كان الخليفة لا حول له ولا قوة
إذ أنه عندما استحكم الفساد دعاهم لانقاذ البلاد ، وان الخليفة صار لا يستطيع
المحافظة على نفسه ، حتى انه كان يودع عند بعض الحكام كوديعة يحافظ
عليها ، ولأن آل سلجوق عاصروا الحركات الصليبية ، وقاوموا فيها ، حتى
أخذ الراية منهم صلاح الدين يوسف الايوبي .

(١) تاريخ الامم الاسلامية الدولة العباسية المرحوم الحضري ص ٣٨٠

وآل سلجوق من تركستان كانوا تحت حكم ملك الترك بها، وقد أوجسوا منه خيفة فهاجروا إلى أرض الاسلام ، ولم يكونوا قد دخلوا في الاسلام ، فدخلوا فيه وخرجوا من عقائدهم الجاهلية إلى العقيدة الاسلامية .

وقد ربطوا حبالهم ببعض ملوك السامانية ، إذ أن أولئك اختلفوا ، فاستعان بعضهم بسلجوق رأس الاسرة ، فأعانه وأخذ أولاد سلجوق يعملون في البلاد الإسلامية متعرضين للخطر دائماً يعاونون من يستعين بهم .

وتفرقوا في البلاد يحكمون ويتسلطون ، وكان أظهر أحفاد سلجوق طغرل بك وقد تم له الاستيلاء على أرض إسلامية كبيرة ، وهي خوارزم ، وخراسان ، وبلاد الري ووصلت مقدمات جنوده الى البلاد العراقية .

وفي هذا الوقت كانت الأحوال قد ساءت في بغداد ، لأن آل بويه قد تفرقت كلمتهم ، وزالت من القلوب هيبتهم فلم يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارئ ، ولا من لصوصها ، فأعدوا البلاد لقبول ما يغير من هذه الحال ^(١) وانه في هذه الاثناء جاء بعض من يناصر الفاطميين بمصر والشام ، والذين تآخم سلطانهم العراق ، وحاول هذا أن يدعو للفاطمي المتولي أمر مصر بالخلافة على منابر بغداد .

علم الخليفة العباسي بذلك ، فكتب الى السلطان طغرل بك السلجوقي مستغيثاً وقد كانت هذه أمنيته ، وكاتبه من بغداد من الافراد والرؤساء يبذلون له الطاعة وأن يخطبوا له على المنابر .

جاء طغرل بك الى بغداد وأظهر للخليفة الطاعة وتقدم الخليفة فأمر الخطباء بأن يخطبوا في جوامع بغداد لطغرل بك فخطبوا ، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٢ من المحرم سنة ٤٤٨ هـ ، واذا صار له السلطان قبض على آخر سلاطين بني بويه

(١) الكتاب المذكور ص ٤١٧ .

وبذلك انتهت دولتهم ، وحل محلهم السلاجقة .

وقد قامت فتن وحروب اشترك فيها ضد طغرلبيك ، بعض بني عمومته ، وكانت الحروب بالموصل والجزيرة واشترك ضد طغرلبيك بعض العرب ، ولكنه تغلب على كل مناوئيه ، ورضي بذلك الخليفة الذي ليس له من الامر شيء . وقد خلع عليه الخلع والشارات .

واستمر الأمر في نزاع بين السلاجقة وبعض العرب ، وبين السلاجقة وبعضهم مع بعض أحياناً ، والخليفة لا أمر له ، حتى انه في اثناء المعركة بين بعض العرب والسلاجقة ، دخل المناوئون لطغرلبيك بغداد ، ودعوا الخليفة الفاطميين والخليفة العباسي قد خرج من قصره على أن يكون في ذمام رئيس القوة العربية قريش بن بدران العقيلي ولقد قال استاذنا المرحوم الخضري في ذلك واستند منه (أي من قريش بن بدران) بذمام الله تعالى وذمام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذمام العرب ، فأعطاه ذلك ، ونزع قريش قلنسوته فأعطاه الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة ، وبيده السيف ، وعلى رأسه اللواء ، وأنزله في خيمة .

هذه حال الدولة الى أول القرن السادس الهجري ، وقد مزقتها الاهواء وحكمتها العصابات المتغلبة فكل ملك يريد أن يحكم البلاد ينازل الآخر ، والخليفة قد ضاقت يده ، حتى صار لا يملك إلا عقاره ونشبهه ، ولا همه إلا أن تبقى له تلك الدعة ، وصار ينطبق عليه قول الخطيئة في الزبرقان بن بدر .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

اكتفى الخليفة بأن يكون آمناً في سربه عند متعته ، وتحقيق رغبته وهان أمره حتى اذا كانت حرب حوله ، لم يكن له فيها ناقة ولا جمل ، وكانوا ينقلونه الى خيمة الحرب ، كما تنقل النساء والذراري .

هذا أمر الخلافة الكبرى التي كانت للمسلمين ، فلم يكن غريباً أن يمزقوا

كل ممزق وان يكون الخليفة نهب المقتسمين ، وهدف المعتصبين ، وأن يتحقق فيهم ما قاله النبي ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها قالوا ومن قلة نحن يا رسول الله ، قال : بل أنتم اليوم كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليدققنكم الوهن ، قالوا وما الوهن يا رسول قال حب الدنيا وكرهية الموت .

غارة الصليبيين :

١١٢ - انتهى القرن الخامس ، والمسلمون في المشرق على ذلك التدابر والتنازع ، ولا جامع يجمعهم ، ولا رابط يربطهم ، وقانون الغاب هو الذي يحكمهم ، ولا يستقر الأمر لغالب حتى يبادر إلى الانتقام من غلبهم ، والمغلوب يتحين الفرصة للانقضاض وهكذا استمرت الحال على ذلك والشعب مأكول من الغالب والمغلوب على سواء ، ومصالح الأمة ضائعة في كل حال ، كانت هذه الحال مغرية للصليبيين لأن يقبضوا قبضة من ذلك النهب الضائع ، ورسلمهم تجيء إلى المسلمين وتعرف لهم في خفي أمرهم مع ظاهره ولم يكن فيه خفاء يحتاج إلى تعرف .

أخذ بطرس الراهب يحرض ملوك أوروبا على الشرق ، ويدعوهم إلى الأرض المقدسة ، يدعوهم مرة باسم المسيحية ومولد المسيح ، وأرض نشأته ، وبها نشأته ، وبها كنائسه ومرة باسم المادة ، لأنها تفيض لبنا وعسلا ، وتقدم هو يجمع ، وإن لم يكن منظماً ، ففتح الطريق للجيوش المنظمة .

فاندفعت تلك الجيوش ، واستولت على الأرض المقدسة وعاثوا فيها فساداً وقتلاً ذريعاً ، ويجب أن نذكر هنا الفضل لرجلين عظيمي الشأن في الإسلام .

أحدهما - محمود نور الدين زنكي السلجوقي ، فانه جمع الصفوف من جيش المسلمين المنهزم ، وأخذ يقاوم الصليبيين ، وينازعهم الأرض شبراً شبراً فعاق تقدمهم ، ومنهم من أن يتغلغلوا في البلاد الإسلامية وفي أول الأمر ظنوا الطريق مفتوحاً .

ولكنه لم يقف عند ذلك ، بل أراد أن يسترد منهم بيت المقدس والارض المقدسة التي دنسوها وهي التي بارك الله فيها .

والرجل الثاني - هو يوسف صلاح الدين الأيوبي الذي كان قائداً من قواد نور الدين ، ثم حمل العبء كاملاً من بعده ، وقد عمل عملين : أولهما أنه قضى على الدولة الفاطمية في مصر لأنه رآها عامل تَحْذِيل لا عامل تَأْيِيد ولأن فريقاً من الفاطميين كانوا على الجيش الإسلامي ، وكانوا يتصلون بالفرنجة الغزاة من وراء ، ولعلمهم كانوا على صلة بالفاطميين .

العمل الثاني - أنه جمع الجوع من البلاد الاسلامية وأكثرها من البلاد العربية . وأخرج الصليبيين من الأرض المقدسة ، وطهرها من رجسهم ، وظلمهم الذي كان يَشْمَلُ النصارى من سكان البلاد الاسلامية ولا يقتصر على المسلمين .

وقد استمرت من بعد ذلك الحروب الصليبية ، ولكنها كانت غارات تتابع ولم يكن فيها انتصار لهم حتى كانت مدينة المصورة مقبرتهم الأخيرة في عهد دولة المماليك .

النتيـجة :

١١٣ - وما ان خفت ويلات الصليبيين ، وأخرجوا من الأرض المقدسة وصارت الحرب من بعد ذلك سجالاً ، لا يفلبون ولا يسيطرون ، وإن لم يقهروا ، وتوالى منهم الغارات ، ولكن يتلقاها المسلمون بالصبر ، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسناً .

وما ان كان ذلك ، حتى فوجيء المشرق بمن هم أدهى وأمر ، وهم المغول أو التتر ، فقد انقضوا انقضاضاً على الممالك الإسلامية المجزأة فحطموها . ولقد اختلف الرواة في سببها فقليل إن بعض المغالين لحوارزم شاه أحد ملوك المسلمين حرضهم عليه ، لشغله بهم وأخذه على غرة وهو مشغول بهم ،

وكان غريباً أن يعين قوماً غير مسلمين على ملك مسلم ، ولكنه الطمع الذي يعمي ويصم ، وضعف الخلق والدين والرجولة تجتمع فيكون منها ذلك .

وقيل إن السبب أن جنكيز ملك التتر الوثني عقد مع خوارزم شاه اتفاقاً تجارياً ، ارسل بمقتضاه رسلاً اربعمئة ومعهما المتاجر فقتل اتباع خوارزم شاه التجار وأخذوا ما معهم ، فأرسل من يذكره بعهد فقتله .

ولعل ذلك كان السبب ظاهراً ، ولكن الطمع في البلاد الإسلامية التي كانت بلاد الخصب والنماء والثروة هو الباعث الأول أو الثاني ولكنه كان باعثاً على كل حال .

انسابت الجيوش التتارية المغولية في الأرض الإسلامية ، حتى جاءت إلى بغداد ، وساروا في طريقهم حتى وصلوا إلى دمشق ، وكانوا من بعد بغداد قد دخلوا في الإسلام ، ولم يمنعهم من الفساد والاسترسال ، حتى لقبهم قطز ومن بعده الظاهر بيبرس البندقدار .

وإن الذي يهمني في هذا المقام هو ما فعلوه في الشرق عامة وفي بغداد خاصة ، وفي المسمى حليفة المسلمين بشكل اخص ولنترك الكلمة في هذا لابن الأثير في كتابه الكامل قال :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً ، كارهها لذكرها ، وهأنذا أقدم رجلاً وآخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذلك ، فيا ليت أمني لم قلدي ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، إلا اني حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي نفعاً . . فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عصمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لا تتضمن ما يقاربه ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل

هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم وتفتى الدنيا إلا بأجوج ومأجوج ، هؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال والحوامل ، وقتلوا للأجنة وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالرياح استدبرتها الرياح ، ان قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر فملكوها ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان ، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً ، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان ، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر — في أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله . ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عدداً ، فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقيون إلى الغياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعملوا هذا في أسرع زمان ، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يحاورها . من بلاد الهند ، وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد ، هذا مما لم يطرُق السماع فإن الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة ، إنما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، إنما رضي من الناس بالطاعة ، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمورة من الأرض وأجسده وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض سيرة — في نحو سنة ، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرُقوها ، إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم إليه ، ثم انهم لا يحتاجون إلى مدد يأتيهم ، فانهم معهم الأغنام والبقر والحيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التي يركبونها ، فانها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عروق النبات ولا تعرف السمير ، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج .

وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً ، يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً

بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لا يعرف أبوه .
هذا وصف هؤلاء التتر الذين دخلوا الديار الاسلامية وأتموا تمزيقها بعد
أن مزقها أهلها .

دخولهم بغداد :

١١٤-واننا لا نكتفي بهذا الوصف العام ، بل لا بد أن نشير إلى ما كان
ببغداد ، كيف تم الاستيلاء عليها فانه ينطبق عليها بعض القول ، يخربون بيوتهم
بأيديهم وأيدي الكافرين ذلك أن وزير الخليفة إبان ذاك كان مؤيد الدين بن
العلقي ، وكان شيعياً متشديداً ، ذلك أن السلاجقة والبويهيين من قبلهم كان
فيهم تشيع ، وكانوا يحمون الشيعة ، كما كانوا يحمون ذات الخليفة العباسي ،
واذا كانت سياستهم قد منعتهم من أن يعينوا خليفة شيعياً فانها لم تمنعهم من
أن يعينوا وزيراً شيعياً .

لقد كانت الفتنة قائمة على أشدها بين أهل السنة والشيعة ، والتتر
يساورون بغداد ، ونال السنيون من الشيعة ، وتغلبوا عليهم ، فأحس ذلك
ابن العلقي .

وبغداد في هذا الوقت ، كانت مبتلاة من داخلها ، كما هي في بلاء من
خارجها ، ففي الخارج كان التتر ، وهم وحدهم يزيلون كل حضارة أو فيهم
الكفاية الكاملة لذلك ، ولقد مالاأهم من داخل بغداد اليهود والنصارى الذين
نقموا على الإسلام إذ آوأم وحامهم وكفل لهم الحرية الدينية من غير اضطهاد
أو أذى .

وكان فيها ابن العلقي الناقم على السنيين وخليفتهم ، ولو كان خليفة
بالاسم لا بالحقيقة فدفعه حقه وحسب الانتقام أن يختار مالاأة التتر عبدة الشمس
على اخوانه المسلمين عبدة الواحد القهار ، لقد عمل على اضعاف المسلمين
عن المقاومة .

كان في بغداد مائة ألف جندي معهم السلاح والعدة والعتاد ، وكان فيها الامراء الأكابر الذين كان فيهم حمية الأسود الكواسر ، فأخذ في تقليل العدد حتى نزل إلى عشرة آلاف ، ثم أطمع التتر وكشف لهم الحال وضعف الرجال .

ولم يكتف بذلك الذي قدمه ، بل انه عندما أقبلوا كالوحوش الضارية حسن الخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ويكون للخليفة النصف ، فرضي ، وذهب الخليفة لىفاوض ، فاعاده هولاء كو قائدهم مذموما مدحوراً ، إذ أشار الوزير العلقمي على هولاء كو الا يقبل المصالحة لأن الخليفة ينقضها بعد سنة ، وأشار عليه بأن يقتله فقتله وأيد العلقمي في قوله هذا نصير الطوسي الذي كان في صحبته ، ليكون كاشفاً لحال البلاد الإسلامية التي يفتحها .

قتل الخليفة بأشارة وزيره ابن العلقمي وانساب التتر يقتلون ويخربون ، ولم ينج من أهل بغداد إلا اليهود ، والنصارى ، ومن لجأ إلى العلقمي ^(١) فهؤلاء وحدهم كان لهم الأمان .

هذه صورة لذلك العصر ، وكيف كان المسلمون والبلاء بلاء ، وكان ما يفعله التتر اباداة لا تبقي ولا تذر ، ولا تفرق بين مذهب ومذهب ، إذ نهبت محلة الرافضة أهل مذهب ابن العلقمي ، ونهبت دور فاس لهم قرايات بابن العلقمي ، فأثار ذلك حنقه وهاجه ، ولعله ندم على أنه دبر ما دبر مما كانت عاقبته وخيمة على الإسلام وأهله ولات ساعة مندم وانه مع هذه الثورة البشعة المؤلة صورة أخرى أشد شناعة وأشد اقتتاما وهي تبين كيف كان أثر التعصب الطائفي إذ فرق المسلمين أولاً ، وقدمهم لقمة سائغة للعدو أخيراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) تاريخ البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ١

الخلافة من بعد بغداد :

١١٥ - دخل التتار حلب بعد بغداد ، وذهبوا إلى دمشق ، فاستولوا عليها سنة ٦٥٨ من الهجرة ودخلوها ، ولكنهم لم يكتثوا بها أمداً طويلاً ، فقد جاءت الجيوش المصرية في آخر رمضان من السنة نفسها بقيادة ملكها المظفر قطز ، فقد بلغه أنهم قاصدوه ، فبادرهم قبل أن يبادروه ، وتقدمهم قبل أن يتعشوه فالتقى الجيش المصري في عين جالوت بالجيش التتاري فانهزم التتار لأول مرة وتبعتهم الجيوش المصرية تذيبهم بعض مـا أذاقوه الآمنين ، فقتلهم وشردوهم ، حتى اندعروا في البلاد فارين .

ولم يكتف المصريون باجلائهم عن دمشق بل أجلوهم بقيادة الظاهر بيبرس من بعد قطز عن البلاد العربية كلها وثغورها ، وبذلك تكسرت تلك الصخرة التي جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس عامة والمسلمين خاصة وهنا يجب أن نذكر أن الاسلام وصل الى قلوب هؤلاء التتار ، وذاقوا بشاشته بعد فترة من الزمان .

لهذه المكانة التي نالتها مصر بانتصارها على التتار لأول مرة ، اتجه التفكير إلى أن تكون دار الخلافة بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد .

أراد الظاهر أن يعيد الخلافة الاسلامية وأن يجعل موطنها القاهرة ، وقد شغل منصب الخليفة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٦٥٩ هـ ، حيث بويع المستنصر العباسي خليفة ليسير في سياسة بني العباس .

وان اقامة خليفة مها يكن ضعفه فيها رمز للوحدة ، وعسى أن يكون الرمز حقيقة .

وكان المظنون أن تعود الخلافة اسماً لا معنى له ، وشكلاً لا حقيقة له ، ولكن المستنصر أرادها قوة موجهة ، وأن يعيد للاسلام مضاه ، وللشكل حقيقته .

وقد استفاد الظاهر من وجود الخليفة عنده ، وهو صاحب السلطان الشرعي في نظر الأكثرين والجمهور الأعظم ، وقد جعل المستنصر للظاهر سلطان المسلمين عامة لا سلطان مصر وحدها .

تقدم الخليفة ليثبت سلطانه وسلطان من عينه بقوة السيف ، فقتل ساعياً ، بدل أن يقتل ضعيفاً مستخدماً .

بايع من بعده الظاهر أخاه الحاكم في الثاني من المحرم سنة ٦٦١ هـ .

وفي اليوم التالي لتوليهِ ارتقى المنبر يوم الجمعة ، وخطب داعياً إلى الوحدة والجهاد ، وجاء في خطبته ما يدل على أنه ، ورغبته في الوحدة الإسلامية ، فقد جاء فيها :

« إعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبب الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب الجرائم ، فلو جاهدتم أعداء الإسلام ، لما دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا النساء والبنات ، وأيتموم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم العظيم ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الجد في إحياء فرض الجهاد ، واتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر هو السيد الأجل الكامل العادل المجاهد المؤيد ، ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت الخلافة بهيمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله تعالى إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يزعجكم ما

جری ، فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان ، والأجر للمتقين ،
جمع الله تعالى على الهدى أمرکم ، وأعز بالإسلام نصرکم ، وأستغفر الله لي
والمسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم « (١) » ..

ونرى في هذه الخطبة دعوة إلى الجهاد في ظل الظاهر بيبرس ، وقد
اشتملت من الثناء عليه ما اشتملت ، وفيها دعوة إلى جمع الكلمة .

ولكن هل عادت الخلافة العباسية كما ابتدأت ، إن عيشها في ظل سلطان
لا يجري فيها دماء الحياة ، ولا يحمي مواثها ، لأنها تكون طائفة له

ولذلك استمرت تتبادلها أيدي السلاطين من الممالك حتى جاء آل عثمان
واقطعوها وادعوها لأنفسهم فكانوا يلقبون بأمرأ المؤمنين ، والدول الإسلامية
تنتقص جزءاً جزءاً وما ينتقص يكون تحت حكم غير المسلمين .

الاندلس والمغرب :

١١٦ - كانت مصر بعد أن فتحها الله تعالى على المسلمين في عهد أمير
المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه المكان الذي كانت تنبعث منه
جيوش الفتح الإسلامي إلى شمال إفريقيا ، وعبرت البحر إلى الاندلس ، وانسابت
فيها الجيوش الإسلامية حتى وصلت إلى جنوب فرنسا ، واحتلت أكثر من
عشرين عاماً ، ولذلك نرى في سكان جنوب فرنسا ما يدل على أنهم من بقايا
اولئك الغزاة .

وانه مع اتساع ذلك الفتح ترك الفاتحون الجبال في شمال الاندلس إلى
الغرب فاتخذت مثابة اوى اليها المنهزمون من الوندال ورجال الكنيسة وامراء
البلاد الذين نجوا من حد السيف ، وما كان العرب ليهتموا بسكان هذه الجبال
لأنهم كانوا اقوياء مسيطرين ، وإن كان هؤلاء يكونون داء يخشى أن ينفجر
وقتاً ما ، فإن قوة الجسم تهزمه لا محالة .

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثالث عشر ص ٢٣٨ .

ولكن حكام الاندلس من بعد عبد الرحمن الناصر ، كان فيهم ضعف ،
فمنهم من انغمس في الشهوات يبتغى منها اجتراءاً ، ومن لم ينفهمس في حرام
أترفه النعيم ، واسترخى بالعيش الفاكه ، وذهب البأس العربي ، وزاد الطين
بلة الفتن التي توالى .

ولما تولى بعض الخلفاء بولاية العهد في سن العاشرة استولى على الحكم الوزير
أبو منصور العامري ، وفيه بأس وقوة ، ولم يسترح في حياته بنعيم ، وكان
سكان الجبال ابتدأوا يقطعون أجزاء من أرض المسلمين ، فردم على أعقابهم
خاسرين .

ولكن من بعده اضطربت الامور ، فالامويون اختلفوا فيما بينهم ، ثم كان
الخلال الحكم الاموي ، وجمي ملوك الطوائف ، وصار كل اقليم له حاكمه ،
فتفرق المسلمون في الاندلس ، والمدو يتصددهم وينقص الارض عليهم
من أطرافها

ولكن المرابطين بالمغرب جاؤوا بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين ، وأزال
الحكم المنفرد ، وقاوم الفرنجة ، ولكن يحيى من بعد ذلك الموحدون
ويخرجون المرابطين .

وهكذا أصبحت الأندلس عرضة للتفرق والانقسام ، وغارات المسلمين من
المغرب ، وغارات الفرنجة من الشمال يقطعون من تحت أيديهم الارض
مدينة مدينة .

وفي هذه الاثناء كان عماد الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، يردون
جحافل الصليبيين عند بيت المقدس ، حتى ينتزعوه منهم ، وتبعوهم حتى
أجلوهم ، أو أضعفهم فجاءت فلول منهم وانضموا الى المغيرين على المسلمين
في الأندلس .

فكانت حربهم صليبية ، تتعاون على المسلمين ، والمسلمون متفرقون ليس

لهم غرض مقصود ، ولا جامعة تجمعهم ، بل تفرقوا أيدي سباً ، فرقهم
المهوى ابتداء ثم مزقهم الضعف انتهاء ، لأنه لا وحدة توحد لهم الغاية والمقصد
وأعداؤهم قد توحدت غايتهم .

لقد أرسل المسلمون بالأندلس يستغيثون بمن يظنون فيهم قدرة على النجدة
فلم يجدوا إلا الممالك في مصر ، مع بعد الشقة ، وعظم المشقة في الإغاثة
فأرسل حكام الممالك إلى الترك العثمانيين الذين يمثلون القوة الإسلامية الكبرى ،
أرسلوا اليهم يستحثونهم على معاونة إخوانهم المسلمين لينقذوهم وهم يعذبون
وتفتش وتفتت محاكم التفتيش قلوبهم .

ومن الغريب أن المسلمين كان يحدث لهم ذلك كله ، وجيوش سليمان القانوني
تدك أسوار فينا دكا ، وما كان كل ذلك إلا لأن الوحدة الإسلامية تفرقت بعد
اجتماع ، وصار حب الغلب هو المسيطر ، وليس الرغبة في إعزاز الإسلام
والمسلمين ، والرغبة في إعلاء كلمة الدين ، ونسي الجميع قول النبي ﷺ :
« المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يسلمه ولا يخذله ، والله في عون العبد ما دام
العبد في عون أخيه » ، فاستنصر المسلم في الكريهة والشديدة فلم ينصروه
لأنه لا وحدة للمسلمين .

موت اللغة العربية :

١١٧ - لا نقصد بموت اللغة العربية ضياعها ، ولكن نقصد بذلك أن
اللغات الأعجمية من الفارسية والتركية والرومية وغيرها من اللغات التي كانت
قد طوتها اللغة العربية في ظلها أبان علو شأن المسلمين ، والإسلام ، واعتبار
القرآن الجامع بينهم ، ولو تنزلنا وقلنا كما يجمع الصليب النصارى ، والتلمود
اليهود ، لكان كلامنا موضع ظن في القول ، ولكن نعوذ بالله من هذا التشبيه
الذي يخطر بالبال ، فالقرآن أعلى لأنه حق وغيره باطل ، ولا يشبه الحق
بالباطل .

لقد كانت اللغة العربية هي الجامعة بين الشعوب الإسلامية تجمعهم ديناً ، لأنها وعاء الإسلام ، إذ هي لغة النبي ﷺ ، وبها نزل القرآن . ومن الفروض أن يعرف المسلم من اللغة العربية قدراً يصحح به دينه .

وهي لغة التفاهم بين المسلمين ، وبها يتعارفون ، ويتلاقون ، ويجتمعون ، وقد كان لعلماء الفرس وغيرهم المقام في العلوم الإسلامية التي دونوها باللغة العربية .

ولما تفرق الحكم الإسلامي ، واضطرب بسيطرة أهواء الملوك والحاكمين وسيطرة قانون الغلب بدل قانون الإسلام ، لما صارت الأمور كذلك ، كانت اللغة العربية جامعة ، وكان المسلم يسير بين المسلمين ، لا يجد فيهم مجاهل لأنه يعرف خطابهم ، وتجمعه بهم لغة القرآن

ولماذا ضعفت اللغة ضعفاً يصح أن يعبر عنه بالموت ، وإن كان الموت لا يمكن تحقيقه ؟ لأنها لغة القرآن ، وما بقي القرآن ، فهي باقية ، وانها إذا اعتراها عارض الفناء جدها القرآن وأعادها ، ان لم يكن كما ابتدأت فإن المحاولة تجدها ، وتمدها بعناصر العلم .

ونحجب عن هذا السؤال الحائر ، وهو لماذا ضعفت العربية أو أوشكت أن تموت .

ونقول في الجواب انه سنة الوجود تجعل اللغة كائناً حياً ككل الاحياء وحياة الحي تتبع المكان والبيئة التي يعيش فيها ، فإن كانت تمدد بالغذاء القوي قوي ، وأن ضعفت ضعف ، فكان ضعف العرب في وسط ذلك الخضم الذي كان في العصر العباسي ، وما حوله مؤدياً إلى ضعف اللغة ، والناس انما يحاولون تقليد الأقوياء في لغتهم ، فينطقون كما ينطق القوي ، فإن كان فصيح اللسان قلده ، وإن كان ملتوي البيان حاكوه ، وإنا لنرى ذلك يجري بين أدينا ، فلما ضعف العرب ضعفت معهم لغتهم ، ولولا القرآن لماتت ولكنه باق فبقيت ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ .

وضعف العربية كان له مظهران ، ولكل مظهر سبب قائم بذاته ، أولهما :
سيادة العامية وثانيهما : احياء اللغات القومية لغير العرب لنزعة الشعبوية .

العامية :

١١٨ - ابتدأ الذين يتكلمون العربية من كبار المتكلمين يلحنون ، فلا ينطقون بالفصحى سليمة من الخطأ في أواخر الكلمات أو بنيتها وقد لوحظ ذلك في العصر الأموي ، بل في آخر عصر الراشدين . حتى أن اللحن ترتب عليه أمران أحدهما خير ، وهو ضبط العربية بعلم النحو الذي يكون مقياساً لضبط آخر الكلمات ، والصرف الذي يضبط بنيتها .

ولقد كان اللحن من الخطباء غير كثير في عهد الأمويين ، ولكنه أخذ يكثر ويزيد في عهد العباسيين ، حتى لقد روى أبو عمرو الشيباني قال : « تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابي فلحن فصّر ^(١) الأعرابي اذنيه فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى فقال الأعرابي : أف لهذا ما هذا ، ثم تكلم المنصور ، فلحن الثالثة ، فقال الأعرابي : أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر .

وعن الواقدي : صلى رجل من آل الزبير خلف المنصور ، وقرأ أهاكم التكاثر ، فلحن في موضعين ، فلما سلم التفت الزبيري إلى من بجانبه ، وقال : « ما كان أهون هذا القرشي على أهله ^(٢) » .

وأخذ اللحن يفشو ، حتى أخذ الناس يتحللون من الفصحى إلى العامية ، حتى لا يتعرضوا لتخطئة النحاة ، ومن لف لفهم ، كما نرى في الخطبة بالعامية في مواطن الفصحى ، وهبوط البيان العربي .

وان فشوا العامية لهذا السبب ، ولدخول الأعاجم الذين كانت تلتوي

(١) معني صرما صرفها للاستماع .

(٢) كتاب الرحوم الاستاذ نجاتي رحمه الله لطلبة دار العلوم .

ألستهم بالفصحى فلا تحسبها ، فلما كثر اختلاط العرب بالأعاجم ازداد فشو العامية وكانت البلاد العربية تدخلها المعجمة ، ولكن يجوارها الفصحى أما فارس ، وخوارزم ، وخراسان وغيرها من بلاد الأعاجم فإن العربية كانت العامية ، ويجوارها كانت لغتهم السائدة المسيطرة .

الشعبوية واحياء اللغات القديمة :

١١٩ - استيقظت الشعبوية قوية لجبة ، وهي التي تفضل الأعاجم على العرب ، وقويت في العصر العباسي الثاني الذي صار الحكم فيه لغير العرب وإن كانت بذورها قد وجدت في العصر الأموي ، ولكن لم تظهر نباتاً قد خرج نبتة ثم أخرج شطأه إلا في العصر العباسي الأول ، ثم استوى على سوقه بعد ذلك في العصر العباسي الثاني في الدول التابعة للخلافة العباسية التي استبدت بالملك والسلطان ، فكان جزءاً من سياستها أن تضعف شأن العرب وأن تعلي العنصر الديلمي ، ثم العناصر الأخرى غير العرب ، وما كانت لسان الاكثرين منهم تطوع للعربية ، وتطوع لها لغتهم الأصلية . وكانت اللغة العربية القريية من الفصحى حيث لا تكون حضارة ، تسيرها المعجمة . وكان البدو من العرب والقرييون منهم يتشددون في العربية ، وكانوا حريصين على ألا يساكنوا الأعاجم ، حتى لا يؤثروا في لغتهم بالعدوى ويقول الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط في مادة عكد ان عكاد جبل باليمن قرب مدينة زبيد ، وأهله باقون على اللغة الفصيحة وقد زاد شارحه مرتضى الزبيدي ، ولا يقيم الغريب في بلادهم أكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم ولسان البدو النازلين في الجنوب من شبه الجزيرة العربية لا يزال الى اليوم قريباً من الفصحى ، ويشبهه في بعض الوجوه^(١) وإن ذلك التشدد في العربية في مقابل النزعة الشعبوية التي بدأت تدعو الى غير العربية حقداً وعجزاً ومهما يكن من الشعبوية فإن سيل العامية لم يوقف .

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ص ٣٩ للاستاذ المرحوم نجاتي .

ولما قبض آل بويه على الحكم طغى سيل العامية في العراق العربي، ونزحت العناصر العربية عنها ، هروبا من الطغيان الاعجمي ومن بقي في العراق اندمج في الاعاجم بالتزاوج وكل ذلك زاد العامية انتشاراً ، والفصحى افولاً .

أما في غير البلاد العربية فإن حظ العربية حتى العامية أخذ ينقص، وكلما انقبضت العربية ولو عامية انبسطت لغة الأقاليم وسيطرت ، واستيقظت من من سباتها وقامت من مرقدتها .

وقد نمت تلك الحال سريعاً، فما ان امتد نفوذ بني بويه في الأقاليم الشرقية حتى نشطت اللغات الأخرى واستردت حياتها ، وطوردت اللغة العربية من بلاد سكنتها وازدهرت فيها حتى صارت بلادها

وما هو ذا المتنبي في القرن الرابع الهجري خرج قاصداً فارس ، فما كاد يغادر بغداد ويدخل أرض فارس حتى هاله الأمر، فلم يجد لساناً عربياً يخاطبه بل وجد لساناً أعجمياً ، وقد قال في وصف الحال عند شعب بوان .

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان^(١)

ولم يكن للعربية الفصحى نصيب إلا في بعض المكاتبات والرسائل تكون بين بغداد ، وغيرها من البلدان وكان أولئك الملوك من الأعاجم يحرصون على تشجيع الكاتبين بالعربية في الأدب وإن لم يكن مترسلاً بل كان السجع يسوده ولذلك كان من بين هؤلاء الأعاجم من الأدباء من زخر بهم علم الأدب ، مثل مقامات الخوارزمي ومقامات بديع الزمان الهمذاني فكانت اللغة العربية وعاء الادب في الجملة .

ولكن يحوار ذلك وجد من كان يتعصب للفارسية في الأدب ، فشجع

(١) الكتاب المذكور .

الذين يسجلون أديهم باللغة الفارسية ، ومن هؤلاء ، أو من أولهم السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي الذي كان له نفوذ وسلطان ، فقد شجع الفردوسي على أن يكتب الشاهنامه بالفارسية ، وعلى أوزان الشعر العربي .

وان الفرس من أيام بني بويه ومن شا بهم أخذوا يهجرون العربية ليحيوا لغتهم ، ومنهم من جهل العربية جهلاً تاماً ، ومنهم من كان يعرف اللغتين ، ولكن خطابه ومعاملاته بلغته ، لأنها اللغة التي عادت إلى الشعب ، بعد افتراق عنه ، وإن كان إلى خير منها ، وهي لغة القرآن .

وكانت اللغة التركية تجد لها حياة وقوة في وسط المعترك اللغوي بين العربية والفارسية ، وصارت لسان الترك حتى إذا آلت الخلافة الاسمية إلى آل عثمان رفعوا التركية ، وفرضوها على كل الأقاليم الإسلامية الخاضعة ، ثم كان أن انسلخت من العربية حتى في الشكل والكتابة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

خلاصة ونتيجة :

١٢٠ - اننا الآن مفترقون ، بل بيننا تناحر وتنازع في بعض نواحيها . وان ذلك داء اعترانا بعد أن لم يكن ، وعارض عرض على أصل كيانتنا ، ورأينا مقدساتنا كيف تتهدم بأيدي أعداء الله وأعداء الحق ، وأعداء الاسلام ، ووجدنا من لحن اقوالهم ومراميمهم أنهم يرومون البيت الحرام ، وروضة النبي ﷺ ، وقال قائلهم بعد أن استولوا على أيليا والمسجد الاقصي ، لقد صار الطريق إلى مكة والمدينة مفتوحاً وهم متفقون على باطلهم ، ونحن متفرقون متنازعون على حقنا .

داء لا بد من أن نعالجه ، ولكي نعالجه لا بد من معرفة الكيان الاصيل للوحدة الإسلامية الذي اعتراه الداء ، ولا بد أن نعرف كيف دخل الداء ، ولا بد أن نعرف حقيقة وذاته ، فليس الطبيب الماهر هو الذي يستطيع أن

يكتب الدواء إنما الطبيب النطاسي هو الذي يستطيع أن يكشف الداء ، وقوة البناء الجسمي ، وأصل تكوينه ، وابعاده ، وما أثر فيه في الماضي ، وما يؤثر فيه في الحاضر .

ولذلك اتجهنا إلى أصل تكوين الوحدة الاسلامية ، فذكرنا تكوين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف ألف الله تعالى قلوب المؤمنين ، وكيف حولهم من عداوة على شفا حفرة من النار ، إلى وحدة تجمعها المحبة ، وتقربهم من نعيم الجنة ، وعز الدنيا ، والغلب العادل ، والفتح المبين .

ثم ذكرنا كيف استمرت هذه الوحدة بعد أن انتقل الاسلام بالعرب فجعلهم يندمجون في غيرهم من الأمم ، وكيف صار شكل الوحدة في عهد الراشدين رضوان الله تعالى عنهم ، وكيف كانت المساواة تجمعهم ، والعدالة تقوي الوحدة ، وكيف كانت الأمة كلها عرباً وعجماً كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وكيف زالت الحجزات بين الأقاليم الاسلامية التي كانت تدين بالقرآن ، وحكم الله الذي كان الخلفاء من أصحاب رسول الله تعالى الأولين لا ينطقون إلا به ، ولا يصدرون إلا عن كتابه وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وخيرات البلاد الاسلامية يفيض بعضها على بعض ، لا يحتكر اقليم على اقليم ، ولا يضمن قوم بفيض خيرهم على الآخرين ، والتعارف يربطهم ، والمساواة العادلة تجمعهم ، والتعاون على البر والتقوى قوتهم التي يدعون بها أمام أعدائهم ، وبه يهاجمون الشر في مواضعه ، وتحقق فيهم قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ومن تكوين الوحدة وقيامها علمنا كيف يمكن إعادتها ، وكيف يستطيع الحكيم المصلح أن يعيد الجمع المتفرق إلى وحدته والنفور المستحكم إلى الائتلاف . وقد صورنا كيف أخذ سوس الفرقة يتغلغل في الأمة الاسلامية ، وكيف

حلت الاقليمية محل الوحدة الاسلامية ، ولم تستطع أن تعيش معها ، والعدل
يوجب أن يأتلفا ، لأن الوطنية يوجب الاسلام فيها ألا يعتدي الوطني على
غيره ، فان ذلك هو العصية المقيتة وقد رويننا في ذلك قول النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم « ان العصية أن يعين قومه على الظلم » ، وبيننا أن عناية كل
وطني بوطنه في ظل الاسلام ، والجمع الاسلامي يجعل من الأوطان القوية
المتحدة قوة للجماعة الاسلامية ، اذا كانت الهيعة لنصرة الاسلام واستجابت
كل الأوطان القوية .

ولقد ذكرنا التفرق وكيف دخل شيئاً فشيئاً إلى الجماعات الاسلامية ،
حتى نسي الناس الاسلام الجامع ، ولم يذكروا الا الوطنية الجامحة المفرقة .

واننا بعد أن سرنا في تلك الرحلة الشاقة رحلة التفرق والانقسام فابتدأنا
من وحدة جامعة في عهد الراشدين ثم سارت في الدانية في العصر الأموي ،
ثم وجدنا اجزاء الجسم يتساقط بعضها عضواً عضواً ، حتى صارت أشلاء
متفرقة وأخذت الذئاب تنوشها شلوا شلوا ، ثم أخذت تفترسها جميعاً ، حتى
انتهى الأمر فلم نجد جمعاً متلاقياً ، بل وجدنا أجزاء تنوشها ذئاب الغرب بل
الشرق أيضاً .

وما جاء القرن الرابع عشر الهجري الموافق له المتمم للعشرين الميلادي ،
ولا يوجد اقليم اسلامي مستقل ، أو غير خاضع لنفوذ دولة أخرى غربية لا
ترجو للاسلام وقاراً ، بل انها صليبية في ثوب جديد من الصليبية ، حتى ان
ملك الانجليز عندما قابل المنتصر في فلسطين قال له لقد انتصرت في آخر
حرب صليبية ، والقائد الفرنسي في الشام زار قبر صلاح الدين الأيوبي وقال :
ها نحن أولاء قد عدنا يا صلاح الدين .

١٢١ - والآن نلخص اسباب التفرق ، بل التجزؤ والسير في طريق
الفناء ، كما رأينا في سير التاريخ الذي سقناه فيما يلي :

- أولها - وهو أعظمها أثراً ، فساد الحكم عند الحكام ، وصيرورته ملكية

تتغالب مع غيرها ، وتطبيق قانون الغابة على المسلمين بعضهم مع بعض ، فلم يفرق الحكام بين حكم نبوي يستمد اصوله من الاسلام ، وحكم القلب والقهر . وان فساد الحكم نجم من ثلاثة عناصر مخالفة كل المخالفة لأحكام القرآن ، وسنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

(أ) اهمال الشورى عند تعيين الحاكم ، وفي حكمه ، فان الله تعالى يقول « وأمرهم شورى بينهم » وان ذلك يقتضي ألا يختار الحاكم إلا بشورى المؤمنين وان تكون بعد الشورى حرية المبايعة وأن يوفي الحاكم بحق البيعة ويوفي المحكوم بحقوقها ، وحققها من الحاكم العدل وألا يهلك الحرث والنسل وأن يعمل ما فيه خير المسلمين ، وأن يستشير حتماً أهل الرأي والخبرة ، على حسب النظام الذي يناسب الزمان ، وحققها على المحكوم الطاعة في غير معصية الله تعالى أو كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المنشط والمكره الا أن يؤمر بمعصية ، ومن حق المبايعة النصيحة لأولي الأمر ان اشتطوا أو جاروا ، وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم . ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

(ب) ومن عناصر الفساد جعل الحكم وراثياً - يتلقاه الخلف عن السلف ، كأن الشعوب مادة تورث ، وأن الحكم حق ينتقل من مالك الى مالك ، وما نظر الاسلام إلى الشعوب هذه النظرة ، وقد وصف الرسول هذا النوع من الحكم بأنه ملك عضوض ، وانه ترتب على جعل الحكم وراثياً أن تولاه غلمان لا يدركون ، ويتلعب بهم .

وقد نتج من اهمال الشورى ، وصيرورة الحكم استبدادياً في إقامته ، وفي نظامه ، إهمال رأي الجماعة الإسلامية إهمالاً تاماً ، فانقطع الاتصال بين الحاكم والمحكوم ، وطمى الحاكم وذل المحكوم .

ومن فساد الحكم اهمال الأحكام الإسلامية ، فتشيع المحاباة ، وتباح الدماء

ويهمل القصاص . وتهمل الحدود التي أمر الله تعالى بإقامتها ، وإقامتها فريضة محكمة لا مناص من اتباعها والقيام بحمها .

(ج ١) ومن فساد الحكم المغالبة التي كانت بين حكام الأقاليم ، بحيث ينظر حاكم كل إقليم إلى الآخر نظر المتربص الذي يريد الفتك بصاحبه ، فإن لم يسبقه سبقه ، والسابق والمسبوق في النار .

(د) وشر مظهر من مظاهر الفساد في الحكم الإسلامي أن يستعان بغير المسلم على المسلم ، كما استعان الفاطميون على الأيوبيين بالصليبيين ، وكما استعان ابن العلقمي بالتر على من سمي خليفة المسلمين ، وكما روي من أن أول من فتح أعين التتر على المؤمنين ، والناقم أو ملك غاشم .

ومن ذلك النوع مما لآلة الحاكم المسلم مع غير المسلم ضد بعض المسلمين ، وقد كان ذلك في الماضي ، فكان الملك الأموي يمالئ الروم في القسطنطينية ، وهو على عداوة مع العباسيين ، فكان هؤلاء يذهبون إلى الاندلس ويهادونهم وأولئك يكرمون وفادتهم ، وكان العباسيون يمالئون شارلمان وغيره من الفرنجة الذين يساورون الاندلسيين ويحاولون أن يخرجوهم من ديارهم .

ومن هذا النوع سكوت الحاكم المسلم القوي عن معاونة من يستغيث من ضعفاء المسلمين ، كما فعل العثمانيون مع أهل الاندلس ، وهم يستغيثون ولا مغيث وتركهم سليم الأول وسليمان القانوني حتى شردوا ، ومزقوا كل ممزق ، وذهبت دولة الاندلس ، غصن الإسلام الرطيب .

الطائفية :

١٢٢ - والسبب الثاني من الاسباب التي فرقت المسلمين الطائفية ، وكانت الطائفية أول طريق اتجه بالمسلمين إلى الفرقة والانقسام ، ولكن الممول الأول رد على صاحبه ، وذلك لأن الجدار الإسلامي كان قويا ، يحطم من يحاول أن يحطمه ، ولكن الأثر امتد لما بعده .

فالطائفية ظهرت في أسباب مقتل الشهيد ذي النورين عثمان رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وقد رأيت مما سقنا كيف ترتب عليها انه نادى بالأمر من ليس أهلاً له متمسحاً بدم عثمان رضي الله عنه ، وكيف انقلب بعد ذلك أمر الحكم الإسلامي من خلافة نبوية إلى ملك عضوض متوارث .

ولقد كانت الطائفية سبباً في الفتن أو الثورات المتوالية على بني أمية أولاً ثم بني العباس ثانياً ، ونحن لا نقول ان الذين ثاروا على الحكم الأموي كانوا أقل فضلاً من ملوك بني أمية ، فما كان زيد بن علي استاذ أبي حنيفة أقل فضلاً من هشام بن عبد الملك وكذلك ما كان محمد النفس الزكية ولا اخوه ابراهيم أقل فضلاً من أبي جعفر المنصور، ولكن مهما تكن أسباب الخروج عادلة في ذاتها ، فإن الخروج ، وفشله يؤدي إلى أمرين لا محالة .

أحدهما - توهين شأن الوحدة ، وبلبلة افكار المسلمين نحو حكاهم ومن غير نتيجة .

ثانيهما - ان الخروج وان أضعف الثقة في الحكم يزيد الحكم عنفاً ، ويزيد الشعب ضعفاً وما ذلك من المصلحة في شيء .

وقد ترتب على الطائفية أن انقسمت الحكومة الإسلامية الى حكومات متفرقة . فكان الإدارة بالمغرب ثم الفاطمية بالمغرب ومصر والشام، وأخذت تنقص الأرض من أطرافها على العباسيين ، وكل ذلك على حساب الوحدة الإسلامية .

وكان من آثار الطائفية ان قامت دولة الناصر الأطروش بالديلم والجل ، وقامت دولة الهادي ومن بعده باليمن ، وتوارث ذلك بنوه من بعده .

ولا ننظر أي هؤلاء أعدل ، وأقوم للحق والقسطاس ، ولكنها فرقة على أي صورة كانت ومن التفريق يدخل الضعف ، وتذهب قوة الجمع ، ويكون أمر المسلمين من بعد فوضى لا رابطة تربطهم .

وانه في وسط الثورات الطائفية ، أو الانقسام بسبب الطائفية وجدت النحل الفاسدة سبلها للدخول في جماعات المسلمين هادمين ، مثيرين فتنة القول والاعتقاد ، كما كان الأمر في القرامطة وغيرهم من الفئات التي تسهل دخول الانحلال الديني الى القلوب ، فضلاً عن الفرقة والانقسام وجعل بأس المسلمين بينهم شديداً ، وقد أخذهم الأعداء الذين كانوا يتربصون بهم من كل جانب .

وقد ذكرنا في صلب البحث أثر الطائفية في حرب التتر وزوال الدولة العباسية وفي حرب الصليبيين ؛ ولم يكن أثر الطائفية مقصوراً على ما ذكرنا هنا ، وما ذكرناه من قبل ، بل كان لها أثر أشد وأقوى وتأثيراً ، وربما كان تفرق الحكام أثراً من آثاره ، وذلك في أمرين :

أحدهما - الافتراق النفسي ، فقد كانت كل طائفة - تحسب نفسها مسلمين منفصلين عن الآخرين ، وكل فرقة تحسب أن اتباعها هم وحدهم المسلمون ، ولقد وجدنا في بعض كتب الشيعة انهم لا يعدون غيرهم من المسلمين مؤمنين ، وان كانوا يعدونهم من أهل القبلة ووجدنا ان الشيعة لا يقبلون شهادة واحد من السنة ولو كان في ذاته عدلاً مستقيماً السيرة ، ويقبلون شهادة الشيعي ، ويردونه بها شهادة السني ، ولو كان الشيعي فاسقاً في ذاته ولا نريد أن نقول ان ذلك حق أم باطل ، ولكن نقول انه فرقة في النفوس وقد أدى في الماضي إلى أن يكون لكل دولة ، ويؤدي في الحاضر إلى الضرر الدائم المستمر ، اللهم ألف القلوب في الحاضر ، كما ألفتها في الماضي ، اللهم انك رؤوف بعبادك ، فلا تمكن ذئاب الأرض منهم قابلاً ، كما تمكنوا سابقاً .

الأمر الثاني - اختلاف الاحكام المطبقة ، فالشيعة لهم اجتهاد فقهي ، والسنيون لهم اجتهاد فقهي وان ذلك لا خطر فيه في ذاته ، ولكن له أثر في الفرقة والانقسام في داخل الدولة الواحدة وقد كان المستعمرون يوسعون الهوة بين الشيعة والسنة في كل بلد يحكمونه ، ونريد ألا يكون هذا الباب مفتوحاً يلج الشر منه دائماً ، ولا نريد أن نمحو الاختلاف المذهبي فهو ميراث

يكون تركه مثرية من الفكر الإسلامي ، ويجب احياءه في الدراسة ، وتخفيفه في العمل ، والله بكل شيء حفيظ .

احياء اللغات القومية :

١٢٣ - ذكرنا كيف ماتت اللغة العربية في الأقاليم الإسلامية غير العربية في المشرق ، ولكنها استمرت باقية في العراق والشام ، ومصر ، وشمال افريقية على عجمة دخلت فيها ، ولكنها على أي حال استمرت باقية . وان حاول المستعمرون في العصر الحديث ان يزيلوها ، فالجزائر قد حوربت فيها اللغة العربية ، حاربها الفرنسيون إذ استولوا عليها أمداً غير قصير ، وحاربوها في المغرب .

ولكنها استيقظت في كل بلد حوربت فيه ، وأخذت تنهض من الكبوة التي اسقطوها فيها ، وانما سائرة بعون الله تعالى نامية قائمة وصارت عربية بالتعرب بعون الله تعالى . أما في المشرق وبلاد العثمانيين فقد زالت اللغة العربية زوالاً كاملاً ، ولم تعد لغة التخاطب ، ولا لغة الدولة ، وان كانت مستمرة بين كثيرين من العلماء الذين عنوا بدراسة القرآن ، أو الدراسات الإسلامية بشكل عام ، فباكستان غلبت فيها الاردية والافغان ويران سادتها الفارسية ، والعمانيون وبلاد الاتراك سادتها التركية ، والمسلمون في الهند والصين يتكلمون بلغاتهم ، ولا يعرفون من العربية الا ما يصححون به صلاتهم من حفظ الفاتحة وخطبة الجمعة في تلك البلاد الشرقية ما عدا تركيا واندونيسيا وفيها نحو مائة مليون مسلم أو يزيدون عن ذلك كثيراً أو قليلاً ، وهم كذلك يتخاطبون بلغتهم ولا يتخاطبون بلغة القرآن .

ومسلمو الشرق الذين لا يتخاطبون بلغة القرآن يبلغون نحو ستائة مليون أو يزيدون ، ولا يجمعهم بالمسلمين إلا اسم الاسلام ، وان جهل اللغة العربية في تلك الاقاليم جعل أطراف البلاد لا يعرفون أحكام الاسلام في الاسرة

والمعاملات المالية ، بل العقيدة ذاتها يؤمنون بالله على حرف أو انحراف ، ولا يتصلون بالعلم الاسلامي الذي يرفع درجاتهم الفكرية والنفسية .

وانه في أطراف اندونيسيا ، تتزوج المسلمة البوذي والمسيحي ، وغيرهما ، ولا تعرف أن ذلك محرم عليها ويتزوج المسلم الوثنية ، ولا يعرف أن ذلك حرام عليه لانه لم يقرأ قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ، ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه ﴿ولم يجدوا من يصلحهم بالثقافة الاسلامية ، ولا يصل اليهم العلم الاسلامي الا بلغاتهم التي تنقصها الثقافة القرآنية والنبوية وانه من المناظر التي تؤذي الحس أنه في بيت الله الحرام حيث يجتمع المسلمون للتعارف في ضيافة الرحمن ، وحيث مهبط الوحي ومنزل النبوة ، نجد المسلمين لا يستطيع بعضهم أن يخاطب الآخرين ، إلا باللغة الانجليزية لغة من حكموا بغير الحق ارضهم ، وحاربوا في خفية الأمر دينهم الذي ارتضوه ، وكذلك الذين استعمرهم الفرنسيين يتكلمون بلغة الفرنسيين ، وليس فيهم من تذهب همته الى أن يحج بيت الله الحرام ، وهو يعلم العربية ليستطيع مخاطبة أهله .

واننا نجد في المؤتمرات الاسلامية لا رواج للغة العربية الا بين العرب ، ونجد سكان افريقيا وآسيا من المسلمين يتكلمون الانجليزية والفرنسية .

وان المؤتمرات التي هي مظهر الوحدة نجدها مظهر التفرق ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

كيف تتكون الوحدة الآن

١٢٤ - ان التفرق والتنابد هو الظاهرة القائمة الآن ، وقد كان للمسلمين عذر من قبل لانه كانت كل البلاد الاسلامية ، ان استثنينا دولة آل عثمان تحت السيطرة الاجنبية فمصر والهند وكان المسلمون نحو مائة وعشرين مليون مسلم بها ، تحت سلطان الدولة الانجليزية ، وشمال افريقيا ، وكل البلاد الاسلامية بها كانت خاضعة لفرنسا أو لانجلترا .

ولما خرجت الشامات والعراق من سلطان العثمانيين تلففتها فرنسا وانجلترا ، وكان العراق من نصيب الانجليز خاصة ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدول الاسلامية تتحرر من الاستعمار الصليبي بجهاد شعوبها ودماء أهلها ، حتى تسلم الأمر حكام منها ، فصارت الباكستان دولة مستقلة ، وهي تضم الآن نحو مائة مليون مسلم ، واندونيسيا مثلها أو أكثر ، وافغانستان وإيران ، كلها بلاد اسلامية تحررت من النير الاجنبي الفعلي ، وتحررت مصر ، وشمال افريقية ، والبلاد الاسلامية التي كانت تحت الحكم الانجليزي أو الفرنسي أو البلجيكي .

وهكذا رفع الأجنبي يده ، وأوردت يده مغلوله .

ولكن الأجنبي الغريب ربى ناساً من أهل البلاد ، كان يقرهم إليه ، ويدنيسهم ، وقد آل أمر الحكم في هذه البلاد إلى أولئك الذين كان قد اصطفاهم اعداء الاسلام ، وأولئك يؤمنون بن اختاروهم ، ولذلك كانوا على ولاء مع أولئك .

وصار المسلمون اليوم تتفرق حكوماتهم فمنهم من يوالون الغرب في إنجلترا وأمريكا ، ويرتمون فيهم ، ويجعلون لهم نفوذاً بغير الجيوش التي تجوب الديار ، ولكن بالاتجاه الفكري ، والمعونات المالية والعسكرية على أساس ألا يعملوا فيها إلا ما يريده الذين اعطوهم ، ومن هؤلاء من يوالون الشرق ، ويستمدون منهم المال والسلاح ، ويتكلمون بنفقتهم ، ويجعلون أنفسهم لهم تبعاً ، ومنهم يتوسطون فيميلون لهذا تارة ، وللآخر أخرى . وبذلك اختار حكام المسلمين التبعية ، ولم تفرض عليهم ، والمتبوع دائماً لا يشجع الاسلام بل لا يريد أن يكون تابعه للاسلام خالصاً .

والشعوب ليست وراء الحكام ، بل هم منفصلون عنهم شعوراً وإيماناً ، ورغبة في الوحدة والاتحاد بين المسلمين والاندماج في وحدة اسلامية جامعة .

أول الطريق :

١٢٥ - وأول الطريق أن ننخلع من نير الاجنبي ، فلا يقال عن حاكم ما انه ينزع منزعاً غريباً وانه ذو الخطوة عند أمريكا، أو إنجلترا، أو غيرها ، بل تكون نزعتة اسلامية خالصة ، ولا يقال عن حاكم آخر انه ينزع نحو الشرق هو الذي يوجه سياسته وهو منه بمنزلة التابع من المتبوع ، ولكن نريده إسلامياً، ولسنا نريد أن تقطع العلاقات بين أي حاكم ، وأي أجنبي ، بل نريد أن يكون الحاكم أياً كان لونه رئيساً أو ملكاً ، أن تكون كلمة الإسلام هي العليا ، وأن تكون العلاقات كلها دون العلاقة الإسلامية بحيث تكون هي الرابطة الاولى ، اليها تتجه النفوس وتتحرك لها الغايات .

ويكون الإسلام هو المستغرق للنفس المستولي عليها الذي لا تعرف سلطانه لغيره ، مهما يكن سلطان القوى ، ولكن حكام المسلمين لا يزالون في غرة من أمر الذين أذاقوا البلاد الإسلامية الوبال ، مع أن نيات العداء لا تزال واضحة للعيان ، فقد عملوا في الحاضر ما لم يعملوا في الماضي .

لقد أخرجوا المسلمين من ديارهم واموالهم في بقعة من أرض الإسلام (فلسطين) ومزقوا أهلها كل ممزق ، وتركوهم يأكلهم العربي والجوع ، فلا مأوى يؤويهم ، ولا أرض يستقرون بها ، ولقد يكون ذلك كالبضع يقطع في جسم حي قد ذهب عنه المخدر ، أو كالسكين تقطع في جسم حي ليحس بالألم فتكون له ارادة ولكن لم يتحرك المسلمون لذلك ، وتركوا الأمر للعرب وحدهم ، وكأنهم ليسوا مسلمين ، والعرب أنفسهم تدابروا فمنهم من له هوى مع أمريكا التي كان ذلك القطع تحت سمعها وبصرها ، وأيدت المفسدين من اليهود ولا تزال تؤيدهم وتطفيهم ، ومن العرب الذين يزعمون انفسهم ينتمون للنبي ﷺ من يوالون اليهود باطناً ويوالون الامريكان ظاهراً وباطناً .

اننا الآن نحررنا من نير الاجنبي الذي يعاديننا ، وسلمنا أمورنا لأولياء منا ولكنهم لم تكن أعماهم للإسلام خالصة كلها ولم يعملوا للوحدة كاملة مع أننا في عصر التجمع ، الذي تتجمع فيه الدول المتفرقة تحت حلف ، أو أمم جامع أياً كان سبب ذلك الجمع ، وان الاقليم الذي لا يدخل في كتلة لا نكاد نرى له وجوداً بينهم ولكن الاقاليم الإسلامية تنفرد فيما بينها ، ويحاول بعضها أن يدخل في حلف من أحلافهم فيكون كالواغل بين شرب يتبرمون به ، ولا يسقونه مما يشربون .

ان روح العصر توجب على المسلمين أن يتجمعوا في وحدة حول كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ، لأن الله تعالى يناديهم من وراء الخلود في قوله تعالى كما تلونا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ، وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

انه لا بد أن نجتمع بعد طول الافتراق ، لأن الأمة الإسلامية تقوم فيها الروابط على وحدة الدين والعقيدة ، ووحدة المبادئ الخلقية الفاضلة ، والنظم

الاجتماعية العادلة والعبادات الجامعة ، وفي كل يوم يمر يشعر المسلم بالوحدة ، ان أدى العبادات على وجهها ، فتلك الوحدة في قلبه أثناء الليل وأطراف النهار ، فانه في الصلوات الخمس يتجه إلى الكعبة المكرمة قبله المسلمين اجمعين ، فاذا كان وهو يؤدي هذه الصلوات يشعر بأنه واحد من الوف الملايين الذين يتجهون إلى هذه القبلة ، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين رب الخلق اجمعين ، ومرتبطة بالمسلمين في بقاع الأرض بهذه القبلة التي توحد قلوبهم ومشاعرهم وإذا كان ذلك الارتباط بالمكان في الصلاة ، فهناك ارتباط بالزمان في شعيرة اخرى من شعائر الإسلام وهي الصوم ، فإنه إذا جاء رمضان، ورؤي هلاله في مكان الزم به جماعة المسلمين في كل بقاع الأرض فيكون ذلك اشعاراً لهم بأنهم أمة الله تعالى دعاهم إلى الوحدة فيها ، كما أوجب العقل والشرع وحدانية الله تعالى ، فالصوم يوحد المسلمين باتحاد زمان العبادة كما أن الصلاة توحدهم بمكان الاتجاه فيها ، وفي الحج تلتقي جماعات من كل اقليم اسلامي في بيت الله الحرام ، في ضيافة الله سبحانه وتعالى ، ويتعارفون فيعرف كل اقليم آلام الآخرين وآمالهم ، ويتصل بأحاسيسهم ومشاعرهم ، ويعرف ما يحتاج اليه كل اقليم ، وما يفيض من خيرات ، ليمد به الآخرين ، وبذلك تتحقق في الحج أمور ثلاثة هي من رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ - أولها - اتجاههم موحدين متحدين لربهم وإقامة نسكه ، وتذكر أبي الانبياء ابراهيم ، والقيام بالمناسك وأداء العبادة الجماعية والاجتماعية والروحية وتعرف مهابط الوحي ، ومنازل الرسالة .

ثانيها - التعارف الانساني ، وقوة التأخي ، والشعور بأن المسلمين جسم واحد .

ثالثها - التعاون في دفع الضر ، وجلب الخير ، والتعاون في الكسب الطيب ، والتعاون في أخذ خيرات الأرض بحيث يأخذ كل إقليم مما عند الآخرين ، وقد وجه الله سبحانه وتعالى الحجاج إلى ذلك يحوار أداء النسك ، فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ، فإذا أفضم من

عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴿١﴾ واقرأ قوله تعالى : ﴿٢﴾ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴿٣﴾ .

نعم جاء النص الكريم بأن الحج مع النسك الاعظم ، يشهد المسلمون فيه منافع لهم ، وأي منفعة أجل وأعظم من التعارف والتعاون على البر والتقوى ، وأن يعملوا على أن يفيض أهل كل إقليم على غيرهم بما ليس عندهم .

وقد كانت الاسواق التجارية مجنة وعكاظ وذو المجاز في موسم الحج ، يتبادلون فيها البضائع ، فلنتبادل نحن الصفقات المثمرة التي تتعاون فيها الشعوب الإسلامية وإن الذي ننتهي منه بعد التعرف للعبادات الإسلامية أنها توميء أو تصرح بالاخوة الإسلامية ، ويؤدي القيام بها على وجهها إلى شعور كل مسلم بأن المؤمنين اخوة بحكم الإسلام ، وأن الاخوة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية . وان أسباب هذه الاخوة قائمة ، وان العقائد والتكليفات وحدها كافية لإقامة وحدة إسلامية .

ولقد قال في ذلك باعث النهضة الإسلامية في العصور الحديثة : جمال الدين الأفغاني « أما وعزة الحق ، وسر العدل لو ترك المسلمون أنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين لتعارفت أرواحهم ، واتفقت آحاديدهم » .

ولكن وأسفاه على المسلمين كانت الشعوب في جانب وحكامهم في جانب آخر فقلوب بعض الحكام مع بعض من الأجانب ، وآخرون مع جانب آخر ، وقد توزعت المسلمين في الماضي الأمم الغربية ، فسيطروا عليها ، وأدنوا المروجين لهم وأبعدوا المؤمنين المخلصين لدينهم وبلادهم ، فلما تحررنا من الاجنبي حكنا نحن المسلمين من كانوا يدنونهم ، وبعد عن الحكم من كانوا يعادونهم

الوحدة الاسلامية ووحدة العقيدة :

١٢٦ - تقوم الوحدة الإسلامية على وحدة الدين ، والدين عقيدة وعبادة ، وفضيلة ، وتعاون على البر والتقوى وعدل .

فإذا قلنا إن الوحدة الإسلامية تقوم على الدين ، فمؤدى الكلمة أن تسود العقيدة المنزهة ، والعبادة المنجحة الى الله ، والتعاون بين آحادها بل بينها وبين الناس اجمعين ما داموا يعملون في سبيل الخير ، والفضيلة التي تجعل الانسان لا يرتع في مراتع الشر ، ولا يفسد في الأرض ، ولا ينخلع عن إنسانيته إلى أن ينزو نزو القردة ، وينهل كالحنزير من معاطن النتن ، ثم هذا يؤدي إلى العدالة بين القريب والبعيد والعدو والولي ، والمسلم وغير المسلم ، فالعدالة قانون الله وقانون الإسلام ، وقانون الانسانية السامية ، لقد قال تعالى في النهي عن ظلم العدو البغيض ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وانه إذا قامت الوحدة الإسلامية على أساس الدين ، وأخذ المسلمون جميعاً بأخلاق الإسلام التي علمها القرآن ، وأوصى بها محمد ﷺ ، ذهبت أكثر ضرور العالم ، وكان المسلمون كما ابتدؤوا مثلاً عالية للفضيلة والانسانية العالية .

وقد فقد العالم ذلك بتفرق المسلمين ، وتأخرهم عن الصف الأول في بني الانسان ، واحتل الصف الأول من تخلقوا بأخلاق القردة في نزواتهم ، والخنازير في مقاديرهم وإن الاخوة الإسلامية تقوم على عناصر ليس فيها اعتداء على أحد ، ولا تمصّب ضد أحد ، إنما تقوم على ثلاثة مبادئ كلها يتصل بالأخلاق والفضيلة .

أولها - شعور بالأخوة بين المسلمين بعضهم مع بعضهم ، يتحقق فيها قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ وألا يكون منها إعتداء على غيرهم إلا إذا اعتدى على إقليم منهم .

ثانيها - وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية ، حتى يتضافروا جميعاً على محاربة

المذاهب الهدامة . ومنع شيوعها بين المؤمنين خاصة ، وبين الناس عامة ، حتى لا يكون فساد في الأرض .

ثالثها - ألا يكون من اقليم اسلامي حرب على اقليم آخر ، أيا كانت أساليب هذه الحرب سواء أكانت بالاقتصاد ، أو بالتحالف على مسلمين .

وقد يقول قائل إن هذه الوحدة مخالفة لنواميس الاجتماع ، ان المجتمعات في الأمم تقوم على وحدة الجنس ، أو الاقتصاد ، أو وحدة المكان ، كما في أمريكا ، وهؤلاء المسلمون في اقاليم شتى في الأرض ، فكيف تجمعهم وحدة دينية مع تفرقهم في الأرض ، وتنوع اقتصادهم ، وتحالف عناصرهم ، ونقول في الجواب عن ذلك :

✓ ان قيام الاجتماع الإسلامي على مبادئ الفضيلة ووحدة العقيدة هو أمثل الطرق لتكون الجماعات الدولية ، ونحن لا نريد بالوحدة تكوين دولة ، انما تكون مجتمع اسلامي من عدة أقاليم .

ولا يعد الاجتماع العنصري أو الاقتصادي أو المكاني أمثل الاجتماعات لتكوين الأمم ، وذلك لأن الجماعة الواحدة لا تتكون وحدة إلا إذا اتحدت المشاعر والمنازع النفسية ، ولا تكون هذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط ، بل لا بد مع تبادل المنافع من اتحاد المشاعر النفسية ، وذلك لأن تبادل المنافع يحقق اتحاداً وقتياً عند قيامه ، ويزول بزواله ، وهو عرض غير دائم ، وإذا قامت أمة على أساس التبادل الاقتصادي أو الاشتراك في المنفعة المادية ، فانها تكون غير مندمج آحادها بعضهم في بعض .

وان الاجتماع في مكان واحد مع اختلاف العناصر يكون اجتماعاً يحمل في نفسه عوامل التحلل اذا لم تكن معان روحية تمنع قوة العنصرية وتدفعها . فلا بد من أن يظل العناصر المختلفة دين مذهب لأن العنصرية تفرض دائماً تفضيل عنصر على عنصر ، ومع هذا التفضيل الاعتداء على غير هذا العنصر . والعنصرية

شكل من أشكال التجمع الحيواني ، اذ تجتمع فصيلة من الفصائل وتقاتل
الآخري ، وتجتاز مكانها الذي تقيم فيه لتغالب الآخرين ، وبذلك كانت
الحروب المستمرة حيث لا يكون دين جامع ، ولا تهذيب مانع .

فليس التجمع على أساس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتخلفة في
الإنسان .

وانا لنرى ذلك واضحاً في الدول التي تعامل الشعوب على أساس الوانها ،
وليست فكرة الشعوب الملونة والشعوب البيضاء الا صورة التحكم العنصرية ،
وبقية من بقايا الحيوانية المتخلفة ، بل أخص صفات الحيوان .

أما الاجتماع باسم الدين ، أو بعبارة أخص الاجتماع باسم الإسلام ، فهو
اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الأخوة العامة بين المسلمين ، والمودة الراحمة
بينهم ، والتعاون الإنساني الكامل معهم ومع غيرهم من الدول التي لا تعتدي ،
ولا تحكم باسم العصبية أو العنصرية .

فهذا الاجتماع الإسلامي تتكون منه أمة متحدة المشاعر الانسانية العالية ،
متجهة نحو الفضيلة ، والمثل العليا التي تنزع بالروح الانسانية نحو الملكوت
الأعلى ، ويخضع فيها الانسان لخالق الاكوان وحده ، وعندئذ يعلو الإنسان
عن المغالبة إلا إذا اعتدي عليه فالدفاع يكون واجباً في هذه الحال ،
ويكون ذلك من الفضيلة ومنع الفساد في الأرض ، كما قال تعالى :
﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل
على العالمين ﴾ .

وإنه في الوحدة الاسلامية التي يكون أساسها تطبيق الدين تكون العدالة
الحقيقية التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إذ لا عنصرية
في الإسلام ، بل الذي فيه : كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، والناس سواسية
كأسنان المشط .

وإن المجتمع القائم على العنصرية هو في أمريكا الشمالية ، وإن فيها لعبرة لأولي الابصار ، ففيها قد صارت الأمور فوضى في الأخلاق وفي النفوس ، والانطلاق مقرر للبيض والحرمان والاضطهاد مفروضان على السود ، فأنك واجد ظلما على السود لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى ، ومادون من قوانين ظاهرها المساواة في الحقوق والواجبات ، إنما هي خطوط مسطورة على قراطيس ، ليس لها في العمل مظهر يدل على وجودها ، ولذلك هوى المجتمع الأمريكي من ناحية الخلق وضبط النفس إلى ما لم يه إليه مجتمع إنساني في عصر حضري .

إن العلو في المجتمعات الفاضلة كالمجتمع الإسلامي ان تحققت وحدة المسلمين ، إنما يقوم على أساس فعل الخير والتقوى ، لا على أساس نبل الدم ، تقوم هذه المجتمعات الإسلامية على أساس احترام الكرامة الإنسانية التي هي حق مشترك بين بني الانسان ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾

وإن الفضيلة إذا سادت ذهب التنافر ، وسكت قانون الغلب .

وإنما تقوم الفضيلة الشخصية والاجتماعية في ظل الإسلام الذي يدعو إلى التعاون الانساني العام . والذي يدعو إلى التسامح العادل ، بعد قمع الرذائل .

ونحب أن ننبه إلى كلمة عامة نقول فيها إن الأديان السماوية كلها التي جاء بها الرسل من الله لا تدعو إلى التنافر ، ولا تحرض عليه ، والتعصب الذي يؤدي إلى الفرقة والانقسام بين البشر ، ليس منشؤه قوة الدين ، أو الاستمساك بالحقائق الدينية السليمة إنما هو من ضعف الاعصاب الذي يؤدي إلى هوس في التفكير وليس من الدين .

وإذا كان التاريخ يذكر تساحراً بين الناس باسم الأديان ، فليس ناشئاً عن الدين نفسه وإنما هو ضعف الاعصاب عند الذين يتزعمون باسم الدين ، وضلال في الفهم .

وفوق ذلك قد يتحول الدين عند الذين لا يدركون حقائقه ، إلى معنى يشبه الجنسية العنصرية ، ولا يكون حينئذ التناحر منبعثاً من ذات الدين ، ولا من مبادئه ، بل من العنصرية التي لبست لبوس الدين ، والدين منها براء ، وهم بمقدار تناحرهم يتخلفون عن مبادئ دينهم .

وان الإسلام يثبت في النفس معنى الخير ، وسمو القضية ، وحب التعاون والتعارف بين بني الانسان ، فشعار الإسلام هو التعارف ، ولذا قال عليه السلام : خير الإسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف ، ووراء التعارف التعاون على البر والتقوى ، والتعاون على دفع الفساد ، ولقد قال سبحانه وتعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾

هذه حقائق مقررة تشير إلى معنى التجمع الإسلامي والوحدة الإسلامية ، وانه لا عصبية ولا جنسية ، ولا اقليمية ، بل محبة ومودة ، واقرأ قوله ﷺ : ان الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال قوم تحابوا في الله من غير أرحام تربطهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور ، وانهم لعل نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . هذه هي الوحدة الإسلامية التي نريدها .

شكلا

١٢٧ - إننا نريد من الوحدة أن تتحقق معاني الاخوة، والتعاون الاجتماعي والاقتصادي والحربي والسياسي ، والثقافي ، ولكن كيف تتحقق هذه الأمور أتتحقق باحياء الخلافة الإسلامية كما كانت في عهد الراشدين ؟

إن ذلك هو الاجتماع الامثل خصوصاً أنه قد وردت به الآثار ، وكان عليها الصحابة أجمعون . ولكن أيكن الأخذ بها في هذا العصر ، وأيكن تحقق شروطها، وهل من المصلحة بعد أن توزعت الأرض المسلمين ذلك التوزيع أن تكون لهم دولة واحدة ، يرجع فيها الحكم الى إمام هو أعظم الولاة ؟

ونقول في الجواب عن هذا اننا لا نرى أن تكون الوحدة قائمة على دولة واحدة لها حكومة مهيمنة على كل المسلمين ، فإن ذلك لا يمكن مع الوضع الهندسي للبلاد الإسلامية في الأرض ، وخصوصاً ان الأراضي الإسلامية ليست متصلة الاجزاء ، وان الأقاليم كما ذكرنا عندما امتد اليها الفتح الإسلامي كانت لها شخصياتها والإمام له السلطان عليها والتنظيم الكامل غير بعيد عنه ، ولكنه في عماله وحكومته له استقلال ذاتي .

وإننا إذا اتجهنا الى تكوين الوحدة الإسلامية ، فإننا نتجه الى أن تكون مناسبة للعصر ، ولا ننسى المبادئ الإسلامية ، فإننا إذا تأثرنا بروح العصر ، إنما هو في شكل الوحدة لا في جوهرها ، فلسنا ممن يخضعون أحكام الإسلام

لروح العصر ولكن الاسلام أمرنا بالقيام بحقائق مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها ، فنجتهد في تعرف أقربها توصيلاً لهذه الحقائق ، فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نسوغ لأي أحد أو نظام أن يتحكم في أي حقيقة شرعية باسم أنها تناسب العصر أو لا تناسبه فحقائق الإسلام ثابتة مستقرة ولا يجوز التغيير فيها أو التبديل .

إن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان أي سلطان يقوم بالحق ، وينفذ الأحكام الإسلامية في جوهرها ولبها ، ولا تمس شكل الحكم في أي إقليم إسلامي بالقدر الذي يحمل الوحدة أمراً قائماً ثابتاً ، ما دام يقيم العدل وينفذ الحق في رعيته ولا يرهقهم من أمرهم عسراً ، فلكل إقليم أسلوب حكمه

إن معنى الوحدة الإسلامية هو الذي نريده وهو غايتنا ، وهو أن نعتبر أنفسنا منها تناءت الديار مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا وهي مبادئ الإسلام وشعائره ، وعبادته وعقيدته ، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة ، كما هو دين التوحيد الكامل ، الخالص من كل شرك

إن الوحدة الإسلامية هي غايتنا ، ويجب أن يتفياها كل مسلم ، ومن لم يؤمن بأن المسلمين أمة واحدة ، فقد عاند نصوص القرآن ودخل في عداد الذين يشاققون الله ورسوله ، ولقد قال سبحانه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ . لقد تفرقنا في الماضي ، فأكلتنا ذئاب الأرض ، وأصابنا الدل ، ومزقنا شر ممزق ، وإذا كانت العنصرية المقيتة قد فرقتنا ، فالقرآن الآن يجمعنا ، كما كان ينبغي أن يجمعنا من قبل ، وإذا كان هوى الحكام وحب الغلب ضيعنا وضعهم في الماضي ، فإنه يجب أن نجتمع في ظل الإسلام ووحده .

١٢٨ - إننا كما قلنا لا نقصد بالوحدة دولة واحدة ، ولكن نريد أخوة شاملة ، وإذا كانت الخلافة الكبرى يمكن أن تكون من غير أن يكون

للمسلمين دولة واحدة ، بل تكون أقاليم مختلفة في ظل اتحاد كامل ، فانه يمكن وجودها في النظام الذي يتصور جامعاً ، وذلك على أساس ألا يكون الاختيار مدى الحياة ، بل يكون على نوبات زمنية متبادلة ، وعلى أساس أن القرشية أو العربية ليست بشرط ، فقد علمت أن الحديث «الأئمة في قریش» إخبار بأنباء المستقبل ، وليس تكليفاً ، وهو كقول النبي ﷺ : «الإمامة بعدي ثلاثون ، ثم تكون ملكاً عضوضاً ، ثم قوله إن الأمر في قریش ما استقاموا ، فان اعوجوا لحوا كما يلحى الشجر أو كما قال ﷺ : وهكذا نحن لا نرى ذلك الشرط ، لا لأنه لا يتفق مع زماننا ، ولا لأنه لا يتفق مع المساواة العادلة التي نص عليها النبي ﷺ ، ولا لاضطراب الانساب وجهلها . وعدم معرفتها على وجه اليقين حتى ادعى القرشية بل الهاشمية من جعل لغير المسلمين عليه ولاية ، لا نبعد شرط القرشية لشيء من هذا ، ولكن نبعده ، لأن النبي ﷺ فيما روي عنه لا يدل دلالة قاطعة على أنه أمر تكليفي ، يجب الأخذ به ، ونجب مراعاته ، عند البيعة وتقديم الطاعة إذ أنه كما ذكرنا يحتمل أن يكون النص للتكليف ، ويحتمل أن يكون للاخبار ، وهو ما نرجحه ، وإذا دخل الدليل الاحتمال بطل الاستدلال ، فلا دليل يلزم بالقرشية ، وخصوصاً أنه قد وردت نصوص أخرى تدل على جواز أن تكون الإمامة من غير قریش ، فكان عدم أخذنا بشرط القرشية ليس فيه رفض لأمر مقرر ، إذ لا يوجد أمر من النبي ﷺ .

هذا وإننا لا نجد أن الخلافة بعد الراشدين لم تكن محققة للوحدة الإسلامية لأنها صارت ملكية ، لا خلافة نبوية .

إن الوحدة الإسلامية يمكن تحقيقها من غير خلافة ، ولكن يمكن أن يكون للخلافة موضع فيها على أنها ليست الركن ، بل على أنها مظهر الوحدة . وانه إذا تحققت الوحدة في السياسة والحروب ، والاقتصاد فقد قامت الوحدة قوية منتجة مثمرة ، وتحقق هذه العناصر في أن يكون أمر جامع ، وهو الجامعة الإسلامية .

الجامعة الإسلامية

١٢٩ - لقد نادى الإمام جمال الدين الأفغاني وصحبه إلى الجامعة الإسلامية ، ولم تذهب دعوته صرخة في واد ، بل كانت منبهة للغافلين موقظة للنائمين ، وإذا كانت الشعوب لم تستجب لها في إبانها ، فلأنها كانت سابقة لأوانها ، وما يعيب صاحب الفكرة أن يكون سابقاً ، وإن لم يتحقق له ما يبغي وما يريد ، ما دامت الفكرة في ذاتها صحيحة واجبة التنفيذ ، وتارك التنفيذ ملوم مقصر ، أو مغلوب معذور ، ولم يمنع تنفيذ تفكير الإمام وصحبه الأكرمين ، إلا جهل المسلمين ، وعدم إدراكهم مغبة استسلامهم للمستعمرين الذين كانوا لا يألوهم خبالاً في دينهم ، وذات أمرهم ، وفوق ذلك كان العدو الاجنبي الصليبي جاثماً فوقهم ، لا يستطيعون أن يتصرفوا إلا فيما يرضى عنه ، ولا يرضى عن أن يكون جمع المسلمين حقيقة ، يتفقون فيما بينهم ولا يختلفون فإنه في الوقت الذي كان يصيح فيه جمال الدين الصيحات التي كانت تنفذ إلى القلوب كان رئيس أكبر دولة غير إسلامية تحكم المسلمين وتناوئهم ، يقف أمام نواب هذا البلد ، ويأخذ كتاب الله ، ويقول ما دام هذا الكتاب في الوجود فإنه لاسلام .

والآن قد قبض الاجنبي يده ، وإن كان كثيرون من الحكام يسرون في ركاب بعض الدول غرباً وشرقاً ، ويصدرون عن أمرها ، في شأنهم وشأن الرعايا المغلوبين بحكمهم .

ولكننا في كتابتنا هذه نتجه الى الشعوب ذاتها ، لقد كانت الحجب من الحكام

والاجانب تحول بين الإمام جمال الدين والشعوب والآن يسوغ لنا أن نتجه الى الشعوب نواجهها بأمر دينها الذي ارتضته واتبعته ، وضاعت وأكلها اعداء الله تعالى وأعداء الإسلام يوم أن تركت أمورها إلى حكام طفخوا على الشعوب ، واستكانوا للهوى أولاً ، وشغلوا عن الشعوب ، واتجهوا الى مرضاة الأقوياء ثانياً، ثم استسلموا وذلوا وهانوا على الناس ثالثاً، ورضوا بألقاب الملك والسلطان ، وكانوا الطامعين الكاسين . إن الشعوب هي التي يجب أن تنهض ، ويجب أن يكون الحكام منهم ظاهراً وباطناً وقوة وإيماناً، ويكونوا على الأعداء لا على المؤمنين ، وأن يكونوا أدلة للمؤمنين اعزة على الكافرين .

وإننا إذا قلنا الجامعة الاسلامية فإننا لا نريد جامعة الحكام أياً كانوا ، تتألف منهم كيفما كانوا ، وتصدر عن أمرهم ، سواء كان صادراً عن الشعوب المؤمنة ، أم كان صادراً عن حكمهم الذي يتجافى مع إرادة الشعوب .

وإذا كنا نريد لنا شعبية ، فإننا لا نباعد الحكام عنها مطلقاً ، إنما نريد الحكام الذين يختارون من شعوبهم ، ولسنا نبعد الملوك أو الأمراء ، أو من يشبههم إنما نريد الحكومات المقيدة بإرادة الشعوب أياً كانت ملكية أم جمهورية فإرادة الشعوب تتحقق في الحكم الملكي، كما تتحقق في الحكم الجمهوري فالوراثة الملكية لا تمنع من أن يكون الشعب هو الحاكم وأن يكون الوزراء ممثلين له، غير خارجين عن أمره ، كما نرى في الحكومة الانجليزية، والبلجيكية والدول الاسكندنافية ، فإن هذه الحكومات رؤساؤها ملوك يتوارثون فيها الملك خلفاً عن سلف، ولكن الشعوب هي التي تحكم وكما تقول القاعدة القانونية الدستورية « الملك يملك ولا يحكم » .

إننا نريد من الحكومات الإسلامية أن تتمكن الشعوب من تحمل التبعة في الحكم ، ولقد جربنا حكم الحكام منفردين عن الشعوب إذ ليس عندهم في الحكم ارادة ، فأدى الأمر الى الضياع ، وإلى الفرقة والانقسام ، وإلى أن تداعى علينا الامم تداعي الأكلة على قصعتها فلم يبق لنا إلا أن نترك الأمر للشعوب

الإسلامية ، وانها لرشيده لن تضل ، وان ذلك حكم الإسلام إذ يقول الله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ويقول تعالى أيضاً مخاطباً نبيه : ﴿ وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ ولقد جاء في كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية :

« قد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة من النبي ﷺ ، وقد قيل إن الله أمر بها نبيه ليتألف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده ، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحرب والأمور الجزائية وغير ذلك ، فغيره ﷺ أولى بالمشورة ، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بذلك في قوله تعالى ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وإذا استشارهم ، فإن بين بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أو اجماع المسلمين ، فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك ، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

وان كان أمر قد تنازع فيه المسلمون ، ينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ، فأبي الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ عمل به كما قال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير ، وأحسن تأويلاً ﴾ .

والتأويل فوق أنه قد يراد به تفسير الشريعة ومعرفة الأمر فيها يطلق على معرفة المآل ، كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء

فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذين كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ ١٠٠ 》 .

والتأويل هنا المآل بلا ريب ، وإن الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وبالشورى في فهمها وبناء المصالح الدنيوية عليها من غير خلع للريقة ، ولا خروج عن الجادة المستقيمة ينتهي بالمسلمين الى أحسن مآل وإلى خير حال ، وإنه بضدها تتميز الأشياء ، لقد جعلنا القرآن مهجوراً ، وتركنا سنة النبي ﷺ وراء ظهورنا ، فالتقمطنا أفواه الشر ، وتوزعنا الظالمون في الأرض وصرنا فرصة المنتهزين ، يتسابق أعداء الله تعالى وأعداء الحق إلينا ليستذلونا ، ونحن الأعزة بكتاب الله تعالى وبديننا « والله العزة لرسوله وللمؤمنين » .

الشورى أساس الجامعة الإسلامية

١٣٠ - إن الجامعة الإسلامية يجب أن تبنى على الشورى ، لأنها الأصل في كل أمر جامع للمسلمين ، لأن الحكم الإسلامي ، لا يقوم على أساس افناء الواحد في الجماعة ، بحيث لا يكون له رأي في تكوينها ، وإنما يقوم على أن الجماعة القوية هي التي تتكون من آحاد اقوياء ، فالبناء القوي لا يبنى إلا من لبنات قوية صلبة ، تتماسك كل لبنة مع أختها ، حتى تقوم الدعائم قوية ثابتة الأركان .

وإن الشورى تربي الشعور بالوحدة ، وتحمل التبعية ، وإنه بالشورى يحس كل واحد بحق الجماعة عليه ، وحق الإسلام الذي أوجبه في غير شطط ، ولا مجاوزة للحد ، ولقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » فالشورى كتب الله فيها التوفيق . والاستبداد أياً كانت صورته كتب الله تعالى فيه اضعاف النفوس ، وفساد المآل ، ولا يمكن أن ينهض الاستبداد بأمر لا تنهض به الشورى . وإن بدا نجاح الاستبداد في أمر من الأمور ، فإنه نجاح الى زوال ان لم تؤيده الشعوب مخلصة مؤمنة حرة في التأييد وإن المستبدن المخلصين ، وقليل ما هم ينتهون الى الرجوع الى الجماعات في مآل أمرهم ، والإباؤوا بخسران مبن . ولذلك يجب لتحقيق الأمر بشأن تحقيق الجامعة الإسلامية أن يكون الحكم في كل إقليم إسلامي حراً تمام الحرية قد دخل سلطان الاجني فيه الشعب وحاكمه - يجب أن يكون الحكم

فيه قائماً على الشورى ، لا يستبد الحاكم بالمحكوم ، ولا تهمل إرادة الشعوب . لأن في ذلك إذلالها ، ولا يعترف الإسلام بذليل قط ، وإن الإستبداد صورة من صور الاسترقاق ، ولا يصح أن يسترَق المؤمنون تحت حكم الإسلام ، ولا ندري بأي سلطان يفرض الحاكم على المحكوم حكماً لا يكون مستمداً من كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله محمد ﷺ .

إن محمداً الذي كان يوحى إليه كان يستشير في كل أمر لم ينزل به وحي ، وذلك كما قال ابن تيمية وغيره ليعلم الحكام من بعده أنه لا يستقيم أمر المسلمين إلا بالشورى ، وليعلم كل إنسان أنه إن استبد برأيه يخطئ . وإن أصاب وأصلح ، فإنه قد أخطأ أيضاً ، لأنه بمقدار استبداده يكون إذلاله للشعب ، وإذا ما ذل الشعب فإنه يستسلم ، والاستسلام للحاكم سبيل للاستسلام للأجنبي وإذا كان المستبد عادلاً ، فإن الإستسلام له يؤدي الى الإستسلام للظالم ، ويكون من بعد ذلك الشر المستطير .

وإن الاستبداد يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما عماد الرأي العام الفاضل ، فالاستبداد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقضان لا يجتمعان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شريعة الإسلام ، ومهذب الجماعة الإسلامية وخاصتها ، قال تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ .

وإن الشورى ذاتها من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذا لم تكن منه ، ملازمة له . لأن المشاورة استرشاد من الحاكم للمحكوم ، وهي من ضمن النصيحة لله ، ولأولي الأمر .

وإن الذي فرق الأمة الإسلامية ذلك التفرق بعد أن جمعها النبي ﷺ هو إهمال إرادة الشعوب فقد تملكت القلوب ، واضطربت النفوس ، فانصرفوا عن أن يرشدوا الحاكم ، لأن شعار المستبد الغاشم «من قال اتق الله قطعت عنقه» .

وإن الذين جعلوا غير المسلمين يتوزعون في الأرض الإسلامية بينهم هم الحكام المستبدون ، ولو راجعت أسباب سقوط الأقاليم الإسلامية في أيدي غير المسلمين لوجدته استبداد حكاهم ، وتفرقهم مشاعر وإحساساً ، وعدم إحساسهم بالوحدة الجامعة ، وهذا الثاني ثمرة الأول ، فإذا شعر المسلم بأنه لا رأي له في أمر بلده هانت عليه إذ قد استسلم للمستبد عادلاً أو ظالماً .

وإننا ونحن نعمل على أن نجتمع اليوم يجب أن نتفادى عيوب الماضي ، وإن الجسم السليم لا يستعيد قوته إلا إذا سلم من الأمراض التي اضعفته ونقي من الادواء التي أرهقته ، وقد أرهق المسلمين الاستبداد ، فيجب أن يصلحوا بحكم القرآن .

تنفيذ الأحكام الإسلامية قوام الجامعة

١٣١ - إن الجامعة الإسلامية ليست اجتماع أبدان لقوم سمووا المسلمين ، وإنما هي اجتماع أقوام يدينون بدين واحد . فالجامع بينهم دين ، ولا يعد الدين جامعاً إلا إذا تحقق في ذات نفسه ، وقامت دعائمه ونفذت أحكامه في خاصة الآحاد ، وذلك بالعبادات التهذيبية ، الصلاة والصوم ، والعبادات الاجتماعية الزكاة والحج ، والصدقات والنذور والكفارات ، وأحكام الأسرة التي تولى بيانها القرآن الكريم ، وفصل ما يحتاج منها لتفصيل النبي الأمين فقد تولى القرآن بيان أحكام الزواج والمحللات والمحرّمات ، وحقوق الزوجين ، وأحكام الطلاق وأحواله وآثاره ، وأحكام الأولاد من رضاعة ونفقة وغيرها وبين النبي ﷺ أحكام الأقارب وحقوقهم في بيان يجمع بين التقنين والحكمة منه .

وبين القرآن الكريم أحكام الميراث ، ولم يترك فيها اجمالاً إلا قليلاً بينته السنة النبوية الشريفة ، وهكذا كانت أحكام الأسرة كلها من القرآن الكريم مع بيان السنة النبوية الطاهرة ، لأن الأسرة قوام الجماعة ، والمجتمع القوي يبنى على أسس قوية ، ولذلك كانت عناية القرآن بالأسرة ، وتولى أحكامها القرآن ، وبينها أكثر مما بين العبادات ، لأن الله تعالى العليم الخبير الذي أحاط كل شيء علماً ، علم أن أحكام الأسرة في الإسلام ستكون موضع المهاجمات من لا يرجون للإسلام وقاراً .

ويسير أولئك وراء الدين ، أمثروا حب المدنية الغربية ، وأرادوا أن

يجعلوا الاسرة الإسلامية تحكم بأحكام الكنيسة التي منعت الطلاق ، ومنعت تعدد الزوجات .

وكان غريباً أن ينادي بعض المسيحيين انه لا يمنع الأسرة الأوربية من الانحلال إلا اباحة تعدد الزوجات ، واباحة الطلاق ، بينما يصك آذانهم ذلك النداء ، ويستجاب له هنالك نجد من المتفرنجين هنا من يلحون في ضرورة تقييد تعدد الزوجات أو منعه ، وتقييد الطلاق أو منعه .

المعاملات :

١٣٢ - وفي المعاملات المدنية المالية يجب أن يكون الإسلام هو الذي يحكم بالقرآن والسنة ، فأحكام العقود ، والحقوق والالتزامات يجب أن تسن تحت ظل القرآن ، فلا تكون العقود المحرمة . في القرآن والسنة ، فلا تباح العقود الربوية في البيوع ، فربا البيوع حرام بالسنة لما ورد في كتب السنة الصحاح . والذهب بالذهب مثلاً يمثل يداً بيد ، والفضة بالفضة مثلاً يمثل يداً بيد والبر بالبر مثلاً يمثل يداً بيد ، والتمر بالتمر مثلاً ، يمثل يداً بيد ، والملح بالملح يداً بيد وفي رواية الشعير بدل الملح . الى آخر ما ورد في ذلك من أحاديث تؤكد هذا المعنى ، وبيان للفقهاء في علة التحريم المطردة التي يبني عليها القياس في غيرها .

وربا البيوع هذا ثبت تحريمه بالسنة ، أما النوع الآخر من الربا وهو ربا الجاهلية ، وهو ربا الدينون ، وهو الزيادة في الدين في نظير الزيادة في الاجل ، فإن تحريمه ثبت في القرآن الكريم ابتداءً بتحريمه في مكة ، فقد قال تعالى في سورة الروم المكية ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ ، ونزل التحريم القاطع في القرآن الكريم بعد الهجرة النبوية ، فقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ والربا هو الزيادة ، ولا شك أن

تكرار الزيادة سنة بعد سنة يضاعفها اضاعافاً مضاعفة فالمضاعفة في الزيادة لا في أصل الدين كما فهم بعض الذين يأخذون بالألفاظ الظاهرة من غير تمحيص لمعناها ، وتعرف دقق معناها ، ولا محاولة لإدراك الحكمة من تحريم الربا .

ولقد جاءت من بعد ذلك نصوص قاطعة في التحريم ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَحِقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَرِيبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ، إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تَبِمْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تَظْلَمُونَ ، وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ .

هذا نص قرآني قاطع في تحريم الربا الديون ، وهو ربا الجاهلية ، وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل ما الربا الذي لا يسع مسلماً أن يحمله : قال رضي الله تعالى عنه أن تعطى الرجل ديناً ، وتزيد في الدين نظير الأجل ، ولكن ناساً ممن استهوتهم المدنية الأوروبية بمعجرها ويجرها قد حسبوا أن نظام الفائدة يقوم عليه النظام الاقتصادي في العالم ، فكيف نحرمه ، وينسى أولئك أن الاستعمار الأوربي كان يدخل وراء الربا ، وأن الربا نظام يهودي ، وأن الاستعمار يتخذ ذريعة لمآربه لدخوله أي بلد إسلامي . فصرحت بالربا وبلاد إفريقيا كلها وبعض آسيا كان الربا فيها أحبولة الشيطان التي اصطادها ملوك المسلمين وحكامهم وقد يقول قائل المقلدن للفرنجية كيف نتخلص من الربا ، وقد سأل

سيله ، وعم ، ونقول لهم قد تنبأ النبي ﷺ بذلك ، فقد روى الإمام احمد بن حنبل عن النبي ﷺ انه قال : « يأتي الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال النبي الكريم : من لم يأكله ناله غباره » . وان ذلك من دلائل النبوة ، فإن هذا هو زماننا الذي ابتلينا به والذي تفرقنا فيه ، وأكلتنا ذئاب الأرض

وانه إذا كنا نحرم الربا في كل صوره ، فانا أيضاً نحرم القمار والميسر في كل مظاهره فقد وجدنا عقود القمار التي تسمى التأمينات التي تعقد بين الآحاد والشركات تسير مع الربا جنباً لجنب ، وهو يلزمها فم عقود التأمين على الحياة ، وعقود التأمين على البضائع من القمار ، وليس منه التأمينات الاجتماعية التي يتضافر فيها جماعة من الناس في ظل الدولة ، أو بتنظيمها في أن يكفلوا لكل من تهلك بضاعته ، أو تذهب نفسه ويترك عيالاً ضياعاً ، على أن يؤدي كل واحد جزءاً من المال بشكل رتيب شهري أو سنوي ، وأن تكون الفائدة للمجموع تصرف من هذه المصارف ، والخسارة على المجموع ، فإن ذلك تعاون ، والله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

وقد يقول قائل إن النظام الاجتماعي يقوم على الاقتراض ، والاقتراض ، ولا يتم ذلك إلا بالفائدة وإن التأمينات بكل صورها ضرورات اقتصادية ، ولا مناص منها ، فكيف تريد أن تهمل ذلك الجامعة الإسلامية إهمالاً ، إنها بذلك تهدم البناء الاجتماعي ، ولا يمكن أن تقوم مدنية بغيره إسلامية كانت أو غير إسلامية ، ونحن نقول في الجواب عن ذلك : إننا نريد مدينة فاضلة تخلو من سحت الفائدة وسحت القمار معاً ، وليس فيها خير لا يمكن أن يتحقق من دونها ، فإذا كان الشر ينتج خيراً ، فالخير لا ينتج إلا خيراً وهو خير لا يشوبه شر .

وإذا أريد نظام إسلامي ، فإننا نقيمه على أساس التعاون ، ومصارف

الإدخار التي يكون نظامها قائماً على التعاون بين المقرض والمقترض ، بين المصرف ومن يعامله ، فإن خسراً خسراً معاً وإن كسباً كسباً معاً .

ويكون منه التأمين على البضائع ويكون منه القرض الحسن الذي لا فائدة فيه ، ولا ما يشبه الفائدة .

وأما التأمين على النفس فيكون بالتأمين الجماعي الذي هو التعاون على الصورة التي ذكرناها وفي الجملة نريد أن تكون الجامعة إسلامية في نظمها ، وفي أحكامها وتآليفها .

الزواج الاجتماعي :

١٣٣ - ونقصد بالزواج الاجتماعي العقوبات التي تكون يحوار الجرائم ، ونقول في ذلك :

لقد حد الإسلام حدوداً ووضع نظاماً للعقوبات ، وتولى القرآن الكريم بيانها ، وبيان نوعها ، ومقاديرها ، وأوجب على القائمين على الأمر تنفيذها .

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى القصاص ، وذكره على أنه شريعة ثابتة في الديانات السماوية كلها ، وجعل ذلك علاجاً للنفس البشرية التي من طبعها الحسد ، ويدفعها الحسد إلى ارتكاب الجرائم ، والاعتداء ، وذكر قصة ابني آدم إذ قتل أحدهما أخاه لأنها قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، ولنترك القول لبيان الله تعالى في كتابه ، إذ يقول تعالى كلماته :

﴿ وَاْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بَاثِمًا وَإِثْمًا ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ،

فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ، ليريه كيف يواري سوء أخيه ، قال يا ويلقي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوء أخي فأصبح من النادمين ﴿١﴾ .

هذه جريمة ترتبت على الحسد ، وهي تدل على أن الحسد يدخل حتى في ميدان التقرب ، وانك لترى أن أكثر الجرائم الانسانية ترتب على حسد في النفس ، يترتب عليه حقد كمين يدفع إلى الايذاء ، ولذا قال سبحانه بعد أن قص ذلك القصص الحكيم : ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، واقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ .

ولقد قال سبحانه وتعالى ﴿ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب ﴾ . وجاء النص بالقصص في الاطراف والجروح مع القصص في النفس ، فقال تعالى : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ﴾ .

ولقد نفذ النبي ﷺ عقوبة القصص في الاطراف ، كما نفذ عقوبة القصص في النفس ، وكما قرر القرآن .

وان الإسلام يقرر انه لا يذهب دم هدرأ ، ولقد روي عن علي كرم الله وجهه في الجنة « لا يطل دم في الإسلام » .

ولذلك شرع الإسلام نظام القسامة ، وهو أنه اذا قتل قتيل ، ولم يعرف قاتله حلف من أهل الحي أو القرية التي وجد فيها القتيل خمسون من أهل العدل والثقة ، يحلف كل واحد أنه ما قتله ، ولا يعلم له قاتلاً ، فإذا حلفوا كانت الدية لأولياء المقتول ، يأخذونها من بيت المال ، على أساس أنه واجب الدولة أن تحافظ على الدماء ، وما كان القتل الذي لا يعرف فيه القاتل إلا

بتقصير من الدولة ، فحق عليها أن تضمن دية من قصرت في حماية أرواحهم ،
وهم في رعايتها ، أو من أهل الحي .

وأما أن تؤخذ من أهل الحي فلأنه يجب عليهم أن يتعاونوا في مقاومة
الجرائم ، ورعاية الأخيار ، والضرب على أيدي الأشرار ، وذلك من قبيل
التعاون على البر والتقوى ، وكل تعاون على الفضيلة ومحاربة الرذيلة تعاون على
البر والتقوى وهو مطلوب ، والسكوت عن هذا التعاون يكون إهمالاً لأمر
واجب الأداء على أن كل مجرم أو قاتل يكون معروفاً في قريته أو الحي
الذي يسكنه في مدينة ، فلا يمكن عادة أن يجهله خسون من العدول ، ويكون
الجانبي قد عرف من غير تجسس ولا تتبع للمورات ، ولا فتح باب للنميمة
والسعاية والفساد .

الحدود :

١٣٤ - هذا بالنسبة للقصاص ، وهو العقوبات التي يكون الاعتداء فيها
على حقوق العباد ، أو التي يكون فيها الاعتداء على حق للعباد غالب .

وأما العقوبات التي تكون حقاً لله تعالى فهي التي تسمى في الاصطلاح الفقهي
بالحدود ، والفرق بينها وبين القصاص أن القصاص قابل للعفو ، بل حجب إليه
القرآن الكريم في قوله تعالى في ختام آية القصاص : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة
له ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه
باحسان ﴾ أما الحدود فانه لا يجري فيها العفو لأن ولي الأمر هو الذي
يتولاهما ، وهي حق لله سبحانه وتعالى ، ولأن إقامتها عبادة والعفو فيها يكون
تخلياً عن العبادة ، وإقامتها قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
فجرائم الحدود منكرات ، وإنكار العقوبة عليها إثم ، وقد وضع الله تعالى
هذه العقوبات ، فلا يجوز لوالٍ أو إمام أن يتخلى عن القيام بها ، وهذه الحدود
محاربة للرذائل ، ومحاربة الرذائل واجبة على أولي الأمر في المسلمين ، ولقد

قال النبي ﷺ : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » ولا شك أن ولي الأمر هو أقدر الناس على التغيير بيده .

والتغيير باليد له صورتان : الصورة الأولى المنع من الفعل عند أهم به ، وأخذ السبيل إليه وذلك عمل وإلى الحسبة ، فهو لمنع وقوع الجرائم قبل وقوعها ، فإذا وقعت أخذ بصاحبها إلى القضاء لينفذ حكم الله تعالى فيه .

والصورة الثانية أن يحكم عليه بالحد الذي وضعه القرآن الكريم ، وبينته السنة النبوية ، وهو العقوبة التي قررها القرآن لتكون حداً بين الفضيلة والرذيلة ، وبين الصلاح والفساد ، وقد طالب النبي ﷺ بأقامة الحد إذا ظهرت الجريمة من غير تجسس ، ولا فتح باب للسعاية والنميمة ولذلك يقول ﷺ :

« يا معشر الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورة فاستتر فهو في ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » .

وإن الحدود هي حمى الله تعالى ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

إننا لن نكون أمة إسلامية إلا إذا أقمنا حدود الله ، ويجب أن تكون سياسة الجامعة الإسلامية في محاربة الفساد ، قائمة على تنفيذ هذه الحدود التي لا مناص من تنفيذها ، ولا سبيل لتركها ورامنا ظهرياً ، كما هو الحال الآن ، إلا أن بعض الأقاليم الإسلامية تقول إنها تقيم الحدود ، وتنفذ الأحكام الشرعية جملة وتفصيلاً ، وإن صح أن هذا الاقليم أو غيره يقيم الحدود وينفذ الشرع فيما يتعلق بها ، فانا نرجو أن يكون ذلك حكماً عاماً ، لا هوادة فيه ، لأننا إذا لم نقم الحدود لم يكن مجتمعنا إسلامياً ، ولا تتكون قط جامعة إسلامية ، لأن الجامعة كيان معنوي ، وليست تجمعاً مادياً ، والاجتماع المعنوي

يجب أن تقوم فيه الرابطة المعنوية ، وهي الدين ، وأحكامه المستمدة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ والحدود كالقصاص ثابتة بالنصوص ، ولا مصدر لها إلا الكتاب ، تعرض القرآن لها جميعاً ، وعين العقوبات في أكثرها ، وحددت السنة الباقي ، وكان أصل تحريم الجرائم في القرآن ، فالسنة النبوية بينت أثر الجريمة ، وما يرتبه الشارع عليها في الدنيا .

١٣٥ - والحدود التي نص القرآن على عقوبتها حد الحراية أو قطع الطريق ، وحد السرقة ، وحد الزنى ، وحد القذف ، واللعان إن عُدَّ حداً ، والبغي .

والحدود التي بينتها السنة حد شرب الخمر ، وحد الردة .

وحده الحراية ثبت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ ﴾

وهذا الحد للذين ينتقضون على النظام العام في الداخل ، ويخرجون بقوة ليغتصبوا الناس أموالهم ، ويقتلوا حيث يكونون في مأمن من أن يفيث فريستهم مغيث ، ويسمون قطاع الطريق وتكون لهم قوة في افسادهم وأكثر الفقهاء يحصرون المجرمين الذين يعاملون هذه المعاملة فيمن يخرجون لأخذ المال سرقة أو اغتصاباً ، أو يقتلون الأنفس في جمع قوي ، يغالبون به قوى الدولة ويعمم الامام مالك جرائم هؤلاء المجرمين فيشمل اسم الحراية ، من يجتمعون في قوة لهتك الأعراض أو الاتجار فيها وفي المخدرات وانهم يشبهون في الجملة العصابات الامريكية التي تضيق الدولة الامريكية بقضها وقضيضها بهم ، وقد عاجلهم الإسلام بتلك العقوبات القاسية التي تجعلهم عبرة للمعتبرين .

نعم انها عقوبات قاسية ، ولكنها زاجرة رادعة ، وهي تتكافأ مع جرائمهم لأنهم يقضون أمن الدولة ، وفريستهم الوادعون الذين لا حول لهم ولا قوة

ومع وجودهم لا أمن ولا سلام ، ولا تستطيع الدولة تمكين الناس من أن يعيشوا في سلام في حلهم وترحالهم ، والحد الثاني وهو السرقة ثبت بقوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

وإن العقوبة بلا شك قاسية ، ولكن يلاحظ أنها فيمن يعادون السرقات بدليل سقوط العقاب بالتوبة على ما فهم من اقتران التوبة بالعقاب أحمد بن حنبل وبعض الشافعية وروي منسوبا للشافعي ، وهو ما نميل إليه ، ويلاحظ أن النبي ﷺ قال : ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، وإننا لو احصينا ما اتفق على قطعه الأئمة من الفقهاء ، لوجدنا أنه لا يبلغ نصف العشر من السارقين ، ولكن قطع يد واحدة في إقليم يكفي لردع السارقين ، وتقليل هذه الجريمة إلى حد ألا تكاد تكون ، واعتبر ذلك بحال الحجاز الذي يطبق فيها هذا الحد .

والحد الثالث حد الزنى ، وقد ثبت بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ .

وإن العقوبة التي قررها الله سبحانه وتعالى في ذلك الحد ، إنما هي ليكون المجتمع فاضلا ، وليعيش في ظل الفضيلة وليحفظ النسل ، ولكيلا تفسد الأنساب ، ولكيلا تعم الرذائل .

والكلام في ذلك مفصل في الكتب التي بينت هذا ^(١) .

(١) باب الحدود في كتاب الجريمة والعقوبة لمحمد أبي زهرة .

والحد الرابع حد القذف ، وقد ثبت بقوله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فإن الله غفور رحيم ﴾ وإن هذا جاء عقب بيان حد الزنى ، وذلك ليحمي المجتمع من الترامي بالفحشاء ، ورمي المحصنات الغافلات بالفاحشة ، وإذا شاع ذلك فسد المجتمع ، وهانت الرذيلة على النفوس ، فأقدم عليها من كان يتصون عنها ، ولقد جاء في القرآن في سياق بيان الافك الذي افك به على أم المؤمنين عائشة ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ويقول سبحانه وتعالى في هذا السياق أيضاً : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة (١) ﴾ .

وإن الذين يروجون الفسق في أزمان الانحراف يتغذون من القذف ذريعة لمآرهم ، وإنه حينئذ ينتشر الزنا في أمة ، أو استهان الناس بأمره لازمه الترامي به ، وفسد الجو ، وكان الرأي العام فاسداً مردولاً ولم يكن فاضلاً مقبولاً ، وإن الرأي العام الفاضل يهذب النفوس ، والرأي العام الفاسد يحبي الرذائل ، ويحرض عليها ، ويستغل الناس فيه داعي الخير ، ثم يستحق اللعنة التي ذكرها الله تعالى لبني إسرائيل ، إذ قال تعالت كلماته : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

والحد الخامس عند من اعتبره حداً للعان ، وقد جاء كشعبة من القذف ، فحد القذف يكون إذا رمى بالزنى امرأة ليست زوجته ، أما اللعان فيكون إذا رمى زوجته ، ويقول فيه سبحانه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ، إنه لمن

(١) الكتاب المذكور .

الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿١﴾ .

هذا هو اللعان ، وإذا تحالفا ، فرق بينهما تفريقاً أبدياً إلا أن يكذب نفسه ، وبعض الفقهاء قال : لا يعودان ، ولو كذب نفسه لأن الثقة بين الزوجين قد فقدت ، والعلاقة الزوجية قائمة على الثقة والمودة ولا يمكن أن تتحقق المودة إلا مع الثقة ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سمته ، (١) .

حد البغي :

وهذه حدود خمس قد ثبتت بالقرآن ، وقريب منها في الثبوت حد البغي ، وهو يهنا في بحثنا بالنسبة للجامعة العربية ، وقد ثبتت جريمة البغي في قوله تعالى : ﴿٢﴾ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحون ﴿٣﴾ .

ويجب أن نقف عند هذه الآية وقفة قصيرة وننبه في هذه الوقفة إلى أمرين :

أحدهما - أن الفقهاء يفرقون بين البغاة ، وقطاع الطريق أو أهل الحرابة أن أهل الحرابة يريدون الفساد لذات الفساد ، من غير أن يعتمدوا في خروجهم على تأويل ديني ، وهم لا يريدون السلطان ، إنما يريدون السلب والنهب والقتل فهم مجرمون ، قد وجد فيهم الاتفاق الجنائي .

أما البغاة فإنهم يخرجون بتأويل ، ولا يريدون القتل والسلب ، وانتهاك الحرمات ، إنما يريدون أن يجعلوا لأنفسهم سلطاناً ، وقد يخرجون باجتهاد ،

(١) الكتاب المذكور .

وقد يخرجون طالبين للسلطان، وقد نص القرآن على ذلك وهو أنه على جماعة المسلمين فرض كفاية أن يصلحوا بينهم ، فان عجز أهل الرأي من الجماعة عن الإصلاح فانه يكون على الجماعة ممثلة في قوتها أن تقاتل البغاة لأن خروجهم يكون فتنة ، والفتنة تقمع بالسيف .

الأمر الثاني - أن هذا النص الكريم يرشدنا إلى ما يجب أن تتبعه الجامعة الإسلامية بالنسبة للذين يبغون على طائفة من المؤمنين بغير الحق ، فإن هذا البغي يكون موجهاً إلى إحدى الطائفتين ابتداءً، وهو في نهايته يكون موجهاً إلى الجامعة الإسلامية كلها .

ولذلك يكون عليها أن تبتدىء بالإصلاح بين الطائفتين ، فإن استمر البغي ، أو تبين بغي إحداهما ، فإن على الجامعة أن تقاتل الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت ، فإن على الجماعة من بعد ذلك أن تعمل على جمع القلوب التي تنافرت ، والنفوس التي تدابرت ، وذلك بالتأليف والتقريب ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسَمُوا إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وإن النتيجة المؤكدة لذلك أن يكون للجامعة الإسلامية قوة رادعة ، ترد بغي الباغي وتتنصف المظلوم وتمنع التقاتل بين المسلمين بعضهم مع بعض ، لكي يتحقق نص الآية ويتحقق قوله ﷺ : « المسلمون تنكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » وقوله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يحرقه ، ولا يظلمه ، ولا يسلمه ولا يخذله ، ومن كان في عون أخيه كان الله تعالى في عونه .

١٣٦ - وهناك حدان آخران ثبت مقدارهما بالسنة ، ولكن أصل التحريم الذي هو أساس التجريم قد ثبت بالقرآن وهما حد الشرب وحد الردة فشرب الخمر ثبت تحريره القاطع الذي لا مجال للريب فيه بالقرآن إذ يقول سبحانه تعالت كلماته : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ » ، إنما يريد الشيطان

أن يوقع بينكم المداوة والبغضاء في الحمر والميسر ، وبصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، واحذروا ، فإن توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿١٠٠﴾ ، فهذا النص قاطع في التحريم ، وقد تولى النبي ﷺ بيان مقدار الحد ونوعه ، فقد روي أنه ضرب شارباً أربعين نعلاً ، فقدره بعض الفقهاء بثمانين ضربة ، لأن النمل جزءان ، وقدرة بعض الفقهاء بأربعين على حسب ظاهر اللفظ ، ورأى علي بن أبي طالب أن يكون ثمانين جلدة أخذاً ذلك من النص ومن اجتهاد فقهي ، فقال إنه إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى ، وحد الافتراء (أي حد القذف) ثمانون - فحد الشرب بهذا القياس العلوي ثمانون .

ولقد روي أن النبي ﷺ قال في شأن شارب الحمر « إذا شرب فاضربوه ، فإذا عاد فاجلدوه فإذا عاد فاقتلوه » .

وقد روي أن بعض المسلمين قال للنبي ﷺ : « إننا نعيش بأرض برد ، ونستدفيء بالحمر أفنشرب قال : لا ، قالوا إنهم لا يطيعون فقال عليه السلام فقاتلهم » .

وفي الحديث الأول نراه ﷺ تدرج في العقاب ، فجعل عقاب أول مرة بالضرب فإذا عاد كان الجلد ، فإذا عاد الثالثة كان القتل ، لأن ذلك جحود بالتحريم فاشبه الردة .

وفي الحديث الثاني كان قتالهم لأنهم يمحذون ، ومحذون أمر الله وطاعة الرسول .

١٣٧ - الردة هي الخروج عن الإسلام ، والإسلام لا يكره الناس على الدخول فيه فالقرآن الكريم ينفي الإكراه في الدين ، وينهى عنه ، فقد قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ويقول تعالى مخاطباً نبيه : ﴿ إنك

لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴿١﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿٢﴾ أفأنت تكره الناس ، حتى يكونوا مؤمنين ﴿٣﴾ .

ولكن من دخل في الإسلام لا يخرج ، لأنه لا يمكن أن يكون قد دخل بنيته مخلصاً ثم يخرج ، إنما الذي يدخل ثم يخرج ، هو من يظهر الإسلام ثم يخرج منه توهيناً لشأنه ، ولإيهام الناس بأنه لا يتبعه لأن الحق في غيره ، وقد حدث في صدر الإسلام يوم أن صارت كلمة الله تعالى هي العليا ، وصار هذا الدين الكريم دين أهل القوة والغلبة أن دخل الناس فيه أفواجا ، ومنهم من دخل ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، ومن دخل اتباعاً للقوة رغبا ورهبا ، ومنهم من دخل في الإسلام ليفسده على أهله ، فكانت حماية العقيدة ، وحماية الإخلاص في طلبه توجب أن يدخل حراً ، وتوجب أن توصل الأبواب على من اختار الضلال على الهدى ، والنفاق على الإيمان ، فكانت العقوبة الشديدة الرادعة التي تحمل من يريد الدخول في الإسلام على أن يدخل مؤمناً ، وكان عليه أن يقدر الخروج قبل الدخول .

لذلك كان العقاب الشديد الرادع الزاجر ، وهو القتل للرجل ، والحبس حتى تتوب للمرأة .

وكانت شرعية هذا العقاب بقول النبي ﷺ ، فقد قال عليه السلام : « من بدل دينه فاقتلوه » . وقوله ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث : النفس بنفسه ، وزنية ثيب ، وردة بعد إيمان » . وقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، بل اشتركوا معه وعاونوه ، وردوا الردة في كل أنواعها .

قد يقول قائل : إن ذلك لغرض الطاعة ، وانهم قد خرجوا على الدولة ، فحق عليه أن يحملهم على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة ، ولذلك قال لهم : « إما سلم مخزية ، وإما حرب مجلية » .

وذلك حق لا ريب فيه ، وكما أنه يدل على ذلك يدل أيضاً على أن القانون النظامي للدولة الإسلامية الذي يعد أساساً لقيامها هو الإسلام ، وهو الرابطة الوثيقة التي تربط أجزائها آحاداً وأقاليم ، وكل دولة تعد الخارج على قانونها المنظم لها خائناً أو خارجاً ، فيحل قتله .

والإسلام في قتله المرتد لا يخرج عن ذلك .

وأولئك الذين يقولون إن قتل المرتد ضد حرية الدين نقول لهم غير مترددين إن قتل المرتد بعد استنابته هو من قبيل حرية الدين ، وإن تكون حرية سليمة قائمة على إدراك الحقائق ، إنها لمنع التلاعب بالأديان واتخاذها هزوا ولعباً ، مما يؤدي إلى اضطراب في تطبيق القوانين ، واضطراب في الأسرة .

واعتبر ذلك بحال البلاد التي أهملت عقوبة الردة ، فقد صارت الأمور فيها إلى فوضى ، يريد رجل أن يترك امرأته ، فيدخل في الإسلام لأنه يبيح الطلاق ، ثم يطلقها وهو ما دخل في الإسلام حقيقة وإنما أعلن ذلك ليقضي لبانته ، وقد ضج المتدينون من ذلك .

ولو كانت العقوبة الإسلامية تطبق ما ظهر ذلك الفساد ، ولا اضطربت الأحوال ذلك الاضطراب ، وما اتخذت الأديان هزواً ولعباً ، وقد اقترحنا علاجاً لهذا الفساد أن نوضع عقوبة أيأ كانت ، وإن كنا نرى أن عقوبة الإسلام هي الأرذع والأمثل .

احكام القرآن والسنة تعم البلاد الاسلامية :

١٣٨ - إن الاحكام الثابتة بالقرآن والسنة ، سواء أكانت لتنظيم العلاقات بين الناس ، أم كانت للزواجر الاجتماعية واجبة فكل حكم ثابت بالقرآن أو السنة يجب أن يكون في ضمن النظام العام الذي لا يختلف فيه إقليم عن إقليم ، فلا يصح أن يحرم إقليم الربا ، ويبينه إقليم آخر ، فانه حينئذ لا تكون جامعة

اسلامية ، لأن أساس الجامعة الإسلامية هو تنفيذ أحكام الإسلام مجتمعين لا متفرقين ، وإلا كانت الفرقة أشد وأقوى ، لأن مؤداه أن بعض الشعوب الإسلامية تكون مستبيحة ما حرم الله ، والأخرى طائفة ، ولا اجتماع بين عاص للإسلام وطائع له ، وإن الذين غلبوا على ديارنا من الفرنجة وغيرهم هم الذين سهلوا لابنائنا الخروج على المبادئ الإسلامية ليلتهمونا ، وليفرقوا ديننا ، ويفسدوا أمرنا ، وما جمعه الله تعالى لا يقبل التفريق وما فرقه اعداء الدين لا يقبل التصديق .

هذا بالنسبة للأحكام التي ثبتت بالكتاب والسنة ، فإنه لامراء في عموم تطبيقها إنما الذي قد يكون الحكم فيه في اقليم غيره في اقليم ، فهو فيما وراء الكتاب والسنة من اجتهاد في أبواب التعزير ، وما تقوم عليه المصالح في المعاملات فإن كل اقليم أدري بمصالحه ، بشرط ألا يخرج عن نص شرعي ، أو يخالف ما علم من الدين بالضرورة وما انعقد عليه اجماع المسلمين مما حرره الدين أو أباحه ونص على أنه حلال ، فما جاء النص بأنه حلال لا مجال لتعريمه ، حتى لا يقع في النهي في قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ .

١٣٢ - ومن الناس من يثيرون اعتراضاً تحت تأثير الأفكار الأوروبية التي تهاجم الإسلام ، فيقولون إن الضمير العالمي ، لا يقبل تشويه الاجسام بقطع الايدي والأرجل من خلاف ، أو بصلب الجناة ، فإن ذلك تعذيب للبشر ، وهكذا يرحمون الجناة ، ولا يرحمون فريستهم ، ولقد رد عليهم النبي ﷺ بقوله : « من لا يرحم لا يرحم » ورد الله تعالى عليم في جلد الزناة ، بقوله تعالى : ﴿ ولا تأخذكم بها رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ .

ونقول ما هذا الضمير العالمي أهو الضمير الذي أباح سفك دماء الأبرياء ، أم هو الضمير الذي سوغ اخراج المؤمنين من ديارهم وأموالهم يأكلهم العري

والجوع ، وأن لا مأوى لهم . إنه لا يوجد ضمير عالمي يستنكر المنكر ، ويقر العدل وينع الظلم ، إنما هو قانون الغابة الذي لا يرمى إلا ولا ذمة ، ولا خلقاً ولا فضيلة .

وإن قطع الإيدي لا يوجد تشويهاً بل يمنع الجريمة ، وكم من أيدي نساء قطعها السراق ليأخذوا حليها ، وكم جريمة قتل وقعت في السرقات باكرهه ، وكم أجسام شوهت في سبيل إكمال جريمة ، إن كل ذلك يقع بسبب جريمة السرقة ، فهل تشويه الأجسام يباح للمجرمين ، ويحرم على العادلين الذين يريدون أن ينعوا الفساد ؟

وأولئك الذين يستكثرون عقوبة الحراة للعصابات نسألهم كم انتهكت العصابات الحرمات في المدن الأمريكية الكبرى ، حتى أن قاتل الأمريكان يقول إن بعض العصابات لها ميزان من المال يبلغ في مقداره موازنة الولاية التي تعيش فيها تلك العصابة .

إننا في هذا المقام ننصح أمريكا أن تأخذ بحكم القرآن ، فإن تنفيذه في واحدة منها يقضي على جميعها ، ولكنهم تعودوا أن يدافعوا عن الجريمة ، ولا يرتضوا الفضيلة ، ولو كانت علاجاً لداء عندهم ، كشأن كل من استمرأ الشر واستطابه ، فإنه لا يذوق الخير ولا يستطيه .

إننا ضعفنا واستخذينا عندما كنا نسترضي أعداءنا على حساب الدين والقرآن ، فصرنا نهياً مقسوماً ، يتقاسمنا الأعداء ، وتنوشنا ذئابهم .

ألا فلنرجع لديننا ، ولا يصح أن تكون جامعة الإسلام مستمدة للأحكام من غير الإسلام ، ولا نستمد الأحكام من الإسلام ، إذا جعلنا القرآن مهجوراً ، وإذا كان قائلهم يقول « إذا كان القرآن في الأرض فلا سلام ، » فنحن نقول مقالة القرآن ما دام القرآن قائماً يطاع في حكمه ، فالسلام يقوم ، ولا استسلام في الأرض إنما نصر الضعفاء ، ودفع الظلم ، وسيادة الفضيلة ، ونقول للذين يريدون إرضاء أعداء الإسلام باسم الضمير العالمي ، وخشية ملام

الناس نقول لهم : أنخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ، توبوا إلى الله ، وسامحوا في بناء الوحدة الإسلامية ، ولا تكونوا معاول هدم في بنائها ، وتعاونون أعداء الله وأعداء الحق في تقويضها ، كما كانوا ، وكما هم كائنون .

١٣٩ - وقد يقول قائل : إننا إذا جمعنا الأقاليم الإسلامية في ظل القرآن والسنة ، فبأي المذاهب تكون الجامعة ، وما القانون المسطور الذي تنفذ أحكامه ؟ إن الناس الآن لا يخضعون إلا لقانون مسطور ، فليس لدى كل إنسان من عامة الناس القدرة على فهم نصوص القرآن ، وجمع الروايات عن رسول الله ﷺ ، فإن ذلك اجتهاد ، ولا بد أن يكون الاجتهاد لأهله من أهل العلم بالقرآن واللغة والسنة ، ومن لهم قدرة على الفهم ، والاستنباط ، وليس ذلك متوافراً إلا للخاصة من أهل الذكر ، ولقد كان منذ عصر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيهم المجتهد الذي يفتي كعلي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وفيهم المستفتي الذي ليس عنده دراية هؤلاء .

فما السبيل إلى قانون مسطور ، وما المذهب الذي يختار ؟

ونقول في الجواب عن ذلك انه قد قدمت بحوث كانت فيها دعوة لأن تكون الشريعة الإسلامية أساساً للقوانين في البلاد الإسلامية ، فما نقوله الآن ليس بدعاً من الفكر ، ولا بديناً من القول نقوله ، ولكننا فيه متبعون ، ونحن ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وقد دعا إلى هذا الأمر مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية في انعقاد من انعقاده .

وقد حرك ذلك مجمع البحوث ، لاتخاذ الأهبة ، فألف لجنة لتقنين الشريعة ووضعها في قانون مسطور .

وقد سنت لنفسها منهاجاً مستقيماً قوياً .

(أ) جعلت لكل مذهب لجنة فرعية ، مؤلفة من رجال الفقه والقانون فرجال الفقه يجمعون الأحكام في المذاهب ، ورجال القانون يضعون الأحكام في الصيغة القانونية ، وذلك لدربتهم على هذا .

فاخترنا لجنة فرعية لمذهب أبي حنيفة وثانية لمذهب مالك ، وثالثة لمذهب الشافعي ، ورابعة لمذهب أحمد بن حنبل ، وخامسة للشيعة الامامية والزيدية والظاهرية والاباضية .

وإن هذه اللجان تسير في طريقها قدما ، في عزيمة ناهضة ، وقلوب مؤمنة مخلصه وإن هذه اللجان الفرعية سارت في عملها ، تكلؤها عناية الله . هذا ويلاحظ أن الأحكام التي دلت عليها النصوص القرآنية لا اختلاف فيها ، وإذا كان اختلاف ففي دلالة بعض الألفاظ التي تحتل عدة معانٍ ، والقرآن حال وجوه كلها حق ، وكلها خير ، ولا حيرة فيها ، ولا ما يشبه الحيرة . وأحكام الأحاديث فيما يتعلق بالعبادات الاختلاف فيها جزئي وقليل جداً ، وهو في بعض التفريعات ، ولا يكون في أمر جوهري قط ، إنما هو في بعض السنن في الأركان ، وبعض النوافل .

وإن السير في طريق الجمع ليس بمسير ، بل هو تأليف بين مؤتلف ، وليس جمعا لأمر مختلف ، والله يوفق العاملين للوحدة الاسلامية المقدسة .

الثقافة في الجامعة الإسلامية

١٤٠ - إنه لا تتحقق الوحدة الإسلامية الجامعة إلا بتوجيه النفس الإسلامية إلى اتجاه واحد ، وقد بينا ذلك في وحدة العقيدة ، ووحدة الحكم الإسلامي المأخوذ من القرآن والسنة ، بأن يكون الجميع خاضعين لحكمها كما قال عليه الصلاة والسلام : « تركت لكم ما إن أخذتم به لا تضلون من بعده أبداً » ، كتاب الله وسنني ، ؛ فذلك هو لب الاجتماع ، وبغيره لا تكون جامعة إسلامية ، وسببها ما شئت من غير أن تكون جامعة إسلامية ، بل سببها ، جامعة شرقية ، أو جامعة عربية ، لا تفلح جامعة من غير أن يكون الإسلام هو العروة التي تربطها ، والجانب الذي يركن إليه ، فالأحكام المقررة في الإسلام هي عماد الجمع ، ودعامته .

إن الوحدة الثقافية تتضمن وحدة التفكير بين الأقاليم الإسلامية .

وفي الحق أن أصل هذه الوحدة ثابت في الجملة ، ولكنه موثق بأفكار غريبة عند بعض المثقفين في الأقاليم الإسلامية على مقدار تأثيرهم بأفكار الغرب ، إذ يخلطونها بالعقائد ، وأنه يجب أن نقرر هنا أنه لا يوجد وحدة بين آحاد أهل دين ، أو أهل مذهب اقتصادي أو اجتماعي كما يوجد بين عامة المسلمين ، وإخوانهم المؤمنين بشريعة القرآن . ولقد قدر لي وأنا في الندوة الإسلامية التي انعقدت في لاهور في آخر ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، وأول يناير سنة ١٩٥٨ أن ألتقي بالوفود التي تزحت من البلاد الإسلامية على اختلاف الطوائف فيها ، فما

وجدت ثغرة فكرية تحول بيني وبينهم ، لا فرق في ذلك بين جماعي وشيعي ، ولا بين صيني وروسي وتركى .

وإذا كانت هناك فواصل بين أحد من الحاضرين ، فإنها كانت بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمون بأسماء إسلامية ، كرجل كان يهدم أحكام آية المواريث ، ويدعي أنها وقتية ، وأمثاله ممن نبذ المؤتمرون كلامهم ، كما كان ينبذ الشواذ في صحراء الجاهلية . وإن السبب في ذلك الاتحاد الفكري أو تقاربه هو وحدة المصدر وهي نصوص القرآن ، وأقوال النبي ﷺ ، وإن كان ثمة اختلاف في طريق روايتها لا في أصلها .

ونقول انهم يتفقدون فكراً في هذا الأصل ولكن الاكثرين مع الأسف عند العمل يتجانفون الاثم فلا يعملون بأحكام القرآن والسنة مع الايمان بأنها الأصل ، ونريد أن يقرن الفكر بالعمل ، فلا تكون الثقافة واحدة ، والعمل غير واحد .

إن وجود أصل الوحدة في الثقافة الإسلامية أمر ثابت لا مجال للريب فيه فنواة الوحدة الثقافية الإسلامية والنفسية ثابت في كل البلاد الإسلامية مهما تختلف فيها الطوائف والمذاهب ، انما الأمر الذي نريده هو العمل على انماء هذه الوحدة ، وایجاد مجتمع فكري موحد بيني دعائم الإسلام ويقف حاجزاً دون النزعات المنحرفة التي يحاول الاجنبي وصنائه أن تتغلغل في نفوس المسلمين ، وبث الريب في الحقائق الإسلامية ويحارب الذين اصطفاهم اعداء الإسلام ، ليحلوا عراه .

وإننا في هذا السبيل نتجه إلى أمور :

(١) جمع التراث الاسلامي :

١٤١ - يجب جمع تراث الماضي في كل البلاد الإسلامية ، لا فرق في ذلك بين ما تركه فقهاء الامصار ، وما تركه علماء الشيعة الامامية والزيدية ، بل

الاسماعيلية من مذاهب وآراء من فروع ، وأصول العقيدة مما لا يؤثر في أصل التوحيد الذي هو ركن العقيدة الإسلامية مع شهادة أن محمداً رسول الله .

إن ذلك هو تراثنا جميعاً لا تراث طائفة واحدة منا، وإذا كان الأوروبيون الذين لا يؤمنون بالإسلام يتجهون إلى تلك المذاهب يدرسونها ، فنحن أهلها أولى بها ويعلمها .

وقد يقول قائل : « إن في بعض هذه المنقولات ، ما يتجافى عن بعض المقررات الإسلامية الثابتة .

ونقول في الجواب عن ذلك ان اعلانها قد يكون سبيلاً للقضاء عليها، لأن النور يبيت ما لا ينمو إلا في الظلام ، وانها تحمل في نفسها أحياناً كثيرة دليل بطلانها ، وبذلك يتمتع الناس من اعتناقها والأخذ بها وان على المؤمنين مجتمعين أن يهدوا الضال ، لا أن يتركوه في غيب من الخطأ لا يجد فيه رشاداً .

وان أكثر هؤلاء لم يصطنعهم اجنبي، وأصل الاخلاص ثابت فيهم، وكثيرون منهم طلاب حق فعلمنا أن نبين الطريق إلى النور، وخطوهم لا يمنع أن يكونوا معنا ، ولقد قال الإمام علي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه في الجنة : « ليس من طلب الحق فأخطأه - كمن طلب الباطل فأصابه » .

ومهما يكن في بعض الآراء من مخالفة للمنقول والمعقول فهو من التركة التي نقوم عليها ، ولا نهمل التركة ، لأن فيها بعض الزيوف ، بل يجب أن نفحصها فحص الصيرفي ليستبعد زيفها ، ويحفظ جيدها .

واننا بهذه الدراسة للتركة الإسلامية الثرية من غير محاولة لتفضيل طائفة على أخرى نحقق مقاصد ثلاثة :

(١) وصل ماضي الأمة بمحاضرها ، فإن كل حضارة لها إطار من الافكار والموروثات تصل ما بين الحاضر والغابر ، وإن تقدم هذه الأمة يجب أن يكون متصلاً بتاريخها ، كما قال الإمام جمال الدين الافغاني حكيم الإسلام ، وأول

داع إلى الوحدة الإسلامية في عصرنا ، وباعت الوعي الفكري في كل بلاد الإسلام .

(ب) وألا يكون العالم الإسلامي منحازاً في جانب من جوانبه ، بحيث لا يتجه إلى الجانب الآخر ، ولا يتعرف ما فيه ، فتلك عصبية مذهبية أو طائفية تلتقي مع العصبية الجاهلية في نتائجها وثمراتها وان خالفتها في منبعا وأسبابها ، فتلك نـُصرة جنسية نسبية، وهذا انحراف فكري وتعصب مذهبي.

(ج) أن تتقارب الطوائف الإسلامية ، فان دراسة التراث الإسلامي كله من غير تجزئة ، بحيث تدرس كل طائفة ما عند الاخرى - يقرب ما بين الطوائف ، ويزيل تلك النعرة غير الطبيعية التي خلفتها الاختلافات القديمة في الماضي .

وإن هذا يتحقق لنا به هدف مقصود، وهو التقريب ما بين الطوائف، بحيث يكون خلافا مذهبياً كالخلاف بين الحنفية والمالكية والحنابلة، ونحن في مصر ندرس بعض آراء الإمامية على أساس أنه مذهب يؤخذ منه ، وكذلك ندرس الزيدية بل ندرس بعض آراء الإباضية .

ان التقريب بين الطوائف الاسلامية يجب أن يكون غاية مقصودة في الجامعة الاسلامية، إن أسباب الخلاف قد زالت ، ومن الخطأ أن يبقى الخلاف الطائفي مع زوال أسبابه ، وكيف يكون بيننا تنافر فكري بسبب أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر ، أو أنها أفضل منه « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ومعاذ الله تعالى أن يكون من أولئك الابرار من ارتكب خطيئة أو إثمًا نحو الاسلام ، ولقد سئل الامام الشافعي عن أهل صفين ، فقال رضي الله عنه واقمة قد كفاني الله شهودها ، فلماذا لا أبرئ لساني من الخوض فيها .

اننا نقول مع الاسف الشديد ان الخلاف الطائفي يشبه أن يكون نزعة عنصرية ، وان الذين يريدون الكيد للمسلمين يتخذون من ذلك منفذاً ينفذون

منه الى صفوفهم ، ليقطعوا الوحدة الاسلامية ، فيجب أن نسد الطريق أمامهم .

وقد جرب المسلمون ذلك في الماضي الذي ذكرناه ، فيجب أن نعتبر به فالماضي نور يضيء الحاضر .

ان الخلاف بين الطوائف ليس في أمر ما يتصل بعقيدة التوحيد وبشهادة أن لا اله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا بالأصول التي تعتبر لب الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وغيرها مما جاء به نص القرآن الكريم ، وجل الخلاف الطائفي ليس في مسائل تتعلق باللب ، وان ادعت بعض الطوائف أنها من اللب .

لهذه الأمور نرى أن الطوائف الاسلامية يجب أن تتفق وتتلاقى على محبة من الله ورضوان ، تحت ظل كتاب الله تعالى ، والسنة الصحيحة ، والمقررات الاسلامية التي علمت من الدين بالضرورة . انه لا مانع من أن تختلف ، ولكن اختلاف آحاد في مسائل علمية ، ولا يكون اختلافنا اختلاف جماعات وطوائف تفرق شمل الأمة ، وتجعلها قطعاً متنازعة متنافرة .

تحويل الطائفية الى مذهبية :

١٤٢ - لسنا نقصد محق الطائفية ، وإدماج المذاهب الاسلامية في مذهب واحد ، فان ذلك لا يجوز ولو جاء لا يكون عملاً ذا فائدة لأن إدماج المذاهب في مذهب واحد ليس عملاً علمياً عند العلماء فان كل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه ، تتجه في مجموعها إلى النصوص الاسلامية والبناء عليها ، وهو ثمرات جهود لأكابر العلماء في كل مذهب وكل إدماج فيه

افناء ، وليس من المصلحة العلمية في شيء افناء تلك الجهود الفكرية التي قامت في ظل القرآن والسنة الثابتة . يجب أن تكون كل الجهود قائمة على أصولها ، يرجع اليها ويختار أصلها للعمل ، وأكثرها ملاءمة مع مصالح الانسان في كل الأزمان ، وأقواها اتصالا بالقرآن مع بقاء المصدر في موضعه يرجع اليه .

وفوق ذلك فان المذاهب الاسلامية تراث علمي هو لجميع المسلمين ، لا لطائفة من الطوائف ، ومن المصلحة العلمية ، الاستحفاظ عليه ليبقى تراثاً خالداً .

وان الأمم الأوروبية على اختلاف قوانينها تدرس القانون الروماني ، والشرائع القديمة ، لأنها ثقافة لا بد منها ، فكيف نفكر في إهمال جزء من ثقافتنا العالية التي كانت في القرون الماضية في ظل الاسلام ، وحلت معها صور الفكر في تلك القرون .

وفوق ذلك فان إدماج المذاهب بعضها في بعض فوق أنه لا يصح أن يكون - لا يمكن أن يكون بل هو أمر لا ينال ، اذ أن أساس الادماج هو الاتفاق على مذهب واحد ، وان الاتفاق في الفروع على رأي واحد امر غير ممكن ، بل هو من قبيل المستحيل الذي لا يدرك ، فانا اذا خلصنا الفقهاء من التعصب المذهبي لا يمكن أن نقدر اتفاقهم في منازعهم الفكرية ، وبيئاتهم الاجتماعية .

وهنا يثور اعتراض يبدو بادىء الرأي وجيهاً ، وهو كيف يمكن نحو الطائفية ، وبقاء المذاهب التي تحملها هذه الطوائف ؟

ونحن نقول في الجواب عن ذلك: إن المذهب ليس ملازماً للطائفة ملازمة لا يقبل الانفكاك عنها ، ولا يتصور له وجود من غيرها ، فان الطائفة جماعة تتجمع حول مذهب تمتنقه ، وتدعو اليه ، ويعد كل من لا يمتنقه خارجاً عنها ، وليس منها .

أما المذهب فهو مجموعة علمية تبقى حافظة كيائها ثابتة ، لأنه تراث فكري

وهو أمر معنوي منفصل في التصور عن الجماعة التي تعتنقه ، فإذا دعونا إلى نحو الطائفية فمعنى ذلك ألا يكون ذلك التجمع الذي يختص في موضع من الأرض بعنوان طائفي ، ويعد المتجمعون أنفسهم موجوداً منفصلاً عن غيره من المسلمين .

وإذا انفصل المذهب عن الطائفية كان لكل مسلم أن يعتنقه أو بعضه من غير أن يدخل في تجمع طائفي ، فيصح للسني أن يأخذ بفروع الفقه في مذهب الإمام زيد من غير أن يعد شيعياً زيدياً ، وأن يتبع الإمام جعفر الصادق فيما صح النقل فيه عنه ، من غير أن يكون امامياً اثنا عشرياً أو اسماعيلياً ، ويصح أن يختار بعضاً من المذهب من غير أن يدخل في طائفته .

وان ذلك ينمي المذهب ، ويحييه ، وينشره ، ويكثر اتباعه ، فإن انخيازه في طائفة معينة ، قد يكون حجاباً يمنع غيرها من أن يدرك ما في هذا المذهب من أراء قيمة صالحة ذات فائدة خاصة ، أو ذات دليل أقوى أو أكثر ملاءمة للناس من غير مخالفة للنصوص ولا للمقررات الشرعية الثابتة التي لا يصح لعالم أن يخالفها .

وانه من الحق علينا أن نقول : إن مصر منذ نحو من اربعين سنة قد اخذت نظام الاسرة من المذاهب المختلفة ، فأخذت من الإمامية والمالكية والحنابلة ، وتحللت من التقيد بمذهب أبي حنيفة ، فاجتازت بذلك المهاجرات المانعة ، غير ملتفتة للمزغ الطائفي .

ففي الطلاق المعلق اخذت بمذهب الشيعة الامامية ، فلم توقعه على تغيير قليل فيه اذ التفتت إلى مقصد المعلق ، وأخذت بأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا طلبة واحدة ، وهو أحد الآراء في مذهب الامام جعفر الصادق مذهب الإمامية ، وقد قيل إنها اخذت من فتاوى ابن تيمية ، وهو قد صرح في فتاويه بأنه اخذ من مذهب الامامية ، وإن لم يصرح باسمهم فقد صرح باسم أئمتهم .

وفي القانون رقم ٧٧ لسنة ١٦٤٣ وهو قانون الميراث اخذ بمذهب الامامية في جعل الميراث مولى العتاقة أو كما سماه الإمامية مولى النعمة إذا لم يكن وارث بالنسب أو السبب .

وفي القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ ، وهو قانون الوصية أخذ بمذهب الإمامية في جواز الوصية للوارث .

والمشروع الذي وضعته لجنة الأحوال الشخصية التي ألفتها رئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٠ ، أخذت من مذهب الامامية أن الطلاق لا يقع إلا أمام شاهدي عدل ، وأخذت من مذهب الظاهرية انه لا يقع في غيبة الزوجة إلا بعد علمها . وهكذا اجتازت مصر كل حاجز يمنعها من اعتبار الامامية مذهباً لاطائفة وانه يحق لبعض العلماء في مصر ، أن يفاخروا العالم الإسلامي بأنهم أزالوا الحجرات التي تفرق بين الامة الاسلامية في الفروع ، وكانت في هذا ترجح تلك المذاهب بالدليل أحياناً وبرعاية المصالح أحياناً ما دامت لا تعارض نصاً من النصوص الشرعية .

(٢) التعارف الاسلامي :

١٤٣ - نقصد بالتعارف الاسلامي أن يعرف كل مسلم في أي اقليم من الأقاليم الاسلامية . أو على الأقل يمكنه أن يعرفه في دراسة للكتب أو برحلات يقوم بها ، أو نحو ذلك من طرق التعارف المختلفة ، وان السبيل لذلك أن تكون عند كل اقليم اسلامي دراسة كاملة لغيره من الأقاليم ، كما يدرس الاقليم ذاته ، فان كل أرض الاسلام ملك لكل المسلمين ، ولا يجوز أن يجهل انسان أرضه ، فان جهل أرضه فقد سفه نفسه .

وإنه لذلك يجب أن تدرس تاريخ دخول الاسلام في كل اقليم اسلامي ، وكيف كانت حاله ، وما أقامه فيه من حضارات عادلة ، وما قوضه من عادات أو تقاليد لم تكن عادلة ، فيعرف تاريخ الاقليم في جاهليته واسلامه .

وتعرف حال كل اقليم ، وما فيه من ينابيع الثروة والخير ، وحال هذا الاقليم في معاملاته الخارجية ، وما ينبغي أن تكون عليه بعد الوحدة ، الجامعة ، فمثلا تعرف المنافع الطبيعية للثروة في اندونيسيا وما فيها من خيرات الأرض ما لو تسابق اليه المسلمون لعمت فائدته لهم بدل أن يكون لاعداء الاسلام في البلاد التي تتربص للاسلام بالمكيدة تدبرها ، وبالشديدة تنزلها .

ان كل معدن أو ركاز في باطن أرض اسلامية هو للمسلمين أجمعين ، وليس لأهل الاقليم الا حصة فيه بمقدار نسبته في تعداد المسلمين .

وانه لأجل أن يكون هذا التعريف كاملا يجب :

(أ) أن يكون من ضمن مناهج التدريس في المدارس الاعدادية والثانوية موضع لدراسة تاريخ كل اقليم اسلامي وجغرافيته الطبيعية والاقتصادية ، وما تصدره من خيرات ، وما تكتنزه أرضها من فلزات وانه لمن التخاذل الاسلامي الذي يعد عاراً أن يدرس الطالب المسلم جغرافية انجلترا وفرنسا وامريكا وتاريخ هذه البلاد ، ولا يعرف تاريخ باكستان ولا اندونيسيا ، ولا تعدادهما .

لنا ان نقول ليس العار في دراسة البلاد الاجنبية ، لأن هذه الدراسة علم ولا عيب ولا عار في تعرف عام من أي جانب كان ، انما العيب كل العيب ، والعار أن يحجل تاريخ بلاد الإسلام ، وإذا ذكرت لا يعرفها المثقف إلا عن طريق الفرنجة ، وعلمهم في ذلك شانه تحري كتابة ألا يذكروا الحقائق كاملة ، أو لا يذكروها سليمة كل السلامة ، بل انهم ينقصون عدد المسلمين فيها ، ويطففون فيهم .

لقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا التقى المسلمان فلم يتعارفا نقص من ايمانها » فكيف تكون الحال ، ونحن نجعل اهل الاسلام ، وهم أهلنا ، وأرضهم وهي أرضنا .

إن الدين الاسلامي دين التعارف ، ولقد رويناه من قبل أن النبي ﷺ قال :
« خير الاسلام أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وللحديث معنى
يؤدي من لفظه ، ومعنى يفهم بالإشارة وهو أن التعارف الاسلامي واجب .
وان الطلبة يجب أن يهابوا وهم صفار على أن يفتحوا عيونهم إلى المسلمين ،
ليكون الإسلام واهدافه في قلوبهم منذ نعومة أظفارهم .

(ب) وانه من طريق التعارف الاسلامي ايفاد بعوث علمية من علماء
المسلمين أهل الخبرة في طبائع الاشياء ليدرسوا أراضى الاسلام ، وما عساه
يكون فيها من خير ينفع الجميع ، ولا يقتصر نفعه على الاقليم ، وانه يجب
مع ذلك القيام بتقويم البلاد الاسلامية ، تحصى فيه مواردها ، وسكانها ، وتبين
احوالهم الاجتماعية ، وقد همت بذلك بعض الجماعات ، وأن تنظم رحلات
مستمرة من شباب الأمة وكهولها ، ليعرفوا اخوانهم في أقاليم الاسلام ، بحيث
يوجد إحساس عام ، باللقاء المستمر . إن كثيرين من المسلمين يتجهون إلى
المصايف الأوروبية ، والاثرياء يتنقون اموالهم اسرافاً وبداراً هنالك في فرنسا
وسويسرا اليهودية في منزعا ، وفي تعصبها ، وإيطاليا ، وهكذا .. بينما في
البلاد الاسلامية مصايف ومشات تهواها الانفس ، وفيها متعة الرحلة ، ومتعة
السياحة والاصطياف ، ومتعة اللقاء الاسلامي .

ونريد أن نذكر أمراً جديراً بالاعتبار ، واستخلاص العبرة والموعظة هو
أن الأوروبيين والأمريكان يستمتعون بالذهاب الى اسبانيا ، حتى ذكروا أنها
أكبر بلد يستفيد من السياحة ، حتى قدروا موارده من السياحة بنحو مليار من
الدولارات أو يزيد ، وما الذي يستمتع به الأمريكيون في اسبانيا ، انهم
يستمتعون بأمرين - أولهما - جمال الآثار التي تركها العرب وربما يكون ذلك
بالحل الثاني ، لا بالحل الأول - وثانيهما - وهو الحل الأول أن يستمتعوا
بأنهم أخرجوا العرب ، وحولوا مساجدهم إلى كنائس ، وماذنهم إلى أجراس ،
وهذا النوع من المتعة هو بالحل الأول لا بالحل الثاني فاعتبروا يا أولي الأبصار .

(ج) وهناك طريق للوحدة والتعارف مفروض في الاسلام ان أدركنا معناه ، وعرفنا مغزاه ومرماه ، وهو الحج الى بيت الله الحرام ، فانه فريضة محكمة باقية الى يوم القيامة والحج كما أشرنا من قبل هو طريق للتعارف الاسلامي لو نظم على وجهه الشرعي الصحيح ، وكان المسلمون الأولون حريصين على أن يجعلوا منه سبيلا للتعارف الاسلامي ، والروايات للاحاديث النبوية والدراسات الفقهية ، وانك لترى أن أبا حنيفة يلتقي بمالك في موسم النبوة ويتذاكران مسائل الفقه ، ويلتقي بالأوزاعي في سوق الخياطين بمكة ، واحد ابن حنبل يلتقي بالشافعي ويلقي عليه فقهه في البيت الحرام ، وكان ابو حنيفة يلتقي بالامام محمد الباقر ، وابنه الامام جعفر الصادق ، ويأخذ عنها ، وهو يحج الى بيت الله الحرام .

وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على أن يرأسوا موسم الحج بأنفسهم ، وظل عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه حريصاً على أن يلتقي بعمال الأمصار في موسم الحج طول خلافته ، وكان يتعرف أحوال الحجاج ومن وراءهم من أهالي الأقاليم ، وكان ينزل إلى الحجاج من كل اقليم اسلامي يتعرف شؤونهم وأحوالهم ، ومعاملة الولاة لهم ، وكان يخطب في عرفات خطبة جامعة ، يبين فيها علاقة الحاكم بالمحكوم ، وقد سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في خطبة الوداع سنة التعريف بالاسلام وبحقائقه في موسم الحج .

وكان أئمة الفقه كما أسلفنا حريصين على حضور موسم الحج فيلتقي علماء الامصار بعضهم ببعض فيتذاكرون مسائل العلم وأحوال المسلمين وقد ضربنا على ذلك الامثال فيما ذكرنا من بعض لقاء الائمة ؛ وهكذا كان الحج في الماضي مثابة للتعارف الاسلامي ، فهل لنا أن نطلب إلى حكام الاقاليم الاسلامية الالتقاء فيه ليتشاوروا فيما بينهم ، وانه لن تكون لنا قوة في الأرض إلا اذا حققنا مقاصد الاسلام في عباداته .

واننا نطالب الحكومة التي تتولى الآن ولاية البلاد في الحجاز ، وسدانة

الحرمين الشريفين أن تعمل على أن تمكن المسلمين من أن يتعرف بعضهم ببعض ، وأن تتعرف بالعلماء الذين يقومون بفريضة الحج ، وتقيم ندوات علمية بينهم ، فالفقهاء يجتمعون في ندوات تدارس الفقه الاسلامي ، والاقتصاديون يجتمعون في ندوات لدراسة الاقتصاد الاسلامي ، والعمل على تنفيذ أحكام القرآن ، وكذلك المهندسون والأطباء ، وبذلك يكون الحج طريقاً للتعارف والمعرفة كما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمناء ، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم . ان هذا أمر يمكن تنفيذه من الآن ، وانه سينظم على وجه أكمل ، اذا قامت الجامعة الاسلامية .

(٣) اللغة العربية :

١٤٤ - ان معرفة الداء سبيل معرفة الدواء ، وقد علمنا أن إماتة اللغة العربية في الأقاليم الاسلامية ، واحياء اللغات الاقليمية كان هو الداء الذي عمل على تفريق المسلمين ، وذهاب ربح الدولة الاسلامية ، وان ذلك يشير حتماً إلى أن من الأصول الاولى للجامعة الاسلامية إحياء اللغة العربية في كل الأقاليم الاسلامية ، لقد كان المسلمون مجتمعين يوم ان كانت لغة الدولة ، ولغة الحكومات في الأقاليم ، فكان حقاً عليها أن تردّها الى مكانتها ، لأنها لغة القرآن أولاً ، ولغة الاجتماع الاسلامي ثانياً ، ووعاء العلم الاسلامي ثالثاً ، فلا بد أن نعد هذا الوعاء ليكون للمسلمين أجمعين .

وانه مع هذا الاعتبار التاريخي لا يتم التعارف بين المسلمين إلا إذا وجدت لغة جامعة بينهم ، بحيث ينزل المسلم في أي اقليم اسلامي ، فلا يتعذر عليه أو يتعسر الخطاب مع أهله ، ولا يستعصي عليه البيان الا بترجم .

ولا نقصد بذلك إماتة اللغات الاقليمية التي انبعثت مع الشعوبية في القرون الحوالي ، كما أسلفنا في اسباب التفرق ، حتى لا تتحرك العصبية الاقليمية التي يحاول أعداء الاسلام أن يحاربوا بها الوحدة الاسلامية بتأجيج نيرانها وانما

نريد أن يتعلم المسلم المثقف يجوار لغة اقليمه اللغة العربية التي هي الجامعة بين المسلمين ، وهي لغة القرآن ، اننا نرى الشباب المثقف في البلاد الاسلامية يتعلم مع لغة قومه لغة اوربية أو لغتين ، فلو قلنا ان على المسلم المثقف أن يستبدل باحدى اللغتين الأوربيتين لغة تجمع بينه وبين اخوانه المسلمين لا يكون في ذلك شطط أو ارهاق ، ولا نكون قد اعتدينا على قوميتيه ، وان كان يجب أن يكون نظره الى قومه من وراء نظره الى الاسلام ، فلا يصح أن يعين قومه على خفض كلمة الاسلام ، وتعارف المسلمين ، اننا نلرجو أن يكون في قلبه موطن لدينه فوق تعصبه لقومه ، والا كان معيناً قومه على الظلم وتلك هي العصبية الجاهلية ، واذا كنا لا نعارض في انبعاث القومية أو في بقائها فانا نريدها قوة للمسلمين ، وبذلك يكون قومه في حماية المسلمين ، لا في حماية أجنبية لا تريد به الا الخبال ، والضياح ، كما ضاع من قبل .

اننا ننزل في أي بقعة من أرض الاسلام فنجد من يستطيع التكلم بالانجليزية أو الفرنسية ، ولذلك لا يكون الانجليزي أو الفرنسي غريباً في أرض الاسلام بينما العربي اذا نزل في أرض اسلامية يكون غريباً اذا لم يجد الانجليزية أو الفرنسية أو يجد مترجماً بينه وبين أخيه المسلم .

واذا دخل الانجليزي أو الفرنسي اقليماً اسلامياً وجد من المسلمين من يسارع بالتحدث اليه بلغته مفاخراً بذلك ونحن لا نريد أن نلغي تعلم الانجليزية أو الفرنسية كما لا نلغي اللغة القومية للاقليم ، ولكن نريد أن يكون للغة العربية مكان مثل الانجليزية أو الفرنسية ليتمكن المسلم من أن يخاطب أخاه المسلم المثقف من غير توسط مترجم ، أو توسط لغة أخرى .

أليس من العار أنه في البيت الحرام ومهبط الوحي في موسم الحج ، حيث يلتقي المسلم العربي بالمسلم الهندي ، لا يستطيع احدهما أن يخاطب الآخر إلا بالانجليزية أو الفرنسية .

وأليس من الغرابة أن يدعو الله عالم السر واخفى باللغة العربية، ويخاطب

إخاه المسلم بالانجليزية أو الفرنسية ، وإذا لم يكن العربي مجيداً لهاتين اللغتين كان المترجم بينها .

إن وجود لغة جامعة أمر لا بد منه في تكوين الجامعة الإسلامية ، وإذا كان لنا أن نختار لغة فأبي اللغات نختار ؟ إن البدهاة تقول اللغة العربية ، بل إن بعض القراء -- يجد غرابة في توجيه هذا السؤال ، إذ لا موضع له ، لأن الأمر المتيقن الذي تقره البدهاة لا يسأل عنه ، ويكون السؤال عنه غريباً في المنطق والعقل .

ولسنا ندعو إلى العربية إحياء للعصبية العربية ، أو لأي معنى يتصل بذلك ، ولكن ندعو إليها ، لأنها أولاً لغة القرآن ، ولغة السنة ثانياً ، ولغة العبادة الإسلامية ثالثاً ، فهل من المسلمين من يصلي بغير قراءة الفاتحة بالعربية ، وهل من المسلمين من يكبر تكبيرة الاحرام في الصلاة بغير العربية ، وهل في المسلمين من يحرم في الحج ، ويلبي بغير اللغة العربية ، وهل من المسلمين من يتلو القرآن بغير اللغة العربية ، ويعتبر تلاوته عبادة .

لقد أوجب الامام الشافعي كما ذكرنا على كل مسلم أن يعرف قدراً من العربية يصحح به دينه ، وعلل ذلك بنزول القرآن باللغة العربية ، لا بلغة غيرها ، لأنه كيف يسوغ لشخص لا يعرف العربية أن يقرأ سورة الفاتحة من غير أن يفهم ما اشتملت عليه من حمد لله وضراعة اليه ، وبيان وحدانيته ورحمته ، وكال سلطانه ، وكيف يسوغ له أن يقول : الله أكبر من غير أن يعرف معناها وكيف يسوغ لخطيب أن يخطب على منبر خطبة الجمعة بالعربية من لا يفهمونها ، بل كيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يتلو القرآن أو يستمع اليه من غير أن يعرف آيات الترغيب والترهيب ، والآيات الكونية ، والآيات التي تبين الاحكام الشرعية من نكاح وطلاق وميراث ، ومعاملات ، وحدود وقصاص .

لذلك نجد أن اللغة العربية هي تجمع المسلمين في الحاضر ، كما جمعتهم في

الماضي ، فلسنا والحمد لله ندعو للعربية تعصباً للعرب ولكن ندعو اليها تعصباً
للاسلام ، ورغبة في الوحدة الإسلامية .

وإن المسلمين المخلصين في كل بقاع الأرض يدركون هذه الحقيقة ويؤمنون
بها ، والمتقفون منهم يعلمون ذلك علم اليقين إلا أولئك الذين طمس الله على
بصائرهم فعموا وصموا ﴿﴾ انهم لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي
في الصدور ﴿﴾ .

إن بعض هؤلاء الأعاجم الذين لا يعرفون من العربية شيئاً سوغوا لأنفسهم
الاجتهاد معتمدين على القرآن وحده ، وهم لا يعرفون كلمة واحدة عربية
وانهم قوم بور ، أو كما قال الفخر الرازي مقتبساً من القرآن لأمثالهم : «انهم
قوم سدى ، لم يهتدوا ولم يستمعوا إلى كلمة الحق التي تهديهم» .

إن اللغة العربية ليست لغة القرآن والسنة فقط ، بل لغة التراث الاسلامي
كله ، فالفقهاء على شتى مناهجهم ومذاهبهم قد دونوا علمهم باللغة العربية ،
وكذلك الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي ، وتفسير القرآن والحديث كل
اولئك كان باللغة العربية .

وكيف يترك مثقف اسلامي علوم فخر الدين الرازي وعلوم الغزالي ، وعلوم
عمود جاد الله الزخشري ، وعلوم أبي بكر الرازي الشهير بالخصاص ، وغيرهم
من كبار علماء فارس وخراسان ، وعلماء ما وراء النهر الذين دونوا باللغة العربية
كنوزاً من العلم وآثار الفكر الاسلامي ، سواء أكانت في المعقول أم كانت
في المنقول .

نعم إن بعض الآثار العلمية أو الأدبية كان يصدر بغير اللغة العربية ، ولكنه
نادر ندرة تجعله غير مذكور في الحساب ، وكان في عصر محاربة اللغة العربية
ومحاولة احياء اللغات القومية ، وليس على أي حال شيئاً مذكوراً .

١٤٥ - إن إهمال اللغة العربية إهمال لصدر تاريخنا ، وما ينبغي لمثقف

مسلم أن يحجل تاريخ الاسلام ، ولا يليق بمثقف مسلم أن يقرأ عدة تراجم بالانجليزية لخطباء اليونان والرومان وخطب الانجليز ، وكتاباتهم ، ولا يقرأ خطب رسول الله ﷺ ، وخطب علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وخليفة رسول الله صديق هذه الأمة .

ولكن هذه الأمور الغربية صارت أمراً مألوفاً عند أولئك الذين استضعفوا أنفسهم وارتضوا أن يكونوا تابعين لاعداء الإسلام ، وذيولاً لدولهم .

إن الشعوب الإسلامية على تباعد أقطارها كل لغاتها متأثرة باللغة العربية ، فالفارسية فيها الفاظ عربية كثيرة والأردية لغة باكستان أو لغة الهنود عامة ، فيها الفاظ عربية تبلغ نحو ستين في كل مائة أو تزيد .

وذلك لأن اللغة العربية كانت هي اللغة الجامعة في الماضي ، حتى كان الافتراق ، فعندئذ ضاق ظلها ، أو تقلص ، واقتصر على من يتكلم العربية صحيحة أو عامية ، وإن ندر الأول .

ولا أقول ذلك لأنها كانت المظهر الاجتماعي والتلاقي فقط، بل أقول ذلك، لهذا ولأن تعلم العربية للمسلم اسهل من تعلم أي لغة اخرى بالنسبة لتلك الاقاليم ، لكثرة الألفاظ العربية في تلك اللغات ، ولأنهم يتلون القرآن ، بل منهم من يحفظونه وهو باللغة العربية .

ولذلك قال بعض أهل الخبرة : « إن الباكستاني يستطيع أن يتعلم العربية وينطق بها في مدة لا تزيد على ستة أشهر مهما تكن سنه ، ومهما يكن مقدار ثقافته .

ولقد حاولت باكستان أن تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية بدل الانجليزية التي لا تزال الآن اللغة الرسمية لهذه البلاد المسلمة ولكن حال دون ذلك أولئك الذين لا يزال يعيش في رؤوسهم الأجنبي بتفكيره ونزوعه .

وانه يجوار أولئك الذين تملأ رؤوسهم الحضارة الأوروبية ونزعاتها يوجد

وهم مضعف يتوهمون معه صعوبة تعلم العربية ، وغواش من الحواجز التي تحاجز بين الباكستاني ، وبين دينه الذي توجب حقائقه المقررة معرفة العربية لمن يريد أن يتعرف شؤون دينه من مصادرها العربية ، من القرآن والسنة النبوية، والفقه الذي استنبطه الأئمة الاعلام، وغير ذلك مما يتصل بالدين معرفته .

وانه مما يثير السرور في بعض النواحي الإسلامية بالنسبة للغة العربية أن كثيرين من العلماء المتخصصين في الدراسات الإسلامية من الهند وباكستان وقارس وافغانستان وغيرها يعلمون العربية ويدرسونها .

ولقد وجدنا ليبيا عندما خلعت نير الاجنبي ، وقذفت به في البحر ، واستعانت جامعاتها ومعاهدها بمن يدرس العلوم الإسلامية في ذلك البلد العربي ، كان ممن استعين بهم بعض الشبان والكهول من علماء الهند المسلمين ، وبعضهم من تلاميذنا الذين كانوا يؤثرون أن يدرسوا العلوم الإسلامية باللغة العربية .

١٤٦ - إذا كان حقاً على كل مسلم أن يتعلم حظاً من العربية يصحح به دينه ، كما قرر الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكما شرحنا من قبل فانه حق على كل من يعرف العربية أن ينهض لتعليمها ، وان تعليمها لمن يحلمها من المسلمين فرض كفاية على جماهير العارفين بالعربية عامة ، فعلى غير العرب أن يهتثوا الاسباب لتعلمها ، وعلى العرب أن يتقدموا لتعليمها .

إن كثيرين من البلاد الإسلامية يريدون معرفة العربية لغة دينهم ليفهموا القرآن العظيم من لغته وليتصلوا بمصادر الشرع من غير وساطة تتوسط .

وهناك الجماعات الكثيرة التي ندبت نفسها لهذا العمل الجليل ، واني لأعرف أن بعض العلماء من الهند وباكستان يقومون بوضع معجم للقرآن باللغة الأردنية ، ليسهل على من يحفظ القرآن أن يعرف بلغته معنى ما يقرأ ، وان حفظة القرآن فيهم عدد كبير يضمن قواثر القرآن حفظاً وتلاوة في الأجيال .

وان وجود هذا المعجم بلا ريب يفيد من يتكلم الأردنية ، ويسهل تعلم

العربية ، فإنه بهذا يحفظ عدداً كبيراً من الالفاظ ، ومقابلها العربي في أفصح وأبلغ كلام في الوجود .

إن جماعات في الباكستان تنشئ المدارس بإمداد أهل الخير ، ولكنها لا تجد العدد الكافي من مدرّسي العربية ، فعلى البلاد العربية مجتمعة أن ترسل المعلمين إليها فإن تعلم العربية وتعليمها فريضة محكمة ، قال عليه السلام : « تعلموا العربية وعلّموها الناس » . ولا تسقط هذه التبعة إلا إذا أجبنا أمر النبي ﷺ : وهي لسان القرآن . قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ .

(٤) ترجمة العلوم الى العربية :

١٤٧ - قد يقول قائل ان تعلم اللغات الحية في البلاد الإسلامية أمر لا بد منه ، لأنها لغات العلم الكوني والإنساني وهذا العلم في تجدد مستمر ، وزيادة دائمة ، وقد تغلّغت آثاره في كل المجتمعات الإنسانية ، ومما انتهى اليه العلم غرائب ، لو ذكرت لأهل القرن الماضي لكانت من المعجائب المعجزات ، ولا يزال يخطو إلى الأمام ، والتخلف عنه تخلف عن ركب الإنسانية ، وما يسوغ أن تتخلف الجامعة الإسلامية عن الركب السائر ، وإلا كانت مأكولة لا محالة ، وكأنها تجتمع لتؤكل ، ولتلتهم ، فلا بد من دراسة اللغات الحية بين المثقفين فيها ، وإذا كان العلم بالعربية فرضاً كفاثياً ، فإننا نحسب أن العلم الكوني فرض كفاثي أيضاً ، لأنه لا تستغني عنه الجماعات ، ولا بد أن يتولى كل اقليم من يتابع الزيادة المستمرة في علم الكون وعلم الإنسان ، والصناعات ، وما يستخرج من المواد الخام التي أودعها الله تعالى باطن الأرض ، إن ذلك أمر لا بد منه وليس لنا أن نخالقه ، وإن ذلك لكائن في كل البلاد المتحضرة .

ولكنه لا يكفي أن يكون بين المسلمين متخصصون في هذه العلوم ، متتبعون لما يزداد فيها ، وما تكشفه العقول الباحثة بل لا بد مع ذلك من أن

تترجم هذه العلوم الى اللغة العربية لنستفيد منها إثماء وحيوية ، ونجدد في علمها ، ولقد كان الأقدمون من اسلافنا يقومون بنقل العلوم إلى العربية ، وقد أبلى في ذلك غير العرب من المسلمين بلاء حسناً ، فابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طفيل ، وغيرهم من العلماء ، جعلوا اللغة العربية تزخر بالعلم ، حتى صار العلماء المسلمون أساتذة الغرب ، في ذلك ، فنقلوا لهم منطق أرسطو ، وسياسته ، وسياسة افلاطون فيما سموه المدينة الفاضلة .

ولقد كانت دار الحكمة ببغداد، مملوءة بعلماء الفلسفة ، والترجمة لكل العلم الهندي في تصوفه ، والعلم اليوناني في منطقته ، وموازن البيان ، كما نرى في كتاب الشفاء لابن سينا، كانت الترجمة قائمة على قدم وساق ، حتى حالت عليها الحال ، كما قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾

وما ضعفت العربية إلا يوم ضعف المسلمون ، وتحاذلوا عن نصرتها ، وعن القيام بحققها وانماؤها المستمر ، كما فعل السلف ، وقد تركوا لنا في ذلك تركة قوية ماثرة بالعلم الفلسفي في كل نواحيه .

إن اللغات الحية تتبادل العلم وما ينتجه العلماء ، فانه لا يظهر كتاب علمي في لغة من اللغات ، حتى تجده فيها قبل أن تنتهي طبعته في لغته .

وإن أهل كل لغة عندهم قسم قائم بالترجمة ينتبج الجديد من الكتب التي تحمل جديداً من العلم فيسارعون بنقله الى لغتهم ، ان لم يكن بالترجمة المتتبعة المتقصية فبالتلخيصات الوافية ، ويتولونه بالدراسة والفحص ، وان العلم لا يصح ان تقوم الحاجزات الاقليمية دونه ، وكما قال صاحب كتاب اصيل القرن التاسع عشر الذي ترجم الى العربية بعنوان التربية الاستقلالية « ان العلم كالماء والهواء لا يقع في قبضة أحد ، فهو حق شائع للانسانية كلها ،

لهذا يجب أن يجتهد المسلمون ، لا فرق في ذلك بين أعجمي النسب وعربي في تغذية اللغة العربية بالعلم الجديد لنسير في الركب ، ولا يمكن أن يكون لنا مدنية إسلامية تقي وتكفي إلا إذا ذخرت لغة الجامعة الاسلامية بالعلوم.

إن الجامعة الإسلامية يجب أن تتبع ما ينتجه العلم في الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ، وعلم الفضاء ، فينقل إلى لغتنا العربية الإسلامية التي هي لغة جميع المسلمين ، لا فرق بين عربي وأجنبي .

ولا يقال إن العرب أولى بالقيام بهذا الواجب ، لأنها لغتهم ، لا يقال ذلك ، لأنها لغة الإسلام ، وليست لغة قوم دون قوم ، ونحن نريد من المسلمين خصوصاً المثقفين أن يكونوا على علم كامل بالعربية ، ونريد لها الثراء بالعلوم الكونية وعلوم الحياة .

ولقد كان الذين تولوا نقل العلم الهندي والفارسي واليوناني إلى العربية من الأعاجم في أنسابهم ، وإن كانوا عربياً بإسلامهم ، والأوروبيون لا يعبرون عن العلم الإسلامي إلا بالعلم العربي وإن كان الذين قاموا به من سلالة فارسية أو بربرية ، أو غير ذلك .

وقد يقال إن اللغة العربية الترجمة إليها قائمة على قسمة وساق ، والجامعة العربية تتولى ترجمة كتب إلى العربية وذلك القول حق لا ريب فيه ، فإن كبار الأدباء يترجمون .

ولكن الكتب المترجمة في الآداب ، لا في العلوم ، وفي البحوث الاجتماعية لا في البحوث الكونية ، والجامعة العربية في قسمها الثقافي لم تخرج عن ذلك النطاق ، بل سارت في ذلك الدرب ، بل إنها ترجمت بعض الكتب الأدبية والاجتماعية التي سبق أن ترجمت من قبل ، ولم تجر إحصاء بما ترجم ، حتى يكون عملها إنشاء ولا يكون تكراراً .

إننا نريد أن تزخر لغة الإسلام بالعلم ، وتتولى ذلك الجامعة الإسلامية ، لينتجى الاكتفاء الذاتي بين الأقاليم الإسلامية .

وكما قلت إن تعلم اللغات الحية لا تغني عنه الترجمة ، فإن النقل عن علم لغة يقتضي معرفة هذه اللغة ، ولقد نقل الينا عن المرحوم الأستاذ الشيخ عبدالعزيز

جاوئش العالم العربي الأديب أن من ترجم كتاباً من لغة إلى لغة بلده ، فقد نقل علم أهل هذه اللغة إلى بلده ، وهذا ما نريده .

إن دور الدراسة والإنتاج يجيء دائماً بعد دور الترجمة ، إن ذلك هو الترتيب الطبيعي .

لقد ابتدأت الترجمة في آخر العصر الأموي ، وازدهرت في العصر العباسي خصوصاً عصر المأمون ، وبعد أن زحرت العربية بالترجمة كانت الدراسة والبناء على العلم الذي نقل إلى المسلمين ، ولذلك كان من فلاسفة المسلمين الذين تكلّموا في أرسطو وأفلاطون من لا يعرف اليونانية . كذلك نحن في هذا العصر إذا زحرت البلاد الإسلامية التي تكون لغتها الرسمية العربية فيما بين أقاليمها وفي داخلها بالعلوم ، إذا أمكن وتحقيق ذلك ، فإنه سيكون بعون الله تعالى من بين المسلمين علماء في الكون يكشفون من خواص المادة كما يكشف علماء الغرب ، ويفغذون العلم ، كما تتغذى لغتهم به .

واننا نلاحظ أن في بعض الدول العربية أراد القائمون على الجامعات فيها أن يدرس الطب ، وأن تدرس العلوم الكونية باللغة العربية ليسهل فهمها ، ولتزرع العربية بذاتج علمهم ، ولتتسع الترجمة في هذه ، ولتكون مكتبة عربية في هذه العلوم .

وقد نفذت ذلك جامعات في الدول العربية ، ولكن استنكرت ذلك مصر ، وما كان استنكارها ، إلا لأنهم استثقلوا ذلك ، وأخفوا هذا بأن قالوا ، ان اللغة العربية عاجزة عن أن تتسع لهذه العلوم ، وما كان العجز إلا فيهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وان إدخال العلوم الكونية في اللغة العربية ليس بدعاً أو جديداً ، إنما هو في المدارس الثانوية منذ زمن بعيد ، ولكن في المدارس العربية ، وخصوصاً بعد أن خرجت من الحكم التركي ، وخلعت الرقبة الأجنبية ، ولا يزال بعضها من استقل قريباً يزرع تحت نير اللغة الأجنبية ، وان الله تعالى منقذ لغة القرآن ، وان ترجمة العلم الكوني والطبيعي إلى اللغة العربية يقتضي أمرين :

أحدهما - نقل كل المعلومات إلى اللغة العربية بالألفاظ التي تتسع لها ألفاظ اللغة العربية من غير إجهاد ولا إعنات .

ثانيها - الاتجاه إلى تعريب الألفاظ الأفرنجية بصقلها بصقل عربي ، فإن ذلك يزيد اللغة نماء .

(٥) جماعة علمية :

١٤٨ - ابتدأت مصر من بين البلاد الإسلامية إلى تكوين مجمع البحوث الإسلامية الذي يدعو إلى مؤتمر كل عام منذ سنة ١٩٦٤ ، ولم يتخلف اجتماعه إلا سنة ١٩٦٧ لأحوال كانت خاصة بمصر أو بالأحرى بالبلاد العربية وفي معناها العميق كانت تعم العالم الإسلامي كله ، لأنه يتصل بنكسة الجيوش المصرية سنة ١٩٦٧ ، وقد أخذ اليهود أعداء الله وأعداء الإنسانية بيت المقدس وقال طاغوتهم : الآن قد فتح الطريق لمكة والمدينة حيث جثان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي أعقاب ذلك حرق المسجد الأقصى مسرى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كان الأمر المانع من الانعقاد أمراً بهم المسلمين أجمعين .

كانت المؤتمرات الخمسة التي عقدت يدعى اليها ممثلون لأربعين دولة إسلامية لا يتحرى فيها مذهب ، بل انها جامعة في الجملة للمذاهب الإسلامية من حنفية وشافعية ومالكية ، وجعفرية ، وزيدية .

ولقد قرر كل مؤتمر قرارات كثيرة تهم المسلمين جميعاً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمسجد الأقصى ، وانتهاك الحرمات الإسلامية في فلسطين ، وإيلياء أرض الله المقدسة التي جبن بنو إسرائيل أن يدخلوها في عهد موسى ، وقالوا لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون .

ولقد كانت القرارات تكتب وتحرر ، وارجع اليها في قرارات المجمع من أول مؤتمر إلى الأخير . ولكن لا تنفذ ، ومهما يكن الأمر في ذلك ، فان

عدم تنفيذ قراراته ليس بتقصير من المجمع ، ولكن الذين يمحشون اليه من الوفود الإسلامية يحضرون إليه على أنه مؤتمر دعوا اليه ، وساهموا في مناقشاته أو لم يساهموا ثم ينفض ، ويعودون إلى بلادهم .

والحق أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، لأن فعل أي شيء يوجب أن يكون للحكام رأي فيه ، وأن يكونوا مؤيدين له ولكنهم في جانب ، والذين حضروا في جانب آخر ، وما أحسب أن وفداً منهم حاول أن ينفذ أمراً مما قرره المؤتمر كانشاء صندوق لتأييد المقاومة أو نحوه .

ومها يكن الأمر في مجمع البحوث الإسلامية الذي أنشأته حكومة القاهرة ، وتولت تكوين أعضائه ، فانه يصلح أن يكون نواة لتكوين مجمع إسلامي شامل ، لا يكون تحت رعاية دولة اسلامية واحدة ، بل يكون تحت رعاية الجامعة الإسلامية ممثلة في مجلسها الذي ستتكلم في تكوينه من بعد .

وان الخواطر التي تجول في نفوسنا بالنسبة لهذا المجمع المرتقب ، أن يكون ممثلاً لكل المسلمين من أقصى الصين الى المحيط ، وأن يكون للأقليات الحق في رفع أمورها وبيان أحوالها لذلك المجمع ، وأن يكون فيه ممثلون لها ، يكون لهم الحق في تعرف أحوال المسلمين ، وبيان أمورهم ، والنظر في رفع الظلم عنهم .

إن الملاحظ أن المجمع القائم ، وكله خير ، وإن لم يكن فيه كل الخير ، أن أعضائه جميعاً من البلاد العربية فليس فيه عضو من باكستان ، ولا الهند ، ولا افغانستان ولا ايران ، بل ان بعض البلاد العربية غير ممثلة فيه ، فليس فيه عضو من البلاد الحجازية ، ولا من سوريا ، بينما فيه عضوان من لبنان ، وربما يكونون ثلاثة وليس فيه عضو من المذهب الجعفري ، ولا المذهب الزيدي ، وان كان الجعفرية يدعون إلى مؤتمره ، وليس فيه أعضاء من المسلمين في وسط آسيا ، وإن كان يدعى إلى المؤتمر علماء من فضلائهم ، ويكون بهم

التعارف الإسلامي ، وإن لم يكن كاملاً ، لأنه لم يكن بين كل المسلمين أو كل علماءهم .

١٤٩ - إن مجمع البحوث الإسلامية كان في الاصل الباعث عليه أن يكون جامعاً للدراسة العلمية الإسلامية في كل البلاد الإسلامية ، وليكون حلقة اتصال علمي اسلامي بين المسلمين أجمعين .

وما كان يؤدي ذلك الواجب إلا إذا كان له استقلال في دراسته عن كل الأقاليم ، حتى عن مصر التي أنشأته ، وقد حافظ الذين أشرفوا عليه على استقلاله ، فكانت آراؤه لا تتقيد بالآراء التي تدعو إلى بعضها الحكومة المصرية ذاتها .

وإن ذلك بلا ريب فخر لحكومة مصر ، وللمشرفين عليه ، إذ لم يحاولوا أن يفرضوا عليه آراء معينة ، وإن الاستقلال الفكري في جماعة علمية هو طريق نجاحها .

وإذا كان ثمة من تجاهل هذا الاستقلال ، أو تجاهل قراراته ، فإن ذلك لا يضير المجمع ، وقد انتهى إلى قرارات علمية أعلنها ، ودرس أموراً أخرى وحاول أن يشرك فيها علماء المسلمين في كل البلاد الإسلامية ، فله قرارات في نظام الفائدة ونظام التأمين بكل ضروبه ، وقد أرسل إلى العلماء نتيجة هذه الدراسة في التأمين ، فلم يجد مجيباً إلا بين عدد قليل ، لا يمكن أن نقول : إنهم يمثلون الفكر الإسلامي تمثيلاً كاملاً .

وإن ذلك المجمع أراد أن ينشئ له مراكز اسلامية في كل بلد اسلامي ، وتتولى هذه المراكز دراسة الاسلام والمسلمين دراسة علمية ، كل مركز يدرس حال الاسلام في بلده ، ويعمل على تثقيف شعبه والشعوب القريبة منه بالاسلام . ولكن لم يتم شيء من ذلك ، لأنه يجب أن تتوافر مع رغبة الشعب ارادة الحكومة ومعاونتها وقرّر أن ينشأ في كل بلد اسلامي صندوق مالي ليمد

المجاهدين من الفدائيين المرابطين حول الأرض المقدسة ليجعلوها سماً زعافاً على محتليها ، وهم يريدون منها أن تكون لبناً وعسلاً .

وأردنا أن ننشئ مكاتب للدعوة العامة إلى الجهاد ، لأن العدو احتل جزءاً من أرض الاسلام بل من أقدسها على المسلمين ، فأصبح الجهاد فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ، بل على كل مسلم ومسلمة كل في حدود ما يستطيع فالكاتب بقلمه ، والخطيب ببيانه ، وذو المال بماله ، ومن يستطيع حمل السيف بسيفه استجابة لقول النبي ﷺ : « جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم » واننا إن تقاعسنا عن الاستجابة لله ولنداء رسوله ﷺ القينانحن المسلمين بأنفسنا إلى التهلكة ، أو لم نستمع إلى أمر الله تعالى في قوله : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

لقد دخل العدو بيت المقدس ، وتحقق نبأ الله تعالى في القرآن : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلُوا تَتْبِيراً ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَا ، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ .

لقد دخلوا المسجد وتبروا ما علوا تتبيرا ، بل حرقوه ، فهل نعود إلى الله تعالى ونجتمع ؟ هل ننتظر إلى أن يذهبوا إلى الروضة الشريفة ، والمسجد الحرام بعد المسجد الأقصى ؟ .

قرر مجمع البحوث الاسلامية أو قرر مؤتمره الاخير وما قبله انشاء مكتب لبيان ذلك ، ولكن لم ينشأ المكتب ، ولم يبدأ العمل .

١٥٠ - ولقد ذكر من قبل في ذلك البحث أن مجمع البحوث الاسلامية نواة لمجمع أوسع شمولاً ، وأعم نفعاً وأكثر عملاً ، ولكن ثمة معوقون لا يؤمنون به ، فقد حدث أن أحد المسؤولين ذهب إلى أحد المؤتمرات الاسلامية في آسيا ودعا إلى تقيض ما قرر المجمع في مصر ، نعم إن المؤتمر لم يوافق على ما طلب

ولكن هذا صور أن المجمع في مصر يوجد من لا يؤمن به ، وبعضهم من المشتغلين بالمسائل الاسلامية ومن له إشراف عليه .

وإذا كان نواة للمجمع المرموق المطلوب ، فإنه بلا ريب يجب أن يكون في ظل الجامعة الإسلامية ، ومجلس إدارتها الذي ستتكمّل عنه قريباً ، لكي يكون له الاستقلال الكامل ، وإن كانت حكومة مصر قد راعت استقلاله ابتداءً ، ولم يمس استقلاله إلا أخيراً ، وإن كان مساً خفيفاً .

وإنه إذا كان في ظل الجامعة الإسلامية ، وقد تكونت ، فإن قراراتها ستكون موضع التنفيذ ، إذ أن الحكومات الاسلامية ستكون منفذة لقراراتها ، وقرار الهيئات المستقلة بظلمها الوارف .

وإنه يجب أن يكون له فروع في البلاد الإسلامية كلها تتولى دراسة الاقليم وحاله الحاضر ، وما يحتاج العلم الاسلامي فيه ، ويكون لفرع المجمع نوع إشراف على الدراسات الدينية في تلك البلاد ، وتوجيهها بحيث لا تكون مجانية لما تدعو إليه مقاصد الجامعة الاسلامية التي هي القوة المسيطرة على الثقافات كلها .

وغير بعيد ما ذكرنا من أنه يجب أن يكون ممثلاً لكل الامم الإسلامية في مركزه العام ، بحيث يكون المركز العام له أعضاء ، ممثلون للمجامع الفرعية وإن المجمع الرئيسي وفروعه يجب أن يعنى عناية خاصة بالأقليات الإسلامية في كل البلاد ، بحيث يمدّها بالثقافة الإسلامية ، ويعينها على رفع الظلم إن كان ، ويسهل لها الانتقال إلى بلد اسلامي قريب إن لم يتيسر رفع الظلم ، لكيلا يعيشوا مستضعفين في الأرض ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً ،

ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴿

وانه يجب على المجمع بعد دراسته أن يبلغ مجلس ادارة الجامعة الاسلامية حيال هؤلاء المستضعفين ، وليستعد لعمل ما ينبغي عمله سياسياً ودولياً ، بل حربياً إن أوجبت الحال ، حتى لا يخذل مسلماً في موضع يحتاج فيه الى النصرة ، فإن رفع الضيم هو سبيل العزة .

وقد سارت الدولة العثمانية تتحدر نحو الهاوية من وقت أن تركت الاندلس تأكلها ذئاب الانسانية ولم تمنعها قوتها الحربية من الترددي وإن حاول حكامها ، أن يسموا أنفسهم أمراء المؤمنين .

الجماعة العلمية أوسع شمولاً :

١٥١ - إذا كان المجمع الاسلامي واسع الشمول في الاتصال بالبلاد الاسلامية وهو المنبه لما يجب من الدراسات الدينية عامة ، واليه ينتهي التجمع العلمي الديني للاسلام ، إذا كان كذلك ، فإن الجماعة العلمية اشمل في موضوعاتها من مجمع البحوث وفروعه ، وإن شئت فقل إن مجمع البحوث الاسلامية مع شموله هو وفروعه ، عندما توجد ، شعبة من الجماعة العلمية ، إذ هو شعبة العلم الاسلامي واحياء تراثه ، ونشره ، وتثقيف المسلمين بالثقافة الاسلامية الصحيحة ، والجماعة العلمية يدخل في عموم موضوعاتها ، إذ انها تشمل على كل علوم الحياة والدين .
فهي التي تنظم الدراسات الاقتصادية ، والدراسات الهندسية ، والدراسات الكونية والطبيعية والدولية وهكذا

إنه لا بد أن تتسلح بكل ما يتسلح به أعداء الاسلام ، وهم الآن يتسلحون بالعلم ، بل إن سلاحهم ثمرة لعلومهم فاذا لم نعد لهم العدة ضعنا بينهم ، والله تعالى يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ، وقوة هذا العصر العلم ،

فهو قبل شجاعة الشجعان ، بل ان شجاعة الشجعان لا تغني شيئاً بجواره .
وان هذه الجماعة العلمية المكونة من كل خبراء العلم في الهندسة والطب
والكون ، والطبيعات ، والكيمائيات ، والفضاء وغيرهم من أهل الخبرة .

وان عمل هذه الجماعة العلمية اولاً دراسة ما تحت يدها من العلوم
ونشره في الأوساط العلمية في البلاد الإسلامية ، ومتابعة تنفيذ ، لدى الجهات
ذوات الاختصاص .

ثانياً - متابعة الدراسات المختلفة في اللغات الحية ودراستها والإشارة إلى
ترجمة ما ينبغي ترجمته منها . وما يكون فيه فائدة للعلم في البلاد الإسلامية في
دأب ومن غير قصور .

ثالثاً - تشجيع الدراسات الخاصة ، وتهئية الاسباب للدارسين الباحثين
في الطب وسائر العلوم .

رابعاً - أن يكون لهذه الجماعة فروع في كل الأقاليم الإسلامية توافيها
بالبحوث المبتكرة ، والمتبعة ، وما يستجد في البلاد الأجنبية من معلومات
في الكون والانسان . اننا يجب علينا أن نساير ركب العلم ، ولا نتخلف
عنه ، فان من يتخلف عنه يعيش في ضلالة عمياء ، لا يعرف فيها ما يعوقه
وما يحبه .

إنه قد أنشئ في مصر مراكز قومية للبحث العلمي ، وهي بسبيل أن
تنتج ، ولكن انتاج التابع ، وأحياناً تجيئنا الصحف السيارة بخبر عن طبيب
مصري ينسب إليه اختراع دواء أو مهندس ينسب إليه إبتداع آلة من
الآلات . ونتمنى أن يعم ذلك البلاد الإسلامية وأن يكون العمل إسلامياً ،
والانتاج إسلامياً .

لقد علم أسلافنا اوربا علم الطب ، وغيره ، ولا نريد أن نعود معلمين لهم
كما ابتدأنا ، ولكن نريد أن نسايقهم في الركب ، ولا نتخلف عنهم ، إنما

يذهب ضياعاً من يكون وراء القافلة التي تسير ، لا يصح أن نرضى بمقام
الخلفين عن العلم ، بل نريد السبق اليه ، فلهم عقول ولنا عقول .

إن المتعصبين من الأوربيين ، ومن لف لفهم ينسبون تخلفنا الى ديننا ،
﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ولو عكسوا لكانوا
منصفين ، لأننا ما تخلفنا إلا يوم تركنا ديننا ، ولم نتدبر قرآن ربنا ، وهو
الذي يحث على العلم ، ويطلب النظر في الكون .

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم الدعوة إلى العلم ، ودراسة الانسان
اقرأ قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ،
اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . ﴾

وان الدعوة إلى النظر في الكون منشورة في القرآن لا تكاد تجد سورة من
سوره إلا وجدت فيها دعوة إلى النظر. اقرأ قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا
في السموات والأرض . ﴾

واقرأ قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسي ، وانبتنا فيها من
كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء
مباركاً ، فأنبطنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد
رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج ﴾ وهكذا تجد الكثير
من تلك الآيات البينات في القرآن الكريم ، ولكننا تركنا التبصرة ، وتبصر
أعداؤنا فسرنا وراءهم ، فهل لنا أن نعلم علم الكون ، وأن يكون لنا معشر
المسلمين جماعة تقودنا اليه .

الوحدة الاقتصادية

١٥٢ - قلنا اننا نقتبس احكام الوحدة ونظمها مما سنه الفاروق في عصره رضي الله عنه ، فقد كان لكل اقليم شخصيته وأمير المؤمنين مسيطر عليهم ، وموجه أوامره اليهم ، خصوصاً ما يتصل ببيان الأحكام الشرعية ، فكانت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هي التي يصدر عنها بيان الأحكام الشرعية .

وكان الاقتصاد الاسلامي متصلاً بين أجزاء الدولة غير منقطع ، وقد أثرنا إلى ذلك عند الكلام في حكم الأقاليم الاسلامية في عهد الفاروق ، ومن بعده في عهد عثمان وعلي ، ثم من بعد ذلك في عهد الملوك الذين حكموا باسم الخلافة الإسلامية ، وكانت الوحدة الاقتصادية قائمة حتى بعد تفرق المسلمين ، فلم يكن ثمة جدارك مانعة ، ولا مكوس ظالمة ، إلا ما ابتدع من ذلك في عهد العثمانيين .

وإن الارتباط الاقتصادي جزء جوهري من الوحدة الإسلامية ، لأن قوى الأمم في هذا العصر تقوم على الاقتصاد ، فأمريكا مثلاً قوتها قائمة على الاقتصاد الأمريكي ، وإن مواردها أعظم الموارد ، ومصانعها من أعظم المصانع ، والاقتصاد أداة من أدوات الحرب بل هو أقوى عدة .

وهو في كثير من الأحيان يبعث الحروب ، وليست الحروب الآن في أكثرها إلا تنازعاً على ينابيع الثروة في الأرض فحيثما كانت هذه الينابيع

اشترأت إليها الاغناق ، وتحركت المطامع نحوها ، وكان التكاليف للوصول إليها أو الاحتفاظ بها ، والمغالبة المستمرة في خفاء وعلان هي للاستيلاء على ركاز الأرض ومعادنها .

وانه بسبب تفرقنا الذي انتج ضعفنا قد صارت ينابيع الثروة عندنا التي هي في حوزتنا وفي أرضنا وفي ملكنا معشر المسلمين موضع تنافس أعدائنا ، بل قد أخذها الذين يقاتلوننا جهراً وفي الخفاء ، يأخذونها منا لتكون قوة لهم يمدون بها أعدادنا ، وحكامنا يصادقون الذين يدبرون قتلنا ويقاتلون الخير في أرضنا ، ويأخذونه أخذاً لماً ، ولا يلقون إلينا إلا الفتات المتساقط من أيديهم . يجعلون منا أدوات الاستغلال ، وآلات العمل ، والنتائج لهم ، فنحن مسخرون لهم ، وما ابقونا إلا لهذه السخرة ، وأضعفونا وأمدوا اليهود وغيرهم بالأسلحة التي يقتلوننا بها ، وليمكنهم من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ويفتحوا لهم الطريق إلى البيت الحرام ، والروضة الشريفة الطاهرة .

لذلك كان لا بد أن يكون لنا اقتصاد موحد لينتفع المسلم بخيرات أرضه ويذهب عنه رق الاستغلال بعد رق الاستعمار ، ورق السخرة التي تجعلنا نحن المسلمين كأننا عبيد الأرض ، وإن الوحدة الاقتصادية تتقاضا أن نتعاون جميعاً على استغلال ينابيع الثروة التي تجود بها أرضنا والتي تكتنزها في باطنها لتكون لنا أولاً وبالذات ، ولا يكون لغيرنا إلا ما يفيض عن الأقاليم الإسلامية ، بعد أن تستوفي حاجاتها منها .

إن الاجنبي يستولي على نفط الحجاز كله وعلى نفط الكويت كله وعلى نفط العراق كله ، وعلى نفط إيران كله ، ولا يعطي أهل البلاد إلا القليل ، ويحمل له أصدقاء ممن يطوعون أنفسهم لصداقته ، ويؤثرونه على قومهم ولا يؤثرون قومهم ودينهم عليه . ويتعللون بالتعللات لتبرير تلك الصداقات وأنه لمن المؤسف حقاً وصدقاً أن مدخرات الدول المنتجة للنفط ترسل إلى المصارف الأوروبية ، وتحتزن في خزائنها ، وتتفق من غلاتها تلك الدول فيما يفيدنها ولا يفيدنا ، فهي

تأخذ منا الأصل ، وتأخذ بعض ثمرات الأصل من اموالنا ، وكل هذا يستخدم ضدنا ، ويرسل أسلحة تستعمل للفتك بنا في ميادين القتال ، ولازعاج الآمنين .

وفي المجتمعات الدولية يلون السنتهم بالباطل ، وإن وجد في بعضهم شعور بالحق ججموا ولم يتكلموا ، لأن العداوة المستكنة في قلوبهم تجعلهم يترددون في الحق . وإن رأينا من بعضهم كلمة ، فليست للانصاف المجرد ، إنما هي من قبيل المغالبة في أمرنا أو الرغبة في أمر يريدون أخذه بتلك الكلمات المعسولة .

١٥٣ - إن البلاد الإسلامية قد جمعت خيرات الدنيا ، ففيها معادن الأرض ، فإذا اتجهنا الى استخراج كل هذا من أرضنا لأنفسنا فاقمنا المصانع ، حيث يكون وقودها يجوارها ، وجمعنا حصاد الأرض ، وزرعناها بالقسطاس بيننا كانت لنا قوة ، وكان لنا العيش الوفير والخير الكثير ، وما كنا عالة على غيرنا في قوتنا أحياناً ، ولا كلا في ثمرات أرض مثلها عندنا ، وما كنا من بعد ذلك أجراء لغيرنا ، وكأنا الغرباء في ديارنا . اننا لا نستطيع الانتفاع بخيرات أرضنا الا إذا تعاوننا جميعاً على استغلال ينابيع الثروة ، ولا يكون لغيرنا منها الا ما يكون فائضاً عن حاجة كل إقليم إسلامي كما أثمرنا . لقد كان المسلمون الأولون يعرفون ذلك التعاون في صدر الإسلام ، ومن بعده حتى تفرقوا وتدابروا ، وتدخل عدو الإسلام فيما بينهم ، فصاروا تابعين لغيرهم ، ليس لهم ارادة في شؤون أموالهم ولا تصرفها ، يؤكلون ، ولا يأكلون ويسخرون لمنافع غيرهم ، ولا ينتفعون ، ويتنازع الأعداء على أرضهم ، كما تتنازع الذئاب على قطيع من الشاء .

إن التعاون الإقتصادي الذي أوجبه القرآن ، وهو الذي يكون الوحدة الاقتصادية ، يتقاضانا أموراً :

أولها - أن يكون أهل الخبرة الذين ينظمون الاقتصاد في أرضنا منا لا من غيرنا ما دامت فينا الكفايات ، وإذا نقصت كفايات رجالنا - زدناهم

بالعلم في بعوث نبعثها ، أو برجال ندعوهم يزودوننا بما ينقصنا من علم على أن يكون توجيههم لنا ، وتحت سمعنا وبصرنا .

واننا إذا اتجهنا مضطرين إلى إحضار خبراء من غيرنا ، نطلبهم من البلاد التي لم نجرب عليها شراً ، أو تكون مصلحتها في أن يقوم الاقتصاد بيننا على أسس سليمة ، وعلى أي حال نشدد الرقابة عليهم ولا نترك الأمر فرطاً.

ثانيها - أن تكون المؤسسات الاستغلالية منا ، وتكون رؤوس أموالها منا ، لا من غيرنا ، فتكون لنا بالرجال والمال ، فإن الأجانب عنا لا يريدوننا إلا مسخرين ، ولا يلبثون إلا قليلاً حتى يتخذوا أموالهم سبيلاً للتحكم فينا ، كذلك كانوا يفعلون في الماضي ، وانهم يتربصون بنا الدوائر لنقع فيها وقعنا فيه من قبل ، فعلينا أن نتخذ من الماضي عبرة ، وإلا وقعنا فريسة في أيديهم ، إن شركات النفط في الأراضي الإسلامية ليست في أرض الإسلام ، إنما هي في إنجلترا وأمريكا ، ويجب علينا أن نجعلها في أيدينا بشركات منا ، فإن كسبت هذه المؤسسات لننا الكسب كاملاً ، وإن خسرت خسرتنا وعالجنا أسباب الخسارة .

إن هذه الشركات تستمد حكوماتها القوة منها ، وتمدها حكوماتها بالقوة .
ثالثها - إن التعاون الاقتصادي أو الوحدة الاقتصادية التي نتفياها توجب أن يكون للمسلمين نقد موحد ، يكون للتعامل فيما بين الأقاليم الإسلامية بعضها مع بعض ولا يلفى بذلك النقد الاقليمي ، بل انه يبقى ليسهل التعامل بين الشعب في الاقليم .

فيكون يجوار النقد الاقليمي نقد موحد جامع تنسب اليه كل النقود الاقليمية بمقاديرها ، فيقدر فيه الدينار العراقي والكويتي ، والليرة السورية ، وغيرها من النقود الاقليمية .

وذلك ليسهل التعامل بين البلاد الإسلامية من غير أن يتخذ النقد الاجنبي وسيطاً في التعامل الإسلامي فيرفع ويخفض على حسب ما يريده الاجانب فينا .

مصرف إسلامي عام :

١٥٤ - رابعها - يجب أن يكون للمسلمين مجتمعين مصرف كالمصرف المركزي في أمريكا ولكن يكون هذا إسلامياً خالصاً ، ويقوم على ما يحله الإسلام ، وما يحرمه يكون ممنوعاً ، وإن ذلك المصرف يجب أن يكون خالياً من إيداع النقود بفائدة ، فإن مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية قرر فيما قرر أن فوائد المصارف ربا ، ما دام المقرض يأخذ الفائدة من غير أن يعرض للخسارة ، وقد جاء ذلك القرار في المؤتمر الأول وقد أيدته المؤتمرات، وأرسل إلى علماء المسلمين في كل البقاع الإسلامية ، فلم ينكر ذلك أحد من علماء الدين وإن ضج حوله بعض علماء الاقتصاد الذين يؤمنون بالاقتصاد الحاضر المشوب باليهودية أكثر من إيمانهم بالقرآن الكريم ، ومبادئ الإسلام .

وإن المصرف يقوم بأعمال جليلة منها :

(أ) أنه يمد المؤسسات الإسلامية التي تستخرج خيرات الأراضي الإسلامية من ينابيعها ، والمؤسسات التي تصنع هذه الكنوز التي تخرجها الأرض، ويسهل تبادل السلع بين المسلمين .

على أنه في إمداده للمؤسسات الإنتاجية لا يستغلها بالفائدة ، بل يكون شريكاً لهذه المؤسسات إن ربحت شاركها بنسبهم مقدر في ربحها ، وإن خسرت كان عليه من الخسارة بمقدار ما أسهم في رأس مالها المستغل .

وقد حقق ذلك صديقنا المرحوم الاستاذ محمد عبدالله الخولي ، وقد قام في مصر مصرف ابتداء صغيراً وحرم الفائدة تحريماً قاطعاً ، وسار على نظام الاقراض مع المشاركة في الكسب ان كسب من اقرضه ، وعلى تحمل الخسارة معه بمقدار ما أعطى ان خسر .

وقد قام ذلك المصرف بأعمال جليلة ، واتسع نطاقه ، وانتقل من مدينة الى مدينة، ولكن سرعان ما حاربه الذين يؤمنون بالاقتصاد الربوي اليهودي،

أكثر من إيمانهم بالقرآن ، فوئدت فكرته في مهدها ، بعد أن بدا خيرها .
ومنشئ ذلك المصرف استدعته المانيا للاستفيد من تجربته وخبرته ، فكان خيره
لغيرنا .

(ب) ومدار أعمال ذلك أنه يسهل تبادل النقد الموحد بين البلاد
الإسلامية ، ويكون له فروع في كل بلد إسلامي ، ليسهل التبادل النقدي ، ولا
يكون ثمة عسر في ذلك التبادل .

(ج) أنه يسهل نقل حاصلات البلاد الإسلامية بعضها الى بعض ، مع
الاحتفاظ بقيمتها من غير وكس ولا شطط .

ومن الحق علينا أن نقول : إننا وجدنا بادرة خير تتجه بالمسلمين الى الوحدة
الاقتصادية .

فقد كان من قرارات المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في باكستان في الشهر
الماضي (شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٠) من وزراء خارجية البلاد الإسلامية أو من
انتدبتهم الحكومات لحضور ذلك المؤتمر - ، تكوين مصرف إسلامي وعهدوا
الى المندوب المصري أن يعمل على إعداد مشروع لإنشاء هذا المصرف مع من
يرى الاستعانة به من الخبراء في الاقتصاد .

ونحب هنا أن ننبه الى أمرين لا بد من العناية بهما :

أولهما - أن يكون الخبراء الاقتصاديون الذين يعينون برأي المندوب
المصري الفاضل من الذين يؤمنون بالقرآن ، أكثر من إيمانهم بالاقتصاد المولود
في أحضان اليهود

ثانيهما - أن يكون ذلك المصرف خالياً من المعاملات الربوية ، وإلا لم
يكن إسلامياً ، بل يكون له من الإسلام الاسم دون الحقيقة .

وصار مصرفاً ككل المصارف ، وفائدته تكون سياسية لا دينية ، والله
الهادي الى سواء السبيل .

لا جمارك بين المسلمين :

١٥٥ - وخامسها - أن تزال المحاجزات الجمركية بين المسلمين ، فلا مكوس ولا ما يشبهها تؤخذ من الحاصلات الزراعية ، والمعادن التي تصدر من بلد إسلامي الى آخر ، وذلك لأننا أمة واحدة بحكم الإسلام ، وهو الحكم الذي لا ترضى حكومة غيره ، وإن المكوس أو الجمارك هي نوع من الاحتكار وتؤدي إليه ، والنبي ﷺ قال « المحتكر خاطيء » ، والجالب مرزوق ، فإذا نحن فتحنا الأبواب ليأخذ كل إقليم حظه من خيرات الإقليم الآخر ، فقد فتحنا باب الجلب ، وغلقنا باب الاحتكار ، وبحسب المآل فتحنا باب الرزق الحلال ، وغلقنا باب الحرام .

وإن عمر بن الخطاب الذي فتحت أول ما فتحت في عهده الأقاليم ، ما كان يضع محاجزة بين إقليم وآخر ، لأن خيرات الأرض للمالك الأرض والسماوات توزع على عيال الله كل بحسب حاجته .

وإذا كان لا بد من وضع جمارك ، فعلى ما يخرج من الديار الإسلامية الى غير المسلمين ، فإنه لا يصدر إلى غير المسلمين إلا ما يفضل عن حاجات المسلمين جميعاً ، فلا تصدر مادة تكون نادرة في إقليم إسلامي إلا بعد أن يستوفي حاجته ولا يستورد من بلد غير إسلامي مادة تكون موفرة في إقليم إسلامي ، ولو كان الاقليم المستورد محتاجاً الى هذه المادة ، فإنه يستوردها من الاقليم المسلم .

ولذلك يجب أن تكون دراسة اسلامية شاملة لخيرات كل اقليم ، وما يحتاج اليه بما لا يكون عنده ، ويرسل فائض خيره إلى من يحتاج اليه ، ويرسل اليه من فائض غيره ما لا يكون عنده .

وبذلك يتحقق الاكتفاء الذاتي للمسلمين ، وأرضهم تكفيهم ، ويفيض منها فائض يرسل في تنظيم دقيق إلى غيرهم .

إن الأراضي الإسلامية في آسية وافريقية ، وبعض أوربا فيها من الخيرات ما يكفي البلاد الإسلامية الضروري منها والحاجي والترفيهي .

إن الوضع القائم غير سليم ، إن من البلاد الإسلامية كمصر من يستورد القمح من امريكا ، ومن فرنسا ، بل من استراليا ، وهي في أشد الحاجة ، بينما الجزائر وحدها تستطيع أن تمد البلاد العربية كلها ، وهي تتجاوز المائة في الحسبة ، وقمحها أجود قمح ، ولكنها تصدره بالثمن لغير المسلمين ، وقيل لتشتري به أسلحة ، ولعله من بعد ذلك يباع للمسلمين

وهكذا غير القمح مما يحتاج اليه ، ولا يستغنى عنه ، يحتلب من البلاد الاوربية ، ولعله في الأصل مجلوب من أرض إسلامية ، والوسيط يتحكم في المسلمين شراء وبيعاً ، فهو يشتري بأبخس الاثمان ، أو بأقل ما يمكن أن يشتري به ، ويتحكم فيه ، ويضن به على البلاد التي تحتاج اليه من البلاد الإسلامية حتى تخزله صاغرة ، ويشترط لها ما شاء من الشروط لأنها محتاجة اليه ، وهي في الحقيقة غنية بأرضها من الاقاليم الإسلامية إن اتجهت إلى توحيد الغاية .

إن الأرض الإسلامية في كل الأقاليم الإسلامية تكفي أهلها ، ولا تحتاج قط إلى غيرها ، وغيرها هو الذي يحتاج اليها .

إن البلاد الإسلامية فيها كل الأجواء ، ففيها النباتات التي لا تنبت إلا في الاجواء الحارة ، وفيها الدوحات من الأشجار القوية البعيدة الجذور في الأرض التي تكثر في البلاد الباردة وفيها المعادن والكنوز ، وفيها كل ما يتصور أن تنتجه أرض ، ولكن كان الاستعمار في الماضي يحرمها من ثمراتها ويستبد هو بكل خيراتها ، وما يبقيه لا يكفي إلا ما يقيم الأود.

وإنه إذا كانت الوحدة الاقتصادية بين البلاد الإسلامية لا تحتاج إلى غيرها ، وغيرها يحتاج إلى ما عندها وإننا إذا اعتمدنا على أرضنا وعلى أنفسنا اتجهنا

إلى استخراج كل ينابيع الثروة في بلادنا ، فإذا كنا لا نطالب أمريكا بقمحها ولا روسيا بما عندها ، ولم نستجد من هنا وهناك ، فانتا لا محالة واجدون في أرضنا كل شيء وسنعمل على استخراجه ، فنستخرج من السودان ما نطيب به أرضه ونحیی مواته ، وان فيه سبعة ومائة مليون من الأفدنة صالحة للزراعة وفيها أطيب الفاكهة التي تترك من غير جني ، حتى تتعفن ، وتصير مصدر داء ، بدل أن نجني منها ثمراً يانعاً ، وطعاماً شهيأ ، والعراق فيه نحو ستة وثلاثين مليوناً من الأفدنة ، لا يزرع منها إلا نحو سبعة ، والباقي واحات شاسعة قد أهملناه ولا نأخذ منه قليلاً ولا كثيراً ، ونتكفف مع ذلك أيدي الذين لا يألوننا إلا خبالاً .

انتا حينئذ نجیی موات أرضنا ، ونستنبت نباتها ، ونستغل خيراتها . وانه إذا كان لدينا ، الاكتفاء الذاتي ، وقد صار فينا مهندسون ، وصناع مهرة أقننا المصانع لتصنيع بلادنا ، وأصبحنا لا نحتاج إلى آلات نستوردها ، ولا إلى معدات نطلبها ، بل نقدم لغيرنا ما يفيض عن حاجات الاقاليم الإسلامية ، وغد الانسانية بكل طاقاتنا ، ولا نكون فرصة تنتهز ولا منالاً لمن يريدنا اتباعاً له من هذا المعسكراً أو ذاك المعسكر ، بل نكون سادة في أنفسنا ، وسادة لما وهبنا الله تعالى من خيرات ، ولا نكون طعمة يتطعمها غيرنا .

الهجرة

١٥٦ - يقول الله تعالى مرشداً هادياً : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ، أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ، فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعملون كيف نذير ﴾ يحرضنا القرآن الكريم على ألا نكون احلاس الأرض ، بل نهاجر حيث السعة ورغد العيش ، ويقول سبحانه فيما تلونا آتفاً ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله ، يحد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ .

وإنه يلاحظ أن الأمريكان الآن بما لهم يأخذون أبناءنا اليهم ، ليعمروا ديارهم ، ويقوموا بالواجبات التي تتقاضاها الحياة عندهم .

وإنه في الوحدة الإسلامية يجب أن تكون الهجرة الى أرض الإسلام ، فيهاجر أهل الخبرة من الاقاليم التي فيها علم مادي بالحياة وما فيها من مادة ليستخرجوا ينابيع الثروة فيها ، ويمنعوا أن يحىء اليهم الذين يستغلونهم لانفسهم ، ويتعرفون الينابيع ليستلبوها .

نريد أن تهاجر هذه الكفايات العلمية الى الاقاليم الإسلامية ، وفيها الخير العميم ، والنفع العظيم ، وارضاء الله سبحانه وتعالى ، ورضوانه تعالى اكبر .

وإنه فوق هجرة العلماء في داخل البلاد الإسلامية بحيث يتوافر في كل بلد إسلامي رجال من أهل الخبرة في الزراعة والصناعة ، وإدارة الدور المالية ، خصوصاً في الشعوب المتخلفة فيها .

إنه فوق هذه الهجرة العملية ، يجب أن يفتح باب الهجرة، من البلاد الآهلة بالسكان إلى البلاد القليلة في أعدادها، لأن السكان في البلاد الإسلامية يتكاثفون في إقليم ، ويقولون في إقليم ، وكما يفيض كل إقليم إسلامي بما عنده من فائض إلى الاقاليم ، فخير فائض هو الأنفس البشرية فالبلد الذي لا تتناسب أرضه مع عدده لقلتها نسبياً بالنسبة لعدد السكان تفيض بالأيدي العاملة على البلاد التي تقل فيها هذه الأيدي .

إن كل الأراضي الإسلامية في مجموعها يزيد على ما يحتاجه كل السكان لو تعاونت كل الاقاليم في توزيع سكانها على حسب الحاجات .

اننا نجد بعض البلاد الإسلامية قد اكتظت بسكانه، حتى بلغ أقصى درجات الكظة .

ونجد بعض البلاد الإسلامية خالياً ممن يعمرها ، كما ذكرنا في السودان ، وفي العراق ، ومثلها كثير .

فإذا فتح باب الهجرة ، ونظمت ، وأحسن كل مسلم أنه إذا انتقل الى أرض من أرض الإسلام، إنما ينتقل الى أرضه ولا يكون غريباً بها ، فإن ذلك يكون فيه الخير، وتستخرج خيرات المسلمين ، ولا تكون مجاعة في بلد إسلامي ويمن الغرب بأنه يسارع الى اغاثته ، وهو يأخذ ماله، ويدفعه الى هذه المحصة .

وبهذه الهجرة وبما ذكرنا ينتفع المسلمون بكل قواهم ومواردهم من زراعية، وصناعية ، ومعدينية ، وإنسانية اللهم هبنا لنا من أمرنا رشداً ، واذهب عنا الأهواء التي فرقتنا ، واهدنا الى ما يجمع الشمل ، وبكشف الغمة .

وحدة السياسة الخارجية

١٥٧ - نقصد بوحدة السياسة الخارجية أن تكون علاقة الأقاليم الإسلامية متحدة في عداوتها وولائها ، وذلك يقتضي أمرين :

أحدهما - ألا يكون بين أي اقليم وآخر من الأقاليم الإسلامية خلاف سياسي يجعل أحدهما يناوئ الآخر في سياسته بالنسبة للعلاقات الخارجية ، ولكل سياسته الداخلية ، ونظمه الدستورية والقانونية بشرط ألا تكون على خلاف القرآن والسنة فالاحكام الثابتة بالقرآن والسنة من غير تأويل عامة بالنسبة للمسلمين اجمعين ويتبع ذلك بلا ريب أن تكون الشورى هي أساس النظام وعلى أساسها يكون النظام ، ومن غير تدخل في أصل الحكم أياكون في بيت واحد ، أم يكون من غير تعيين ، وسواء أكان هذا أم ذلك ، فانه يجب أن يتحقق مبدأ الشورى في الاختيار وفي الأحكام ، وتنفيذها ، فلا استبداد ولا ما يشبهه ولا ما يؤدي اليه بأي صورة من الصور .

ثانيها - ألا يدخل أي اقليم من الاقاليم الإسلامية في أي اتفاق سياسي منفردا ، لأن ذلك قد يؤدي الى أن يتخالف المسلمون في اتفاقاتهم ، فيوالي هذا دولة يعادها اقليم آخر من الاقاليم ، فسدأ للذريعة لا يجوز الاتفاق الانفرادي لأي ولاية أو اقليم إسلامي ، حتى يكون الجميع على ولاء واحد ، وإننا في وحدتنا الإسلامية نتبع التجربة التي حدثت في عهد الراشدين ، ثم في عهد ملوك المسلمين : عندما كانت الوحدة الإسلامية قائمة ، وإن لم يكن النظام

إسلامياً من كل الوجوه على ما أشرنا من قبل، إننا نريد وحدة فيها حرية الأقاليم في إدارة شؤونها، ولكن لها وحدة جامعة هي الجامعة الإسلامية وقد يكون لهذا استثناء جزئي بأن يكون إقليم ثاء وقد اضطرته الأحوال لأن يعقد عقد عدم اعتداء مع الدولة التي تجاوره، فإن ذلك يجوز أن يقسح ولكن يجب إعلام مجلس إدارة الجامعة الإسلامية. وللمجلس الإدارة أن يوافق عليه ليكون موثقاً من الجامعة الإسلامية، ويشترط لموافقتها ألا يكون فيه ما يمس إقليماً أو ولاية إسلامية.

وإن الوحدة في السياسة الخارجية توجب أن يكون المسلمون مجتمعين قوة دولية موحدة، فلا تشذ واحدة منها عن الأخرى.

وقد يكون من الخير أن يكون لكل إقليم صوت مستقل في المجتمعات الدولية ولكنهم عند التصويت في أي أمر يجب أن يكون صوتهم متحداً، ليكونوا قوة مرهوبة يحسب حسابها، وإن ذلك التكتل يقع في المجتمعات الدولية على بقاء كل دولة من الكتلة بصوتها الذي تبديسه، فدول أمريكا الجنوبية تكون كتلة دولية، ولكل دولة صوتها المستقل مع اتحادها جميعاً، وهي تتفق قبل التصويت، والدول الاشتراكية تكون كتلة دولية، ولكل دولة صوتها، ولكنها متحدة في السياسة العامة والاتجاه السياسي العام.

وإن ذلك المبدأ يسير على أساس أن الوحدة الإسلامية ليست دولة واحدة، ولكن لكل إقليم شخصيته مع الاتحاد العام في العمل والغاية ورقعة البلاد.

الأحلاف :

١٥٨ - أساس السياسة للوحدة الإسلامية أن تكون محايدة في الجملة، لأنه مع تنازع المآرب والغايات في دول العالم لا يصح أن تنحاز لمجموعة من الدول ضد مجموعة أخرى، لأنها لا تكون عاملة للإسلام، بل تكون عاملة لمن انحازت إليه.

ولذلك لا يصح أن تشترك الوحدة الإسلامية في أي حلف ، وذلك لما يأتي :

أولاً - أنها ان اندجبت في حلف فقادة الحلف ، والدول العظمى فيه هي التي تسيره ، وتوجهه ، وفي هذه الحال تفقد جزءاً من استقلالها السياسي ، ولأنها تكون سائرة مع القوي ، ظلم أو عدل ، استقام أو اعوج ، واعتبر ذلك بحال بعض الدول الإسلامية التي دخلت في حلف الاطلنطي ، فإنها لا تسيير سياسته ، وليست عندها الطاقة لأن تسيير سياسته ، أو يكون لها دخل في تسييرها ، ولقد حدث أن أسلحة الاطلنطي كانت مسخرة لضرب البلاد الإسلامية التي تريد أن ترفع نير الاستعمار عنها ، كالجائر ، فإن أسلحة ذلك الحلف هي التي كانت تضرب ثورة الجزائر التي انتهت بأن ألفت بالاستعمار في البحر المتوسط .

وانه عندما أراد اعداء الحق انشاءحلف سموه حلفاً إسلامياً كان المقصود منه أن يجعل المسلمين جميعاً في قبضة الأمريكان الذين لا يرجون للإسلام وقاراً ، وسياستهم ضد الإسلام على خط مستقيم .

وثانياً - ان الاحلاف تجعل الجامعة الإسلامية تتعرض للهجوم من كانت الحلف ضدهم .

وثالثاً - ان هذه الاحلاف في واقعها في هذه الايام تناقض مبدأ الاسلام في الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ ويقول سبحانه تعالت كلماته : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ وفوق ذلك فإن الاحلاف العسكرية في حروب هذا العصر الذي أساسه التغالب ، ولا يتحرى العدل ، بل يقع في الظلم ، هو تعاون على الاثم والعدوان ، والله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾ .

ورابعاً - ان الاسلام دعا إلى ألا يقاتل المسلمون من لا يقاتلون ، بل يكون غير منحاز ، ولقد قال تعالى بعد الأمر بقتال المعادين للاسلام الذين يمتدون على المسلمين قال سبحانه : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلكم ، أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلكم ، واقفوا إليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ ويأمر المسلمين بالألا يقاتلوا من يلقي السلام ، فيقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ، فقتبنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ، فقتبنوا ، إن الله كان بما تعلمون خبيراً ﴾ .

وهكذا نجد النصوص القرآنية واعمال النبي ﷺ تدل على أن التحالف الذي يدعو إلى التكتل ، وأن يكون المتحالفون ضد طائفة من الناس ، ولا يكون أساس التحالف دفع الظلم ، ومنع الأذى ، بل يكون الأساس هو المغالبة بين مذهبين ، أو اتجاهين ، أو نوعين من الناس ، ويكون فيه خروج عن الإسلام وبذلك يفترق الحلف عن الميثاق الذي يكون للمودة والمعاونة .

العهود أو المواثيق أو الأحلاف الفاضلة :

١٥٩ - إذا كانت المحالفات مع غير المسلمين لا تجوز ، فالمعاهدات تجوز ، و فرق بين الحلف والمعاهدة ، لأن الحلف اتفاق على الحرب ، والاتفاق على الحرب مع غير المسلمين يجر الإقليم الإسلامي إلى أن يحارب ، سواء أكانت الحرب جائزة في الإسلام أم لا ، لأن الحرب في الإسلام لا تجوز إلا لدفع الاعتداء ، أو لدفع الفساد في الأرض كما قال الله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ فالهرب الإسلامية حرب فاضلة تدفع اليها الفضيلة وتظلها الفضيلة ، وذلك غير مضمون

في الأحلاف المطلقة التي تكون ضد مذهب ، أو ضد جماعة ، أو تكون عوناً للقوى في الأرض غربية وشرقية ونحو ذلك .

وان هذا يدفعنا إلى أن نقول إن نوعاً آخر من المحالفات العادلة يجوز ، كالمحالفات التي تكون للعمل على معاونة الضعفاء ، كحلف الفضول الذي عقد في مكة قبيل البعثة المحمدية ، فقد عقد في دار عبدالله بن جدعان حلف قوامه أن المتحالفين يتحالفون لينصروں الضعيف على القوي ، وليأخذن على يدي القوي ، ما رسا حراء وثبير ، وما بل بحر صوفة .

فان هذه محالفة دفعت اليها الفضيلة والنخوة العربية ، وهو فضيلة في ذاته ولذا قال فيه النبي ﷺ « حضرت بدار عبدالله بن جدعان حلفاً ، ما يسرني به حمر النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » فهذا النوع من الأحلاف لا يوجد مع الأسى والأسف ، انما الذي يوجد هو الأحلاف الآثمة التي يتحالف فيها الاقوياء ، ليجتازوا العالم ، ويفرضوا على الناس ما يفرضون ، وهي أحلاف في أساسها كما ذكرنا تعاون على الاثم والعدوان .

وهذا النوع الذي نستنكره ، وندعو الجامعة الاسلامية إلى ألا تؤيده غير الحلف الفاضل الذي أقره النبي ﷺ ، وندعو الجامعة الاسلامية أن تكون الجامعة الدولية التي تحت على الفضيلة في الجماعات ، كما يحث الإسلام على الفضيلة بين الآحاد .

وان نصرة الضعفاء ولو كانوا غير مسلمين أشد أنواع البر تقريباً إلى الله تعالى فلقد قال ﷺ : « ابغوني في ضعفائكم ، فانما تنصرون وترزقون بضعفائكم لأن العدل خلق الإسلام ، والله تعالى يقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

هذا هو الأمر بالنسبة للأحلاف حلالها وحرامها .

أما المعهود الموثقة ، فإنها تكون انتهاء للحرب ، أو تنظيماً للسلم وإنه كان لا بد للإسلام من أن يضبط المعهود والمواثيق ، لأنه جاء لنقض ما يكون باطلاً ، وسن ما يكون حقاً ، وينظمه .

وان المعاهدات قبل الإسلام كما هي الآن يتخذها القوي لفرض سلطانه على الضعفاء ، حتى إذا قوي الضعيف نبذها ، وقاتل لاجراء نفسه من ذل الضعف إلى غطسة القوة وهي الآن كذلك كما أشرنا من قبل ، والإسلام دين العدل لا يفرض المعاهدات إلا لمنع الحرب ، أو لانها القتال ، أو لتنظيم سلم عادل .

وإذا كان الإسلام قد قرر فيما قرر أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هي السلم ، حتى يكون اعتداء أو فساد يجب دفعه ، فالمعاهدات تكون لانها حرب عارضة ، والعود إلى حال السلم الدائم وإقرار بها وتثبيت لدعائها لكيلا يكون بعد ذلك اعتداء إلا أن يكون نقضاً لعهد .

ولقد كان رسول الله ﷺ يعقد المعهود والمواثيق لتثبيت السلم فعقد مع نصارى نجران وعقد مع اليهود الذين كانوا ينقضون عهد الله من بعده ميثاقه .

ولقد جاء في كتاب كتبه لليهود يثبت فيه عهده ، جاء فيه :

« لكم ذمة الله وذمة رسوله ، على أنفسكم ، ودينكم ، وأموالكم ، وورقكم وعلى كل ما ملكت أيما نكم ، لا يبطأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون ، من سافر منكم فهو في أمان الله ، وأمان رسول الله ﷺ » لا إكراه في الدين .

وهذا عهد تفيض معانيه بالأمان والحرية ، ولكنهم نقضوه ، وتأمرؤا مع المشركين ، والشديدة ، تحيط بالمدينة ، والبلاء بلاء ، وما جزاء الخيانة إلا أن ينزل بهم ما كانوا يريدون أن ينزلوه بخياناتهم لله ولرسوله ، وللحق والذمة وقد كان الصحابة من بعد رسول الله ﷺ يعقدون المعاهدات للموادة

والمسالمة ، ول منع الحرب ، ومن هذه المعاهدات معاهدة الإمام عمر رضي الله تعالى عنه لأهل إيلياء بيت المقدس ، وقد جاء فيها ما نصه : هذا ما أعطى عبدالله عمر بن الخطاب أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ، ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيما وبريئا ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ، ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود .

المعاهدات لا تقر الظلم :

١٦٠ - إن المعاهدات الإسلامية تكون لأمرين . أولهما تثبيت السلم والعمل على استمراره ، وثانيها - إقامة العدل ومنع الظلم ، ولذلك لا يقرر الإسلام إطلاق أيدي من يعاهدونه من الملوك أو الكبراء في ظلم الرعايا وارهاقهم .

وإن الفقهاء المسلمين قد نظروا في المعاهدات التي تعقد مع الملوك أو الحكام وقرروا أنها تكون على أساس العدل ، ومصلحة الرعايا قبل مصلحة الملوك والحكام ، ولذلك كان العهد قائماً على أن يعدلوا مع رعاياهم ، ولا يرهقوهم ، ولقد جاء في كتاب المبسوط للرخسي من فقهاء الحنفية ما نصه : « إذا طلب ملك الذمة العقد على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء ، من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الإسلام ، لم يجب إلى ذلك ، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع حرام ، ولأن الذي يلتزم أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات فشرطه بخلاف موجب عقد الذمة باطل ، فإن أعطى الصلح والذمة على هذا بطل من شروطه مالا يصح في الإسلام ، لقوله ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله باطل »

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين عند إقرارهم العهود والمواثيق التي تسوغ بقاء الملوك على عروشهم يحكمون في رعاياهم مع بقائهم في عهد مع المسلمين يشترطون

العدل ، لأن الشروط التي تقبل في المعاهدات هي الشروط العادلة وكل شرط فيه ظلم للرعايا يكون باطلاً ، وفي موضع اللغو ، ويبيح للمسلمين التدخل لمنعه .

وإن ذلك هو الذي يجب أن تعطيه الجامعة الإسلامية في عهودها لتضرب الامثال للناس في إقامة العدل ودفع الظلم ، ولتكون جامعة أسست على تقوى من الله ورضوان ، ولينشر العدل ، ويذهب الظلم ، ولتملأ الدنيا عدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً .

الوفاء بالمهود :

١٦١ - الوفاء بالمهود أمر أوجبه الإسلام ، وحث عليه، ولو كان صاحب العهد مشركاً، ولقد قال تعالى في ذلك ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . ﴾

ولقد جاء الأمر الصريح بالوفاء بالعهد في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسؤولاً ﴾ .

وإن دين الفضيلة والعدالة يوجب الوفاء بالعهد، ولقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ والوفاء بالعهد في ذاته فوق أنه عدالة وفضيلة هو قوة ، والنكث في العهد ضعف، ولقد قال تعالى مؤكداً وجوب الوفاء بالعهد: ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن الله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ولتسألن عما

كنتم تعملون ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم ﴿

وإن هذا النص فيه تشديد على وجوب الوفاء بالعهد ، وتغليظ لنقضه ، ونشير الى أن أشد النقص ما كان بين شعب وشعب ، ويريد الناقض أن يزداد قوة ، أو أن تكون رقعة أرضه أقوى .

وإن الآية الكريمة تدل على أمور :

أولها - أن العهد الذي يذكر فيه اسم الله ، أو يعقد باسم الإسلام هو عهد الله تعالى ، فمن ينقضه ، فإنما ينقض عهد الله تعالى وميثاقه ، فجرمه عظيم ، وليس اعتداؤه مقصوراً على من نقض عهده .

ثانيها - أن العهد في ذاته قوة ، والتزامه قوة ، لأنه يأمن فيه جانب الاعتداء ، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام ، والسلام تطمئن فيه الشعوب ، وتستقر ، ولذلك شبه من ينقض عهده بحال الحمقاء التي تغزل غزلها تحكها ، وتقويه ، ثم بعد ذلك تنقضه انكاثاً أي اجزاء صغيرة متفرقة مشعثة ، وذكر أن النكث فيه زلل للقدم بعد ثبوتها ، إذ أنها تثبت بالسلم الذي أوجده العهد ، وفي السلم قوة وثبات ، والنقض إزالة للأمن وللثبات المستمر ، والاطمئنان الدائم .

ثالثها - أن النص الكريم يشير الى ما يدفع الى النقص من طبائع الملوك الذين لا يبنون سلاماً ، وهو ارادة إتساع رقعة الملك ، ونماء القوة على أساس من الظلم والارهاق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي لا يصح أن تدفعكم الرغبة في زيادة الرقعة ، وكثرة عدد الحكوميين ، وقوة العتاد على النقص ، لأن النقص زلل يؤدي الى الضعف ، وإلى الاتزعاج المستمر ، وإلى الخوف ، وإلى التعرض لتهلكة الحرب ، وضعف ثقة الناس ، ومقى ضعفت ثقة

الناس في دولة لا يطمئن اليها، ولقد وصفت إحدى الدول الكبرى المعاهدات بأنها قصاصات أوراق ، فلما احتاجت الى عقد المعاهدات لم تجد من يطمئن الى عهودها فنفرت منها كل الدول، وكل القوى وأنه يجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد إلا إذا ظهرت بوادر الخيانة ، ولا يصح النقض لمجرد خوف عدم الوفاء من غير بوادر الخيانة، ولقد روي أن المؤمنين شكوا الى النبي استعداد المشركين بعد صلح الحديبية ، فقال لهم ﷺ : « وفوا لهم واستعينوا الله عليهم » .

ولكن إذا ظهرت الخيانة ، وقامت اماراتها وجب أن ينبذ اليهم عهدهم، ويعلنوا بذلك وهذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ ﴾ فانبذ إليهم على سواء ﴿ أي يرد عليهم عهدهم ، ويعلنون .

الخلاصة :

١٦٢ - أما بعد ، فإنه يجب أن تتحقق الوحدة الإسلامية في السياسة الخارجية، وتقوم على أساس من الحكم الإسلامي الصحيح ، والمصلحة الإسلامية التي يدعو اليها الإسلام ، وأن يكون العدل أصلاً من أصول هذه العلاقات ، فإنه الميزان للحق والمقياس ، والميزان الذي لا يخطئ ، وهو مبدأ الإسلام في المعاملات الانسانية آحاداً وجماعات .

وإنه يجب التنبيه هنا الى أمر ذي شأن ، وهو مبدأ من مبادئ الإسلام المقررة الثابتة .

ذلك الأمر أنه إذا حصل اعتداء على الأقليات الإسلامية من الدولة التي تعيش فيها فإنه يجب على الجامعة الإسلامية ، أن تتصل بهذه الدولة لتمنع الظلم الواقع على تلك الأقلية المسلمة ، فإن المسلم أخ المسلم لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ، كما صرح النبي ﷺ .

وإن النبي ﷺ قرر ذلك المبدأ الجليل ، فلا مناص منه ، وذلك أن النبي ﷺ أرسل الجيوش الإسلامية لمقاتلة الروم ، عندما تبين أنهم قتلوا من دخلوا

في الإسلام من الفساسة في الشام ، فكان القتال المرير في غزوة مؤتة وتبوك ، ثم جهز جيش أسامة في آخر حياته ، وأوصى بأن ينفذ بعد وفاته .

وان ايذاء المسلمين ، كما هو واقع في بعض البلاد الافريقية فتنة لهم في دينهم ، وقد قاتل النبي ﷺ قريشاً ، لأنهم كانوا يفتنون المؤمنين في دينهم والفتنة أشد من القتل ، وقد قال تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ﴾ .

انه يجب أن تكون الجامعة الإسلامية عزاً للمسلمين في قلتهم وكثرتهم ، ليكونوا أمة وسطاً للخير في هذا العالم الذي يمجج بالفتن ويموج بالشر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ فلنكن تلك الأمة الوسط ، وهي المثلى .



وحدة الجيوش

وحدة الجيوش في الجامعة الإسلامية :

١٦٣ - لسنا من رجال الحرب ، ولا من العارفين لأساليبه ، ولا ممن عنوا بدراسة تاريخ الحروب العالمية من عهد نيبال إلى عهد هندندبرج ، ولم ندرس إلا تاريخ الحروب الإسلامية في غير استقصاء لمناهجها ، ولا تعرف دقيق لأساليبها ، ولذلك نترك الكلام في ذلك إلى أهل الخبرة في الحروب الذين مارسوا بعضها ، ودرسوا جلها ، ولهم في ذلك بحوث في مجالاتها ، وكلامهم فيها هو المحدث في مثل هذا الموضوع .

ولكننا نريد أن نقول كلمة صغيرة في هذا المقام فيما يتعلق بالوحدة الإسلامية ، وما تتبعه الجامعة الإسلامية مشيرين غير مبينين ، لأننا لا نملك البيان ، ولكيلا نكون كحاطب ليل .

(أ) انه يجب أن يكون للمسلمين وحدة رئيسية لجيوشهم ، هي التي تدبر ، وهي التي تهيم ، وهي التي تجيب عند أول هجمة ، وتكون قوة الجيش للمسلمين جميعاً ، لا لقوم دون قوم ، ولا إقليم دون إقليم .

(ب) وانه يجب أن يكون في كل إقليم اسلامي قوة تحمي الإقليم من غارات من يحاورونه حتى لا يراد بسوء ، وأن يكون في كل إقليم وزارة للحرب .

ولكن يجب أن يكون نظام هذا الجيش الاقليمي خاضعاً للجامعة
الاسلامية ، وأن يكون تحت اشراف مجلس جامعة الدول الاسلامية والجيش
الكبير الجامع لكل القوى .

(ج) ويجب أن تزود القوى الاسلامية كلها ، بالمواد الفتاكة التي تكون
في قدرة كل دولة ، فان ذلك يدخل في مضمون قوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما
استطعتم من قوة ﴾ ، فان القوة تختلف في الحاضر عنها في الماضي وان تزويد
القوى الاسلامية بكل ذلك فرض كفاية ، لا يصح أن تتخلى عنه الجامعة
الاسلامية ، وان ذلك يقتضي أن يتجه علماء البحث والدراسة الى متابعة ما
تسلح به الجيوش في البلاد المختلفة ، ولا يني علماء المسلمين عن هذه المتابعة ،
على أن تصنع في الديار الاسلامية ، انه لا يمكن أن تكون الأمة حربية اذا
كانت تستمد اسلحتها من فضل غيرها ، فقد يعطي ، وقد يمنع ، وهو
في العطاء والمنع لا يلاحظ إلا مصلحته هو وان هذا الفرض الكفائي يجب
على الأمة مجتمعة ، وممثلة في مجلس ادارة الجامعة الاسلامية ، ويجب على
الخصوص على العلماء الباحثين الذين يؤهلون لذلك وعلى الأمة الاسلامية مجتمعة
أن تهيم لهم الأسباب ، بأن تعد لهم المعامل التي يحرون فيها تجاربهم ،
والمواد التي تتكون منها ، والمال الذي يحتاجون اليه .

إن البلاد الاسلامية أرضها غنية بكل ما يمكن أن تكون منه تلك
الاسلحة المختلفة ، وان البلاد التي تستخدم الذرة بكل انواعها ، يأخذون
من افريقية ومن غيرها المواد المكونة لها .

ولسنا نطلب ذلك ليكون من الجامعة الاسلامية اعتداء ، بل هو لدفع
الاعتداء والحارب مأخوذ بسلاح محاربه فيجب أن يكون في يده ما يماثل ما
في يد خصمه ، وان المعتدي ان شعر بذلك تردد في اعتدائه ، أو امتنع عنه ،
فالاستعداد أنفى للاعتداء ، ويجعل المعتدي يتردد فيه .

واعبر ذلك بما بين أمريكا وروسيا ، فكلتاها لا تفكر في الاعتداء على

الأخرى مع شدة التنازع المادي ، واختلاف المذهب الاجتماعي ، لأن كاتبيها تحشى ما عند الأخرى .

فنحن نريد السلاح لا لنعتدي ، ولكن نريده لنكون في أمن منه ، وإن الشر يدفع بمثله ، وكما قال علي رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة . « ادفعوا الحجر من حيث جاء فإنه لا يدفع الشر إلا شر مثله » . وبعبارة أخرى لا يمنع الشر إلا الاستعداد للدفعه ، وابلغ أنواع الاستعداد هو الاستعداد العلمي في تلك الحرب العلمية .

وإن وجد شر قاتل ، وهو الحرب بالمبيدات ، لأن الذين فقدوا سلطان الضمير الانساني يحاربون بالآفات التي تهلك الحرث والنسل ، وتبيد الزروع في منابتها ، فيجب علينا أن ندرس هذا لنعاملهم بالمثل إن أقدموا عليه . وإذا كنا في بعض كتاباتنا قررنا أن الإسلام لا يعمل على الاعتداء على الشعوب الآمنة ، ويمنع إتلاف الزرع وإتلاف الحيوان من النعم في غير مأكلة ، فإن ذلك كان في الحروب الماضية التي كانت لا تتجاوز معسكر السلطان ، أما الآن فإن الحرب حرب شعوب ، ولأننا نريد أن نمنع الأذى عن الشعوب الإسلامية ، بل نريد أكثر من ذلك أن نمنع التفكير في الأذى .

مجلس للقيادة

(د) وأنه يجب مع ما سبق أن يكون ثمة مجلس للقيادة الحربية الإسلامية يجتمع فيه أولئك القواد من الأقاليم الإسلامية يمثل كل إقليم عضو أو عضوان أو أكثر ، وأن يكون هناك قائد اسلامي عام ، يضع الخطط بالاشتراك مع أهل شوري الحرب .

(هـ) وأنه يجب مع ذلك أن تكون في الجامعة قوة للأمن داخلية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وليكن من بين الشعوب الإسلامية في التكوين السياسي مجلس للأمن مكون من أعضاء يمثلون الأقاليم الإسلامية وأن يكون لهذا المجلس قوة قائمة تمنع اعتداء إقليم على إقليم .

فإذا اعتدى إقليم على إقليم كان لمجلس الأمن ، أو عليه أن يتدخل لمنع الاعتداء ، بل انه يجب أن يتدخل عند حصول الاختلاف الاقليمي ، وذلك تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَمَاذَا لَمْ تَقَاتِلَا فِي بَيْنِهِمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالْمُفْسِدِينَ الْعَمَلِ أَكْبَرُ ۚ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

فهذه القوة الإسلامية التي تكون تابعة ، لمجلس أمن الدول الإسلامية تكون لتردع الجاني ولتحمله على الجادة ، ولتنفيء إلى أمر الله .

إننا لا نضمن إخلاص كل الحكام ، ولا نضمن الدخيل المفسد ، فلا بد من قوة رادعة ، والله سبحانه بكل شيء محيط .

مجلس الجامعة الإسلامية :

١٦٤ - هذه العناصر المختلفة من تنفيذ احكام الله تعالى التي وردت بها النصوص الشرعية ، ووحدة السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات بين الأقاليم الإسلامية ثم تنظيم الحرب ، وكل ما يتعلق بها ، ومنع البغي من إقليم على إقليم كل هذا يحتاج إلى رياسة موجهة ، تتفق مع بقاء شخصية كاملة لكل إقليم في أرضه ودائره .

وإن هذه الرياسة لا يمكن أن نجعلها لواحد منفرداً عن أهل الشورى ، فقد جربنا ذلك في حكم الملوك الذين تسموا باسم الخلفاء إذ انهم كانوا ينفردون بالأحكام ، ومن حولهم ظل لهم ، لا إرادة لهم يجوار إرادتهم ، وإذا كانت لهم إرادة ، فانما يحيطون بها على هوى هؤلاء الملوك الذين سمو أنفسهم خلفاء وأمراء المؤمنين .

وإذا كانت خلافة كخلافة أبي بكر وعمر ، فانهم كانوا يستشيرون ، وما كان أهل شوراهم يقولون غير الحق مرضاة لهوى أحد وكان لعمر نوعان من الشورى .

أحدهما - الشورى الخاصة، وهي التي كان يصطفي بها كبار علماء الصحابة مثل علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل، وهؤلاء كانوا يستشارون فيما يستغل من الأمور .

وثانيهما - شورى عامة ، كان يدعو فيها الى ظاهر المدينة كل البالغين الراشدين من أهل المدينة ، وذلك في المسائل التي لا تعالج حالاً خاصة ، بل يكون فيها تقرير لأمر دائم ، أو تكون علاجاً لحال لها خطر وشأن .

ومن ذلك ما دعاهم لأجله عندما أراد أن يترك أرض العراق وفارس في أيدي زراعها ، فقد جمع أهل البلاد وقال لهم رأيي ، واستمعوا الى رأي مخالفيه الذين كانوا يريدون تقسيمها كغنيمة .

وقد استمرت المناقشة بثلاثة أيام، وانتهت بالخضوع لرأي عمر رضي الله عنه عندما ساق لهم الآية الدالة على أن الأرض تبقى في أيدي الزراع ، وخراجها يكون للمسلمين ممثلين في ولي الأمر وبيت مال المسلمين .

ومن شوره رضي الله عنه العامة أن بلغه تكاثر أهل فارس على المسلمين ، فأراد أن يخرج بنفسه الى الغزو فجمع أهل المدينة ليستشيرهم في ذلك ، فتكلموا في ذلك ، وأشار عليه علي رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه في الجنة بأن يبقى ، حتى لا يكون ما يدع وراءه من العورات أشد مما يلقي المسلمون، وحتى لا يشتد عليهم على الجيوش الإسلامية ويقولوا هذا أصل العرب ، إن قتلناه ، تفرقوا ، فنزل عمر رضي الله عنه عند ذلك الرأي .

١٦٥ - من بعد أن جاء ملوك بني أمية ، ثم ملوك بني العباس ، وان تسمى ملوك الدولتين بأسماء الخلفاء وأمراء المسلمين - من بعد ذلك أهملت الشورى فتحكم الفرس والترك . وانحلت الوحدة الإسلامية ، على ما ذكرنا مما أثر في هذا الاجتماع الاسلامي وتفرق بعده المسلمون .

لذلك كان لا بد أن تكون الرياسة الإسلامية لغير واحد . وقد تنتهي الى واحد يختار من بينهم لمدة ، وليس لمدى الحياة ، وقد نعد هذا هو خليفة المسلمين ، ونعده أمير المؤمنين ، ويكون أميراً لهم حقاً وصدقاً .

ولكن كيف يتكون هذا المجلس الذي ترجع إليه أمور ثمانمائة مليون مسلم موزعين في الأرض ، يتكون هذا المجلس من عناصر ثلاثة .

رجال لهم خبرة في السياسة والادارة ونظم الدول ، ورجال لهم علم في الإسلام ، ورجال لهم خبرة في الحروب .

وهؤلاء يكونون أولي الأمر فينا الذين أمرنا الله تعالى بطاعتهم ، إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يَرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝﴾ .

وإن أولي الأمر الذين أمرنا بطاعتهم صنفان ، العلماء الذين يتعرفون الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله . والثاني الحكام . وهذا ما يقرره العلماء وابن تيمية في هذا ، إذ يقول « وأولو الأمر في هذا صنفان العلماء والامراء ، وهم الذين اذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منها أن يتحرى ما يقوله وما يفعله طاعة لله ورسوله ، واتباع كتاب الله تعالى ، وليس معنى كون العلماء من ولاية الأمر أن أقوالهم حجة في ذاتها ، فليسوا كالأخبار عند اليهود والنصارى أقوالهم حجة في ذاتها ، انما هم مستنبطون مفسرون للكتاب والسنة ، وليس كلامهم حجة إلا بمقدار سلامته في استخراج الحكم من مصدره ، فالمصدر هو الأصل المتبع ، ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة يقول : « ليس لأحد أن يأخذ بقولنا إلا إذا علم من أين أخذنا » .

والأمراء هم الحكماء ، ويدخل فيهم المحاربون ، فهم أمراء الحرب
أو ولايتها .

كيف يختار مجلس الإدارة :

١٦٦ - يختار غير الحربيين من مجلس الإدارة وهم العلماء والذين يدبرون
السياسة الإسلامية ، ويوثقون الصلات بين الاقاليم المختلفة ، ويعرفون حاجات
كل اقليم ، ويراقبون شؤونه ، ويوثقون العلاقات الاقتصادية ، يختارون بالانتخاب
ويختارون مدير السياسة بالانتخاب من المجالس النيابية في كل إقليم فكل اقليم يختار
مجلسه النيابي واحداً أو اثنين ، ليمثل الاقليم في مجلس ادارة الجامعة الإسلامية .
ويختار المجلس الأعلى الإسلامي في كل إقليم اسلامي اثنين من العلماء أو
أكثر ، وذلك للرقابة على تنفيذ القوانين الاسلامية ، في ظل القرآن والسنة
وما ينبغي اتباعه في الاقليم .

وذلك ليكون المجلس ممثلاً لكل عناصر التكوين للجامعة الإسلامية .

وان مجلس الجامعة الإسلامية هو الذي يختار من يرى أن يضمهم اليه من
قادة الحروب ومن يرى الأمور فيها ويلاحظ أنه ينبغي أن يكون مجلس
الجامعة ممثلة فيه كل المذاهب الإسلامية ، فيكون فيه علماء من المذهب الزيدي
وآخرون من المذهب الجعفري ، وغيرهم من المذهب الاناضي ، ثم المذاهب
الأربعة ، ولا يلزم أن يبعث كل اقليم في مذهبين مختلفين ، بل يلاحظ أن
يكون مجموع أعضاء المجلس فيهم هؤلاء الممثلون للمذاهب لا أن يختار كل
اقليم ممثلين له من كل المذاهب ، فان ذلك يحمل العدد كثيراً ، وكلما كان في
دائرة معقولة من حيث العدد كان الاتفاق أقرب ،

وننبه إلى أمرين جديرين بالاعتبار :

أولهما - ان هذا المجلس يختار رئيساً له . ويُعَدُّ ذلك الرئيس هو الامام
الاعظم للمسلمين أو هو الخليفة أو هو أمير المؤمنين ، كما أشرنا من قبل ، على

أن يكون اختياره لأمد معلوم كما قلنا من قبل ، ولا يكون مدى الحياة .
ثانيها - أن اختيار هذ الرئيس يكون بأكثرية خاصة ، وهي الثلثان
للحاضرين على الأقل ، ويعزل بمثلها أيضاً ،

وقرارات المجلس تكون ملازمة لكل المسلمين ، ولا تجوز مخالفتها .

هذا واننا نرى أن يكون مكان مجلس الادارة هو المدينة المطهرة ،
حيث جثان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها المدينة التي كان يقيم
بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الاسلام ، ولأنها كانت موطن
الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ، وما خرج علي عنها إلا لأجل
الحوادث .

أما بعد :

فهذه خواطر عرضت أبديتها ، وقد دفعني اليها أمران :

أولهما - ما نراه الآن من التدابر بين المسلمين ، حتى انه ينظر حكام
القوم من المسلمين الى اخوانهم من المسلمين نظرة من لا يربطه به رابطة ،
ويؤثرون ولاء غير المسلم على ولاء المسلم ، وتنزل النازلة بقوم من المؤمنين ،
فلا يحس بأنه منهم ، وهم منه ، ونجد هذا الفريق يوالي تلك الدولة من أعداء
الله والايان ، ونجد الآخر يوالي دولة أخرى ، بينها وبين الأولى عداوة ،
ونحن تبسح لهما في عداوتهما . وإن تحابا فليس لنا معهم أمر يراعى ،
وخيراتنا لغيرنا ، والله تعالى يقول : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من
دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة
ويحذرکم الله نفسه ﴾ .

الأمر الثاني ما نراه في تاريخنا وما أسعفنا به ديننا من وحدة إسلامية
مكتننا من أن نهاجم الباطل في مواطنه ، فأزلنا حكم الأكاسرة ، وحررنا
شعوبهم ، وأزلنا حكم الرومان في الشرق ، ورفعنا راية الحرية والمساواة :

بالمؤاخاة التي كانت بيننا ، والمحبة التي كانت تربط بيننا ، والتي كانت يتألم المؤمن في الشرق لما ينزل بأخيه في الغرب ، حتى تحقق فينا قوله ﷺ : مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وإن تلك تلك الخواطر التي سقناها لا ندعي أنها نظام وضعناه ، ولكننا استمليناه من حال المسلمين في عهد محمد ﷺ ، وعهد الراشدين أحبوا السنة وأماوا البدعة .

وقد يقول قائلون اتنا خيالين ، لأن الواقع لا يؤيدنا ، وكان يجب أن نوائم بين ما ندعو اليه وما يمكن تحقيقه .

ونحن نقول ان المبادئ الثابتة لا يمكن أن تستمد من واقع هو الداء الذي تشكو منه ، وإذا كانت دعوتنا الرجوع الى حالنا في عهد النبي والراشدين خيالية ، فإنه لا إصلاح قط ، ولا سبيل الى الرجوع الى عزة الدين ، وقوة اليقين ، وخير لنا حينئذ أن نستبدل بدين العزة دينا آخر نتسريل فيه سربال الذلة ، إن الحكمة القديمة تقول : « إنما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها » .

إن العمل يجعل الأمور حقائق واقعة ثابتة ، فلنعمل ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ .



فهرست

الصفحة	العنوان
٥	المقدمة
١١	الوحدة الاسلامية : تكوينها، قيامها، انقسامها، طريقة جمعها
١٣	تمهيد
٣٥	تكوين الوحدة الاسلامية في عهد النبي ﷺ
٤٦	الى يثرب
٥٢	الهجرة
٨٧	تمام الوحدة في عصر النبي ﷺ
٩٨	الاتجاه بالدعوة إلى غير العرب
١١٢	الوحدة الاسلامية في عهد الراشدين
١٦١	الفرقة بعد الوحدة
٢٣٢	كيف تتكون الوحدة الآن
٢٤٢	شكلها
٢٤٥	الجامعة الاسلامية
٢٤٩	الشورى أساس الجامعة الاسلامية
٢٥٢	تنفيذ الأحكام الاسلامية قوام الجامعة
٢٧٢	الثقافة في الجامعة الاسلامية
٣٠١	الوحدة الاقتصادية
٣١٠	الهجرة
٣١٢	وحدة السياسة الخارجية
٣٢٣	وحدة الجيوش
٣٢٦	مجلس الجامعة الاسلامية